

بحار الحب عند الصوفية



أحمد بهجت



المختار الاسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ ـ القاهرة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م


بسم الله الرحمن الرحيم

وقفة امام صورة

اذا وقفت روحى امام البحر .. احسست اننى اقف امام كفء لى .. فالبحر ــ كما يقولون هرمان ملفيل ــ ارض غفل أزلية مجهولة الهوية ، والانسان هو الآخر ارض مجهولة الهوية ، ولا احد يعرف ــ ســـوى الله تعالى ــ هل تنتمى هذه الروح بالميلاد لعذوبة الحليب ، أم انها ابنة شرعية لوهج النار ..

وفى الانسان وداعة تتبدى فى البحر سطحا ازرق .. غير ان وراء هذه الوداعة قوة تدمير هائلة .. واى قطرة من المياه تسقط بانتظام على صخرة ، تستطيع أن تثقب الصخرة بقوة لا تستطيعها رصاصة تنطلق من سلاح ..

وكثيرا ما سحق البحر بثورته آلاف السفن منذ بدء الخليقة الى اليوم ، ومع ذلك ، فان تكرار هذه الأمور جعل الانسان يفقد احساسه برهبة البحر وقوته ، تلك الرهبة التى تقترن باسم البحر منذ بدء البدء ..

ايضا يفقد الانسان احساسه بالرهبة التى تعيش داخله لأنها تعيش داخله .. يعتـــاد عليها كما يعتــاد على التنفس ، ومع الوقت ينسى انه يتنفس ..

واول سفينة قرانا عنها كانت تسبح على صدر طوفان ولد من دعوة نبى غاضب ، وقد اغرق هذا الطوفان عالما باكمله ، لم يترك عينا تطـرف او حياة تتردد ..

« وفتحنا أبواب الســـماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر » ..

ولقد نسى المعاصرون هذا الطوفان القديم .. رغم أنه لم يزل يهدر الى اليوم ، وهو الذى حطم سفن هذا العام وسفن العام المنصرم ، هذه هى الحقيقة ..

ايها الأحياء الحمقى .. ان طوفان نوح لم يتوقف .. وما زال يغطى اربعة أخماس هذا العالم الجميل ..

نحن نعيش على الأرض .. نتصور اننا نعيش على ارض ..

وحقيقة الأمر ان الانسان يعيش على الماء .. فى جزر وســـط الماء .

قارات الدنيا وطرقها وبلادها ومدنها وقراها كلها جزر صغيرة ضئيلة وسط موج لا يكف عن لطم الشاطىء .

وحين التقطت سفن الفضاء صورة للكرة الأرضية ، لم ينتبه احد منا الى ان الكرة الأرضية ليست ارضية ..

انما هى كرة مائية ..

ظهرت زرقاء فى الصور الفلكية .. لأن اغلبية الأرض مياه ، وهى اغلبية ساحقة تتيح للبحار ان تفوز فى اى انتخابات بينها وبين الأرض ..

اربعة اخماسها مياه .. والخمس الباقى هو المعارضة ..

ورغم أن أهل الأرض يتعصبون للأرض ، واحياء المياه يتعصبون للمياه، ويهلك إبناء الأرض لو سقطوا فى الماء ، وتحتضر خلائق المياه لو خرجت الى الأرض ..

رغم هذا فان هناك تفرقة ظالمة بين الأرض والبحار ..

لماذا تعد المعجزة فى الأرض معجزة وتفقد اسمها فى البحر ؟ لقد انشقت الأرض أمام قورح وجنوده وابتلعتهم الى الأبد ، وصرخ العبرانيون أمام المعجزة ، وتنشق المياه كل يوم وتبتلع سفينة فلا يقول الناس عما حدث انه معجزة .. اليست قوة البحر معجزة .. أليس غضبه معجزة ..

تأمل البحر حين يثور ، عبثا تسأل عن رحمته او ترجوه ضبط انفاسه ، انه يغمر الأرض لاهثا ناخرا كأنه جواد حرب هائج مجنون تجندل عنه فارسه ..

ثم .. ها هو الفارس يعود لامتطاء جواده بعد إن بعثته الرياح الشرقية من الموت ..

وها هو البحر الغاضب المهول يتحول الى طفل بالغ الوداعة ..

وتتحول أمواجه الثائرة من أفواه مفتوحة للموت .. الى سطور من أبيات شعر زرقاء تقبل أقدام الشاطىء ..

واحيانا تنصرف مشيئة الله تعالى الى شىء يتصل بالبحر ..

ويطيع البحر قوانين لا ندرى عنها شيئا ، وتنشق مياهه عن طريق مفاجىء يسير فيه موسى مع بنى اسرائيل .. ثم يتذكر البحر انه قد نسى شيئا فيعود لاحضاره ، ويلتئم على جيش فرعون وجنوده ..

نعم .. كلما زاد تأمل الانسان فى البحر زاد احساسه بدهاء البحر ومكره .. معظم مخلوقات البر تدب فوق البر ظاهرة للعيان مكشوفة واضحة ..

أما البحر فبالغ الدهاء .. ومعظم وحوشه المخيفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة فى معظم الأحيان ، مستخفية استخفاء الماكر الرواغ تحت إجمل الألوان الوديعة الزرقاء ..

هل يحاكى البحر الانسان فى دهائه .. أم أن الانسان تعلم دهاءه من البحر ، لا احد يعرف ..

بوصفنا من البشر سوف نشهد للبشر .. وان كانت الحقيقة ستظل مجهولة رغم هذه الشهادة ..

أليس الانسان هو المخلوق الذى تتأمل صفحة وجهه الجميل وتنظر فى عينيه الهادئتين ولا تعرف أنه سيغرس خنجره فى ظهرك حين تعطيه ظهرك ..

هذا المكر مدين بمولده للبحر الكامن فى روح الانسان ..

لا نريد أن نطيل وقوفنا امام البحر ..

فقط نريد أن نتأمل البحر .. ونتأمل هذه الأرض الخضراء الوديعة الطيبة التى تحيط به من كل جانب ..

تأملهما كليهما .. البحر والبر ..

ألا ترى فيهما شبها غريبا لشىء مستقر فى نفسك ..

مثلما يحف هذا المحيط المهول بهذا البر الأخضر .. كذلك تنطوى روح الانسان على جزيرة حافلة بالسلام والبهجة ، جزيرة تحيطها مرعبات هذه الحياة الغامضة المروعة ..

رعاك الله ..

لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها أبدا ..

. . . .

وقفة امام البحر

اعرف أن الانسان هو المخلوق الذى يستمع الى النصائح ولا يلتزم بها . ومهما يكن من أمر ، فان البحر العظيم الذى كنا نتأمله منذ لحظات ؛ ليس فى حقيقته الا صورة للبحر ..

الانسان هو البحر الحقيقى ..

حين يحب الانسان .. يتحول الى حقيقة البحر

نعطى ظهرنا للصورة ونتأمل الأصل ..

نتأمل بحار الحب عند الصوفية ..

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيرا عن الحب .. هل هو الولع بالأسرار الكامنة فى مياه البحر .. أليس الماء أصل كل شىء حى ..

. . . .

قبل ان يبدا البدء او يكون الكون ..

قبل ان تصفع الشمس ظلالها على الأرض ..

قبل أن تخلق الأرض من انفجار كونى او ابتسامة كونية نتيجة امر يتالف من حرفين ..

قبل اى قبل ..

كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..

كيف كان ..

اين كان ..

أفضل ان نذيب الأسئلة فى خشوع ماء يترجرج موجه بالسجود ..

« وكان عرشه على الماء » .

سبحانه وتعالى ..

كيف كان عرشه ..

هذا سر سكت عنه الحق ..

اين كان عرشه ..

هذا سر اجاب عنه الحق فزاد السر ولم ينقص ولم ينكشف « وكان عرشه على الماء » ..

اى ماء .. اين كان هذا الماء ..

اسرار وراء اسرار ..

. . . .

الشاطىء اسرار ..

وبحار الحب عند الصوفية إسرار ..

والصوفية اهل عطش الى الحقيقة .. والحقيقة كائنة فى الماء واحيانا يكتب العارفون كلماتهم على الماء .. واحيانا يسير رجال على الماء ويهلك من العطش رجال افضل منهم ..

أمر محير حقا ، ولكنه لا يستوجب اهدار المحاولة ..

قبل أن ننشر اشرعتنا البيضاء ونبحر فى بحار الحب ، نريد ان نعبر نهرا صغيرا متقلبا .. هو هذا الجدل حول الصوفية ..

يعتقد البعض أن التصوف كلمة لا علاقة لها بالاسلام .. كلمة دخيلة على الاسلام .. ويرى البعض أن التصوف بمعنى الصفاء فى حب الله هو لب

الاسلام .. ومثلما يقف البعض من التصوف موقف العداء والحذر والتشكك والرفض ، يراه البعض غاية سير السائرين ومقصد أمل العابدين ..

ولكل فريق حجته وأسلوبه فى اثبات وجهة نظره ..

ننظر فى اوراق الفريقين قبل ان نقطع برأى ويستبد بنا اعجابنا بهذا الرأى على امتداد التاريخ الاسلامى ..

نشب العداء بين الصوفية وغيرهم من الفرق .. وتجادلوا كثيرا واختلفوا كثيرا ..

من اعداء الصوفية علماء الكلام ، فقد رفع علماء الكلام رايات العقل ، على حين رفع الصوفية شعار القلوب والأسرار ..

من أعداء الصوفية أهل الظاهر ، وهؤلاء هم الذين يلتزمون بنصوص الآيات ويقفون عندها فلا يتزحزحون ، والأصل انهم ينظرون الى ظاهر الأشياء ، ويأخذون بظاهر الآيات ، لأن الغوص فيما وراء ذلك ليس فى امكان الانسان ، لأن السرائر والقلوب والنوايا والخفايا اسرار لا يطلع عليها غير الله ..

اما الصوفية فقالوا انهم يدعون أهل الظاهر فى المياه الآمنة ، وسيمضون هم فى البحار غوصا وبحثا عن كنوز القاع ..

من أعداء الصوفية أهل الشريعة احيانا ، ويسمى الصوفية أنفسهم أهل الحقيقة تمييزا لهم عن أهل الشريعة ، ويتساءل أهل الشريعة اذا كانت الحقيقة ليست كائنة فى الشريعة فلماذا انزلها الله ؟

ولقد حفلت كتب القدماء بهذا الجدل الطويل ، ولم يخل الأمر من معارك استخدمت فيها السيوف احيانا حين أعيا المجادلين المنطق ..

أما المعاصرون ففيهم رافضون كثيرون ..

كل الملاحدة يرفضون التصوف باعتباره تجربة روحية ، لأنهم لا يؤمنون بالروح كما يؤمن بها المؤمنون ..

وفى الفلاسفة من يرفض التصوف كأسلوب من أساليب البحث عن الحقيقة لأنهم يرون الفلسفة هى الأسلوب الوحيد للبحث عن هذه الحقيقة ، وفى المعاصرين من ينظر الى التصوف فيراه شرا كله ، ويعتبره لونا من الوان الهروب العاجز اليائس الى الخرافات والعجائب ، وفى الباحثين من يدرس التصوف فيرجعه الى أصوله الهندية والفارسية ويبين تأثره بلاهوت المسيحية وفلسفة بوذا واضرابه ..

وفى المسلمين المتشددين من يعتقد أن التصوف انحراف عن الاسلام وجهاده الى رهبانية اسلامية جديدة لم يأمر بها الله ولم يضعها الرسول ،

وأهم دوافع الرافضين للتصوف تكاد تنحصر في الأدلة التالية :

أولا : ان التصوف بدعة ، فلم نسمع عن الكلمة فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح الرسول الكريم بقوله : « من أحدث فى امرنا هذا ما ليس منه فهو عليه رد » .. وما دام التصوف بدعة فهو مرفوض .

ثانيا : ان التصوف مرض ، اندلع كالنار فى جسم الأمة الاسلامية من اطرافها مما وراء الجزيرة العربية ، حيث تحركت البقايا من ثقافة المجوس فى خرسان وبلخ فى محاولة لاستعادة الأرض التى فقدتها فى عقول المسلمين الجدد ، وتسللت عقــائد الحلوليين فيما تاخم الهند من بلاد العراق ، وانبعثت اباطيل الفلاسفة فيما اتصل من البلاد بأرض مصر واليونان .. وهكذا تسلل التعقيد الغامض الى العقيدة الاسلامية الواضحة المشرقة .. وادى صراع الصوفية مع علماء الكلام الى خلق ما يشبه قذائف الأعماق التى تنفجر داخل جسم الأمة الاسلامية بأصوات مكتومة لا تتيح لأحد أن يحذرها .. وبعد ان كان الاسلام هو دين العقل والقلب والمنطق والعدل صار معرفة تبحث عن نفسها فى الذوق والشوق والمشاهدة والمكاشــفة والعشق والجذب ، وغير ذلك من افانين التصوف ومبتكراته المسرحية ..

ثالثا : ان التصوف كهانة ورهبانية ، وبهــذين الوصفين يخرج من الاسلام وان تدثر بعباءة الاسلام ..

. . . .

هذه اهم حجج الرافضين تماما للتصوف ..

والحقيقة أن اول ادلتهم فى الرفض يكفى وحده لاغلاق باب الجدل .. فهم يعتقدون أن التصوف بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضــلالة فى النار ..

والحق ان موقف الرافضين للتصوف ليس كله بهذا القطع .. ان هناك من ينظر اليه فيقبل منه اجزاء ويرفض منه اجزاء ، ويختار ما يتفق معه ويرفض ما لا يقبله .

وقد آثرت ان أورد راى اهل الذروة فى الرفض لأتكلم عن راى اهــل الذروة فى القبول ..

فى الصوفية من يدافع عن نفسه بغير اسلوب الدفاع .. لا يهاجم الفكرة التى ترمى التصوف بالخروج على الاسلام والرســول ، وانما يؤكد أن التصوف هو قلب الاسلام وفطرة البشرية وهو سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

يقول كتاب من كتب المحدثين فى التصوف ..

« التصوف عبادة وطهارة وزهد . ثم كشف وفيض واشراق ثم اتصال بالخالق الأعظم الذى صدر عنه الكون ، أليست حياة محمد فى الغار صورة كاملة للصوفى الحق ، اليس هذا التأمل المحمدى فى عظمة فاطر السماوات والأرضين ، أساسا للأذواق والمواجيد الصوفية ، وسبيلا للكشف والفيض والاشراق .. غير أن محمدا نبى ولا نبى بعده ، وانما أحباؤه واتباعه على سنته وهديه كان صلوات الله عليه أمام الصوفية الأكبر ، وكان يواصل التعبد والتهجد ، وكان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه فتقول له السيدة عائشة :

ـ لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ..

فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ أفلا أكون عبدا شكورا .

ويروى الصوفية أحاديث كثيرة عن زهده وتحنثه فى الغار وكراهيته للدنيا وايثاره للآخرة وتواضعه للخلق ..

وقد دخل عمر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده يضطجع على حصير خشن ترك آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فسأله الرسول عما يبكيه قال ان ارى كسرى وقيصر على الحرير والاستبرق وأراك على هذا الحصير .. فغضب الرسول وتساءل : اتريدها كسروية يا عمر ؟

هذا راى المغالين فى تأييد التصوف وذلك راى المغالين من اعداء التصوف بسطناهما لنعرف ماذا يقول كل فريق ..

ونحن لسنا مع الفريقين لأننا لسنا مع الغلو أو التزيد ..

لست إعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صوفيا ..

لست أملك أن أطلق على الرسول صفة لم ترد عنه ولم يوصف بها فى حياته ..

هو اجتراء اذاً أن نسميه بعد موته صلى الله عليه وسلم بوصف مستحدث .. حتى لو كان هذا الوصف مائدة من المديح والتعظيم .

الرسول صلى الله عليه وسلم نبى مرسل .

وهذه درجة لا يمكن للبشر الفانين معرفة قدرها .

وليس بعد النبوة درجة او صفة او تكريم او امتياز .

ايضا لسنا ضد التصوف الى الحد الذى نخلعه من الاسلام ونرميه

بتهمة البوذية والفارسية والهندية ونراه مرضا يصيب الروح فتهرب الى التيه والشتات ..

لو تصورنا ان قاضيا من بنى البشر يريد ان يحكم على التصوف فكيف يحكم عليه .

يجب على القاضى ان يكون هادىء العقل .. غير منحاز الى معسكر ضد معسكر ..

يجب على القاضى ان يكون امامه قانون يحكم به .. ومعيار يزن على اساسه ..

لا ينبغى ان يطمئن القاضى لقانون غير القرآن ..
نحتكم الى القرآن اذاً .

ما وافق القرآن كان حقا وان حمل اسم التصوف او اسم الظاهر .. او أى اسم ..

وما خالف القرآن كان باطلا وان حمل اسم الحقيقة ..
هذا هو المعيار الذى نطمئن له ..

• • • • • • • • • • •

قبل ان نحتكم الى القرآن ونبدأ سياحتنا فى بحار الحب .
نريد ان نعرف اسرار هذا الجدل الطويل حول الصوفية .
لماذا اختلف الناس وانقسموا ؟.

ان جواب هذا السؤال رغم بساطته سر من أسرار الخليقة .

خلق الله الناس على قدر من التفاوت فى الفهم والاحساس والمقدرة .. فى الناس من يمشى وراء عقله ، ومنهم من يمشى وراء قلبه ، وفيهم من يرفع لواء الضمير ، وفيهم من يخرج على هذا كله لشىء أخطر ، وعدم تساوى القدرة البشرية أو العقل البشرى يعنى أن الناس سوف تختلف ..

ولقد خضع الاسلام فى القرون الأربعة عشرة التى عاشها على الأرض لما خضعت له كل الأديان السابقة عليه من ضروب الدرس والفهم والتفسير والتاويل ، واذا كان كتابه قد ظل بغير تحريف ، فان فى هذا الكتاب قد تعرض لما يتعرض له فهم أى كتاب مقدس .

ان ظهور اتجاهات فى العقائد والعبادات والمعاملات ، قد أدى لنشوء مذاهب فى الفلسفة والفقه ، ومدارس فى علم الكلام والتصوف .

وكان طبيعيا أن يبدأ الاختلاف والمعارضة .

ان للمتكلمين فهمهم الخاص لأمهات العقائد والدفاع عنها .. وللصوفية موقفهم المختلف عن موقف علماء الكلام ..

بل ان المتكلمين ليسوا سواء فى فهمهم للعقيدة .. والصوفية ليسوا سواء فى نظرتهم الى الأمور .

والذين يؤولون الكتاب ويفسرونه يختلفون أحيانا اختلافات محيرة .. نضرب مثالا بقوله تعالى ((**يد الله فوق أيديهم**)) اذا فهمها انسان بمعنى اليد ، مع التنزيه والتقديس ، وفهمها انسان آخر بمعنى القدرة ، فأيهما على حق ..

ان الاثنين على حق ..

يجب ان تعترف أن كثيرا من المختلفين يتكلمون باسم الاسلام وينتمون اليه ويصورون الاسلام لغيرهم كما تصوروه هم انفسهم .. وهم فى هذا كما يقول سادتنا واساتذتنا مجتهدون ، ان اخطأوا فلهم اجر ، وان اصابوا فلهم اجران .. ومن حقهم علينا ان ندين لهم بالفضل والشكر وان نحاول فهم آرائهم ووضعهم فى سجل التراث الفكرى الاسلامى أولا .. والتراث الفكرى العالمى بعد ذلك .

والحقيقة انه ليس هناك فى فهم مسائل الدين ما يمكن ان نسميه كاذبا او صادقا .. ما دام قائما على أساس من الكتاب والسنة . وما دام المتأول لا يخرج بالنص عن المعانى التى جرى بها العرف فى اللسان العربى .. بل أقصى ما توصف به تأولات المتأولين أنها حرفية ضيقة ، او متحررة واسعة ، أو أكثر عمقا فى الروحانية . أو مناسبة لموضوعها ..

ان الصلاة عند الفقهاء افعال واقوال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ..

والصلاة عند الصوفية مناجاة قلبية بين العبد والرب .. أليس الاثنان على حق ، ان النظر الى الله باعتباره معبودا نظر صحيح .. والنظر اليه باعتباره محبوبا أولا ومعبودا ثانيا نظر صحيح ..

نبتعد اذن عن هذا الجدل والخصام وليكن امام القاضى قانون واحد .. هو القرآن .

هل وردت كلمة التصوف فى القرآن ؟

لم ترد الكلمة ..

يقول الصوفية ان القرآن لم يورد الكلمة ولكنه اورد قصة عظيمة هى لب التصوف الاسلامى ..

قصة موسى عليه الصلاة والسلام .. والعبد الربانى .

* شاطىء بحر ..

هذا مكان القصة ..

الشاطىء رمادى باهت ، والبحر أمامه ساكن ، والمكان مضبب بشىء يشبه السر ..

ليس هناك بحر واحد ..

هناك بحران يلتقيان معا .

اى ان هناك سرين قد اجتمعا فازداد الأمر غموضا فوق غموض .

أقدام موسى تدب على رمال الشاطىء وقواقعه ، العصـــا تنغرس فى الرمال واحيانا يبلل الموج نهايتها ..

وتحس العصا انها تعيش زمنين معا ، طرف مغموس فى مياه ملحة باردة وطرف يتلقى أشعة الشمس الدافئة .

والمياه سر .. والشمس هى الأخرى سر .. وزمن القصـــة سر هو الآخر ..

لا يقول لنا القرآن الكريم متى كان ذلك ..

لا يقول لنا أين كان ذلك ..

حدد القرآن المكان ولم يحدده ..

ان موسى يقرر أمرا مفاجئا ..

« واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحـــرين أو أمضى حقبا » .

ان موسى يقرر لفتاه (وهو فتى لايذكر القرآن اسمه) .. انه سيمضى حقبا ومسافات وأزمنة .. حتى يصل الى مجمع البحرين ..

اين كان مجمع البحرين هذا .. أين كان لقاء البحرين هذا ..

لا يقول لنا القرآن الكريم شيئا عن المكان فهو قد حدده ولم يحدده ..

ولقد تحدث كثير من المفسرين عن هذا المكان ، وحدده بعضهم ، واجهدوا انفسهم فى محاولة تعيينه ، ونرى ان هذا كله غير مطلوب ولا مقصود .. فان هذا الجو الخارجى الغامض المشحون بالأسرار يتفق تماما مع الجو الداخلى الغامض المشحون بالأسرار ، ويتفق مع لب القصة وهدفها ..

. . . .

يقول المفسرون ان رجلا من قوم موسى سأله يوما :

ــ من أعلم الناس فى الأرض اليوم يا موسى ؟

قال : أنا .. وقالها باعتباره كليم الله ونبيا من أولى العزم الكبار .. فأوحى اليه الله أن يذهب الى مكان ليلتقى بعبد من عباد الله .. ولسنا نعلم هل كان موسى ذاهبا ليتعلم .. هل أخبره الله تعـالى أنه قد تجاوز

حدوده حين اعتقد انه أعلم الناس ، فهو رغم نبوته وكونه « كليم » الله تبارك وتعالى ، فقد يكون فى الأرض من هو اعلم منه .. هل ذهب موسى لهذا السبب أم ذهب لأن الله أمره بالذهاب ليرى لونا آخر من العلم الذى يختلف عن علمه ..

لسنا نعرف لماذا ذهب موسى بالتحديد .. لاتشى الآيات القرآنية بسر ذهابه .. انما تخفى هذا السر ، وهكذا يذهب موسى امامنا كأنه يمشى فى ضباب ..

تأمل العبد نفسه الذى ذهب اليه موسى ليتعلم منه ويتبعه ..

ان العبد بغير اسم .. يقدمه القرآن مجهولا بغير اسم .

لم يحدثنا الحق تبارك وتعالى عن اسمه .

« فوجدا عبدا من عبادنا » ..

تأمل هذه العبارة **« عبدا من عبادنا » ..**

ان العبد الصالح المنسوب لله تعالى يظهر على مسرح الأحداث مدثرا بالغموض ملتفا بالضباب .

رجل بلا اسم .. مثل تلميذ موسى .. مثل المكان الذى ذهب اليه .

هذا الغموض الذى يرتقى لحد الرهبة الساكنة مقصود ومتعمد لخدمة الغرض الأصيل فى القصة ، وهذا من الوان التصوير الفنى فى القرآن كما يقول الأستاذ سيد قطب .

نريد ان يتأمل القارىء هذه الآيات ليرى اعجاز الأسلوب الذى يسوق الله تعالى به بدايات القصة ..

« واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضى حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال ارايت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا ، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا .. فوجدا عبدا من عبادنا » ..

تأمل ظهور العبد على مسرح الحدث .. ان صورا غريبة تقع امامنا قبل ان يظهر هذا العبد ..

فى البدء نرى موسى مصرا على عدم اليأس ، فهو لن يتوقف عن الترحال والبحث حتى يصل الى مجمع البحرين ، ويصل موسى مع فتاه بعد رحلة شاقة الى المكان المحدد ..

وينسى فتى موسى « حوتا » صغيرا ، ينسى سمكة كانت مشوية على النار ومهيأة لغداء موسى ، ينساها تماما فتعود السمكة الى الحياة وتتسلل

فى البحر عجبا .. امر بالغ العجب أن تعود السمكة الى الحياة وتعود الى البحر بعد أن طهيت على النار ، لكن الأسرار تزيد كلما تقدمت سطور القصة ، ونحن لا نعرف لماذا وقعت هذه الخارقة أو المعجزة فى هذا الوقت بالتحديد ، وسنفهم فيما بعد أن هذه المعجزة اشارة موحية من الله تعالى بتحديد المكان الذى سيعثر فيه موسى على العبد الربانى .. بعد أن تسللت السمكة الى البحر ، سار موسى وفتاه حتى تعب موسى وأحس بالجوع ، وقال لفتاه آتنا غداءنا .. وتذكر فتى موسى كل ما حدث ..

تذكر انه رأى السمكة تقفز من السلة الى البحر .. وتسبح فيه وتمضي فى طيات الموج مثل سر صغير يذوب فى سر أكبر ..

ونسى فتى موسى كل شيء عما رآه .. انساه الشيطان أن يحدث موسى بما وقع ، وذلك أمر غريب ، لأن ما وقع كان جديراً بأن يذكره ، فهو معجزة ، وكان جديرا بأن يحدث عنه موسى ، لأنه ربما كان اشارة لموسى بشيء ..

ويبدو أن موسى اغفى قليلا فوقع ما وقع أثناء نومه ، وشاهده فتاه وخادمه ، فلما استيقظ موسى نسى فتاه كل شيء عما حدث ، وعاد يسير مع موسى حتى دميت اقدامهما من السير واحسا التعب وجلسا للراحة ، وتذكر موسى غداءه وامر فتاه أن يحضره ، عندئذ تذكر الفتى أن الحوت الصغير قد عاد الى البحر .. وانبأ موسى بما وقع ..

وفهم موسى الاشارة الالهية على الفور ..

قال ذلك ما كنا نبغ .. هذا ما نريده بالضبط .. هذه المعجزة او هذا السر اشارة الى سر آخر سنجده فى هذا المكان ..

وعاد موسى مع فتاه يقصان آثار أقدامهما حتى عادا الى المكان الذى تسلل فيه الحوت ..

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » ..

ينسب الله تعالى العبد الى نفسه ، وينسبه الى عباده الذين آتاهم رحمة من عنده ، ويقدم الله تعالى العبد بوصفه عبدا **« علمناه من لدنا علما »** ..

هذا بطل القصة .. وهو رجل بلا اسم .. وان اعتقد المفسرون انه الخضر عليه السلام ، وان القرآن لم يصرح باسمه لأن التصريح باسمه لا يعنى شيئا ، وعدم التصريح باسمه يعنى آلاف الأشياء ..

نحن أمام رجل اتاه الله من علمه اللدنى .. وهو علم هائل ، وان كان سرا كله ، وهو علم يرتدى أكثر من قناع ، وربما نظرت فى صفحته البادية

فرأيت مأساة أو جريمة ، ولكن قاع الحقيقة يختلف كل الاختـــلاف عما تراه ..

هذا العلم اللدنى يختلف تماما عن العلم البشرى ..

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

تشير هذه الآيات الى العلم البشرى .. وهو علم يرمز له القرآن الكريم بالقلم .. أما العلم الآخر ، أو العلم اللدنى ، فهذا نوع آخر ، وهو ليس منسوبا الى الله فحسب ، انما هو من لدنه سبحانه ..

. . . .

لم يكد موسى يلتقى بهذا العبد حتى سأله أن يعلمه .

« قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » .

السؤال من موسى وهو سؤال جدير بأن يثير دهشتنا قليلا ..

ان موسى كما يرسمه الحق تبارك وتعالى فى القرآن رجل قوى عنيف سريع الغضب ، انه يتدخل فى مشاجرة ويدفع بيده رجلا فيقتله ، وهو حين القى العصا من يده فصارت حية أصابه الروع وولى هاربا ، وهو حين عاد يحمل الواح التوراة ووجد قومه يعبدون العجل ثار ثورة هائلة والقى الواح التوراة من يده وامسك براس أخيه ولحيته معنفا :

« قال يا ابن ام لا تاخذ بلحيتى ولا براسى » .

ولو عرفنا من قائل هذه الكلمات لأدركنا غضب موسى ، قائل الكلمات هو هارون النبى الكريم وشقيق موسى ..

بل ان موسى ظل غاضبا فترة ، وعبر القرآن عن هذا الغضب بصورة فنية معجزة فى قوله تعالى **« فلما سكت عن موسى الغضب » .**

نريد أن نقول ان موسى كان سريع الانفعال سريع الغضب ، وأحيانا كان صبره ينفد ، حتى فى مواقف الخوف أو الرهبة ، ان صبره ينفـد فيقول الحقيقة كاملة ، وها هو امام جبار الأرض فرعون يقول له بعنف **«وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل»** هل تمن على انك استخدمت بنى اسرائيل عبيدا لك ، هذا يحتسب ضدك ولا يحتسب لك .

نريد أن نقول ان موسى هذا النبى السريع الغضب ، يتحول الى شخص آخر ، فيحدث العبد الذى عثر عليه بأنه يريد أن يتبعه .. ويريد أن يتعلم منه ..

ورغم هذا السؤال الهادىء الدمث .. نرى العبد الصالح يجيب موسى اجابة عنيفة « **قال انك لن تستطيع معى صبرا** » .

بهذه الجملة السريعة ينبه العبد موسى الى حقيقة الفرق بين العلم البشرى والعلم اللدنى ، فالعلم اللدنى ثقيل ولن يصبر عليه موسى ، ولن يصبر على اتباعه بالتالى .

وربما أحس العبد أن موسى فوجىء ، فعاد يحدثه عن بديهية مفترضة :

« **وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا** » .

الصبر يكون حين تعرف أقدار الأشـــياء ، ويكون حين تفهم اخبار الأشياء ، ولن احدثك عن أسرار الأشياء .. ولهذا لن تصبر عليها ..

عاد موسى يقول بأسلوب يشى بالرغبة والالحاح ..

« **قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك امرا** » .

خضوع مطلق من تلميذ لن يعصى لأستاذه أمرا .

ووعد فى نفس الوقت بالصبر .. والصبر هو احتمال ما لانفهم .

ويضع الأستاذ شروطه :

« **قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى احدث لك منه ذكرا** » .

الشروط .. الا تسأل ..

السؤال ممنوع تماما .. مهما رايت .. مهما تحيرت ..

لا تسأل حتى أحدثك أنا .. عبارات العبد قصيرة وتلغرافية وموحية .

وافق موسى على الشرط وبدأ رحلته مع العبد الصالح .. « **فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة** » ركبا فى سفينة رحبت بهما ورفض صاحبها أن يتقاضى منهما أجرا لأنهما غرباء ، وفوجىء موسى حين غادرها صاحبها ، فوجىء أن العبد الصالح الذى جاء يتعلم منه منهمك فى خرق الســـفينة واتلافها .. بل انه « خرقها » .. وغلبت موسى طبيعته المندفعة فى الحق ، وحركه غضبه على الخطأ فانطلق يقول للعبد :

« **اخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا امرا** » .

يتهم موسى العبد بأنه قد ارتكب خطأ بالغا ، فهو يرد على احســـان أصحاب السفينة بالايذاء ، وهو يعرضهم للغرق والموت بفعلته .. وينظر العبد الصالح الى موسى ولا يزيد على أن يقول له :

« **قال الم اقل انك لن تستطيع معى صبرا** » ..

انه يذكره بما سبق أن قاله له ، ان علمه ثقيل ولا قدرة لموسى على احتماله ..

ويعود موسى الى الاعتذار .

« قال لا تؤاخذنى بما نسيت » .

وبعد الاعتذار رجاء بألا يرهقه العبد الصالح من امره عسرا ، لقد نسى وهذه هى المرة الأولى ، ليسامحه هذه المرة ..

ونكاد نحس من غضب موسى المستتر لهفته البالغة فى التعلم ومصاحبة هذا العبد ذى التصرفات الغريبة .

ويعاود موسى مصاحبته للعبد ...

« فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله » .

كان تصرف العبد هذه المرة غاية فى الغرابة .. نحن امام جريمة قتل ، وهى جريمة شاهدها موسى واندهش لها دهشة عميقة ، وثار بسببها ثورة عميقة .. وكان بطلها هو نفس البطل الذى خرق السفينة ..

وعاد موسى يوجه حديثه اليه :

« قال : اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا » .

النفس الزكية هى الغلام ، وهى زكية لأن الغلام صغير السن لم يرتكب بعد من الجرائم ما يسمح بقتله .. وقتله هنا شىء منكر بالغ البشاعة ..

وعاد العبد الصالح يلفت موسى الى جملته الأولى التى قالها له مرتين قبل ذلك :

« قال الم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا » .

لو تأملنا غموض العبد فسوف نلاحظ أنه يزداد كلما تقدمت القصة ، فهو لا يتكلم .. بطل القصة الرئيسى لا يتكلم مطلقا ، انما يتصرف فى هدوء صامت ، وهو اذا تكلم قال لموسى انك لن تستطيع معى صبرا ..

وهو يقول هذه الجملة ثلاث مرات .. وفى المرة الثالثة يعترف موسى بأنه يوشك أن يؤكد ما قاله الأستاذ من أنه لن يصبر ، وكل ما يطلبه موسى فرصة أخيرة يثبت فيها صبره وقدرته على التعلم .

« قال ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا » ..

وعادا ينطلقان .. وصلا الى قرية بخيلة غاية البخل .. حاولا ان يأكلا منها كغرباء وضيوف بلا اجر ــ كعادة هذا الزمان ــ ولكن القرية ابت ان تطعمهما أو تضيفهما .. وانصرف الاثنان .. موسى والعبد الصالح ، ويبدو ان موسى لم يصحب فتاه معه فى رحلة التعلم هذه لان القرآن يتحدث عنهما كاثنين .. **« فانطلقا »** .. **« حتى اذا اتيا »** **« فابوا ان يضيفوهما »** ..

بعد هذه المعاملة السيئة ، انصرف موسى والعبد الصالح الى خلاء خرب فيه جدار يوشك أن ينقض .

وفوجىء موسى أن العبد الصالح يمضى الليلة فى اصلاح الجدار وبنائه من جديد ، ووصلت دهشة موسى الذروة من هذا العبد الصالح ..

لقد باتا بغير عشاء .. لم يطعمهما فى القرية أحد .. لماذا يبنى الرجل هذا الجدار المتهالك .. لو شاء لاتخذ عليه أجرا .. ويقول موسى فكرته لصاحبه .

« فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا » ..

لقد نسى موسى وعده بالصبر ، وقد سأل قبل ذلك فرصة أخيرة ، وها قد مرت الفرصة الثالثة .

« قال هذا فراق بيني وبينك » .

انتهى الأمر ، ولن تعرف منى ما أردت أن تعرف ، ولن تتعلم منى ما أردت أن تتعلم .. ولكى تطمئن بالا فسوف أحدثك بأسرار ما رأيت .

« سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

سأفشي لك سر ما رأيت .. وسيكون هذا ايذانا بفراقنا النهائى ..

السفينة التى خرقتها لم أكن أريد اغراق أهلها أو هلاكهم .. على العكس من ذلك كان وراءهم ملك سيخوض حربا ، وكان ينوى مصادرة كل السفن ، وكان أصحاب السفينة سيموتون من الجوع ، فخرقت السفينة ليلفظها الملك ، فيعاود أصحابها اصلاحها ويعملون عليها ويأكلون ..

كان ظاهر مارأيت ايذاء وقتلا ، وكان باطن ما رأيت هو اللطف والرحمة ..

أما الغلام الذى اهتزت مشاعرك لقتله ، وظننت أن وراء قتله شيئا نكرا ، هذا الغلام طاغية وكافر ، كان غلاما بريئا أمام نظرك ولكنه كان طاغية وكافرا باعتبار ما سيكون حين يكبر ، وأبواه مؤمنان ، وكان سيرهقهما طغيانا وكفرا ، فشاء الله تعالى موته ليريح أبويه منه ، ويعطيهما بدلا منه ابنا بارا ، وهكذا أنقذ الله الأبوين وأنقذ الغلام نفسه من نفسه ، فهو قد صار الى الرحمة حين مات وهو غلام ، لأنه لم يرتكب بعد ما كان سيرتكب .. لقد نجا جميع الأطراف رغم أنك تظن أن جميع الأطراف قد هلكوا .. هلك الولد بالموت .. هذا ما رأيته يا موسى ، ولكن الحقيقة أنه نجا بالموت ، ولن يحاسب على ما لم يفعل ، مات وهو غلام برىء ، أما الأبوان فقد حزنا كثيرا وبكيا كثيرا ، ووراء حزنهما وبكائهما كانت ترقد شمس الفرح والابتسام .. كان ما رأيت هو عكس الحقيقة ..

« أما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا » .. وقد أراد الله ألا يهدم الجدار فيظهر الكنز وينهبه أهل القرية البخيلة ، أراد أن يحتفظ لأبناء الرجل الصالح بالكنز ..

ويتقدم العبـــد الصالح خطوة فى تعليمه لموسى فيكشـــف له سر ما حدث ..

ــ رحمة من ربك ..

كل ما رايت من صور الاعتداء أو القتل او وضع الشيء فى غير موضعه .. لم يكن غير رحمة ورحمة ورحمة ..

حتى مآسى الوجود وكوارثه هى اقنعة للمآسى والكوارث .. والباطن العميق هو الرحمة ..

ــ وما فعلته عن امرى ..

لم يكن هذا رايا رايته ولا كان اقتناعا بشيء او معرفة لشيء او تطبيقا لعلم بشرى انما كان امرا من الله ..

قال تعالى فى سورة الكهف **((اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن اعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا . واما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ، فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما . واما الجـدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا فاراد ربك أن يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا))** .

نريد أن يلاحظ القارىء أن العبد الصالح استخدم ثلاثة تعبيرات للارادة فى القصص الثلاث ..

قال عن السفينة **((فأردت أن اعيبها))** .

وقال عن الغلام **((فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه))** .

وقال عن الجدار واليتيمين **((فأراد ربك أن يبلغا اشدهما))** .

وقد أرجع الارادة الى نفسه فى قصة السفينة ، والى الله ضمنا فى قصة الغلام ، والى الله صراحة فى قصة الجدار واليتيمين .

ما الذى تعنيه هذه القصة ..؟

ما الذى تريد أن تقوله لنا ..؟

لا يملك العقل سوى التوقف امام هذه القصة ..

قصة موسى والعبد الصالح والسفينة والغلام والجدار ..

هى قصة من اعجب قصص القرآن ونقصد بالعجب هنا ما اشـار اليه الجن حين قالوا ((انا سمعنا قرآنا عجبا)) فلم يســتخدم غير الجن هذا التعبير ، واستخدمه تلميذ موسى حين قال عن الحوت الذى ارتد الى الحياة ((واتخذ سبيله فى البحر عجبا)) وتصـــور أنت أن يصف الجن

(وهم عجب خفى فى حد ذاته) القرآن بانه عجب .. ان تحيرهم امام آياته ودهشتهم ازاءها يعنى أن ما فيه من اسرار قد استولى عليهم واخضعهم .

وبهذا النظر نتامل القصة ، فهى عجب فى شدة خفائها وعمق معانيها ، وهى عجب فى المستويات المختلفة المتدرجة التى تنطوى عليها ، وهى عجب فى أسرارها المعلنة واسرارها الخفية ..

فى طفولتى ركبت السفينة مع موسى والعبد الصالح .. لم افهم مما يجرى شيئا .. كنت سعيدا بنزهة البحر ، وهياج الأمواج ، وهذه القواقع التى حملتها معى من الشاطىء ..

لم أكن واعيا لهذه الأسرار التى تضمنتها القصة .. موسى وفتاه .. وهذا الحوت (أو السمكة المشوية المهيأة للغداء) ..

لقد وصلا الى مكان .. يسميه القرآن « مجمع البحرين » ، ويسميه « مجمع بينهما » .. والمكان عند صخرة ..

أوى موسى وفتاه الى الصخرة .. وفى هذه الصخرة عين لا يحدثنا عنها القرآن .. ويبدو أن فى هذه العين سرا يتصل بالحياة ، لأن جزءا من مياه العين حين وقع على السمكة المشوية (أو الحوت الصغير) ، أصاب السمكة شىء مدهش ، فقــد ارتدت الى الحياة وقفزت فى مياه البحر ، ولاحظ فتى موسى أو تلميذه هذه المعجزات ونسى أن يحدث عنها موسى ..

كانت كل هذه الأسرار تخضع طفولتى ببداهتها .

وكبرت أكثر ، وقمت بالرحلة مرة ثانية ، وشاهدت العبد الصالح يخرق الســـفينة ، ودهشت وكدت أحتج مع موسى ولكننى خشيت ان يغضب العبد أو يغضب موسى لأننى ارفع صوتى جوار صوته .. وهكذا صمت ..

وكبرت أكثر .. لم أعد أعترض على العبد وهو يخرق الســـفينة ، أدركت أنه كان ينقذ أصحاب السفينة باتلاف السفينة .

كنت أجلس صامتا اتأمل غرابة ما يجرى لموسى ..

لقد بدأت حياة موسى وهو طفل بالقائه فى صندوق والقاء الصندوق فى الماء .. وكان هذا التدبير الالهى لينجو موسى من القتل ..

كان البحر هو أول من استقبل موسى وهو طفل ..

وها هو موسى يركب سفينة ليولد من جديد ، أو لينجو من تصـــور أن علمه هو العلم الوحيد الموجود فى الأرض ..

وقد قتل موسى انسانا حين وكزه فقضى عليه .

وها هو العبد الذى يصحبه يقتل غلاما ..

وقد تصرف العبد فى القرية البخيلة تصرفا اربحها بلا أجر ، وكان هذا تصرف موسى حين وصل مدين ووجد الناس تحاول أن تسقى ووجد فتاتين لا تزاحمان الرجال ، فسقى لهما ..

ان قصة العبد الصالح تقابل قصة موسى ..

والرموز هنا تقابل الرموز هناك .. والأسرار تزيد وتتكاثف .. وكلما تقدمت الأيام واشتعل الرأس شيبا وزاد حظ المرء من الادراك .. زاد حظه من التحير .

. . . .

القصة بحر مياهه بلا قاع ..

وفى البحار الحقيقية اجزاء تبدو من فرط العمق بلا قرار ..

وفى بحار الحب الالهى أجزاء بلا قاع حقيقي .

وكل موجة من أمواج هذا البحر سر كالبحر نفسه ..

ولو حاولنا اليوم أن نقرأ فلن نقرأ أكثر من هذا الموج القريب الهادىء الذى يتكسر زبدا أبيض على الشاطىء ..

لن نقرأ ابعد من سطور الشاطىء ..

. . . .

أحد معانى القصة أن فى الدنيا أحداثا يختلف ظاهرها عن باطنها يبدو الظاهر مأساة على حين ينطوى الباطن على حقيقة الرحمة . أو يبدو الظاهر خاليا من العقل والتدبير يشى الباطن بالحكمة العميقة .

ولنتأمل — معا — هذه الأحداث الثلاثة فى القصة كرموز ثلاثة ..

● ان السفينة التى خرقها العبد الصالح الغامض ترمز الى كل ما يملكه الانسان ويحرص عليه من ماديات الحياة ولقمة العيش .

● والغلام الذى قتل بغير نفس أو ذنب جناه يرمز لكل ما يقع على الانسان نفسه من ضرر أقصاه القتل .

● والجدار الذى اعيــــد بناؤه كان رمزا عجيبا لما نتصور أنه عبث او لا معقول وهو فى حقيقته غاية الحكمة .

وهكذا تكتمل الرموز الثلاثة ..

ان الضرر الذى يصيب ما نملك ..

والدم الذى يسيل منا او ممن نحب ..

والعبث الذى نراه فى الحياة حولنا ..

هذا كله وراء حكمة عميقة .. هى الرحمة الالهية الشاملة .. كل خراب ظاهر .. أو موت ظاهر او عبث ظاهر .. ليس كذلك فى حقيقته ..

الحقيقة انه جزء من نسيج الرحمة الالهية ..

وأى انسان يصيبه شيء .. تخرق سفينة عيشه .. أو يقتل له طفل .. أو يموت له أحد ، أو يرى العبث يملأ الحياة حوله .. اى انسان يقع له شيء من هذا، فما عليه الا أن يذهب الى مجمع البحرين حيث ذهب موسى .. وليقف أمام الآية الستين من سورة الكهف ليقف هناك ويبكي ما شاء الله له أن يبكي فالبكاء رقة في القلب وحنو .. ولتسقط الدموع بملح الصدق في مياه البحرين بملحهما .. وليركل بعد ذلك السفينة ويصاحب موسى والعبد ..

سوف يقرأ فى أسرار الموج عناية الله ورحمته سبحانه ..

وليس هذا العبد المدثر بالخفاء والسر سوى رمز من رموز الرحمة الالهية فهو عبد يتحدث عنه الحق بقوله تعالى :

« آتيناه رحمة من عندنا .. وعلمناه من لدنا علما » ..

. . . .

الرحمة الالهية معنى من معاني القصة ..

وفي القصة معان أخرى .. من معانيها أن العلم على الأرض ثلاثة أنواع ..

أولها : علم البشر المعتاد الذى تكسبه بالجهد والتعلم .. مثل علم الصيد أو الزراعة .

وثانيها : علم الأنبياء الذى يوحيه الله لأنبيائه بواحد من الطرق الثلاث التى حددها قوله تعالى :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء » ..

وثالثها : العلم اللدني أو علم الأسرار ..

والفرق بين العلوم الثلاثة هائل .. ولا مجال للمقارنة بينها ولا المفاضلة أو ترتيبها حسب الأهمية ، يمكن ترتيبها حسب الظهور على مسرح الحياة .. لقد سبق العلم البشرى كل العلوم على الأرض ، وحمل هذا العلم نبى كريم هو آدم عليه السلام ..

فقد خلق الله تعالى آدم بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها ، وأمره ونهاه ، وتاب عليه حين عصى واجتباه .. قال تعالى : **« وعلم آدم الأسماء كلها » ..**

لم يقل سبحانه انه علم آدم الأسرار كلها ..

ومعنى تعليم الأسماء هو تعليم آدم هذه القدرة البشرية على استخدام اللغة والرموز ، هو تعليمه القدرة على الاشارة باللغة ، واستخدامها كرمز ، القدرة على البحث فى جميع العلوم البشرية .. وقد ورث ابناء آدم هـــذه المقدرة على البحث عن إسماء الأشياء ومعرفة طبيعتها واكتشافها .. واول خصائص العلم البشرى هو الجهد والبحث ، وامكانيات الخطأ قائمة فى مجاله طوال الوقت يموت العالم فيكمل تجاربه عالم آخر ، ويسلم كل جيل معارفه للجيل الذى يليه ، وتمضى دورة البحث طالما ان فى الأرض انسانا ..

هذا أول أنواع العلم ظهورا على مسرح الارض ، وهو علم مركوز فى فطرة الانسان ، وهو أساس مبدئى كرم الله تعالى آدم بسببه ، وهو معيار للتفضل الذى فضل الله به ابناء آدم على غيرهم من المخلوقات ، وحين سأل الملائكة رب العرش سبحانه :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمـــدك ونقدس لك » أجاب الحق سبحانه :

« قال انى أعلم ما لا تعلمون .. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين : قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » ..

نفهم من هذا ان ميزة النوع البشرى هى العلم .

ومعيار تفضيله هو العلم ..

ومبررات خلقه رغم افساده فى الأرض وسفكه للدماء هى العلم ..

وحكمة اسناد الخلافة فى الأرض اليه هى العلم ..

العلم بالأسماء ..

هذا كله أساس لا بد منه لتلقى علم الأنبياء ..

وعلم الأنبياء هو علم التوحيد ، وقد ظهر هذا العلم بعد علم الأسماء على الأرض .. لقد علم الله تعالى الانسان أن يصنع رغيف خبزه ، وعلمه أن يصطاد قوت يومه ، وعلمه أن له ربا واحدا هو خالقه سبحانه ، نقـول ان علم التوحيد ظهر فى رسالات الأنبياء بعد نزول الانسان الى الارض ، والحقيقة إن هذا العلم ظهر قبل هبوط الانسان الى الأرض ..

يحدثنا الله تبارك وتعالى فى آية الميثاق انه اخذ العهد على ابناء آدم بتوحيده والاقرار بربوبيته فأقروا .. وتم هذا وهم فى عالم الذر قبـــل الخلق ..

« واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم .. قالوا بلى » ..

وقد بعث الله تعالى أنبياءه ليعيدوا الخلق الى هذه الفطرة المركوزة فى الأرواح والقلوب .

وعلم الأنبياء هو الشريعة التى يريد الله عز وجل من عباده اتباعها والسير طبقا لدستورها ، وهو يختلف عن العلم البشرى فى تنزهه عن الاجتهاد والبحث والجهد والخطأ ..

يحتمل هذا العلم تفسير المعانى والآيات ، ولكن أصوله لا تخضع للاجتهاد والبحث كالعلم البشرى ..

اذا كان علم الأنبياء هو علم الشريعة ، فان الشريعة هى الحقيقة كما هو معروف ، وليس هناك تعارض مطلقا بين الشريعة والحقيقة ، ولو دققنا النظر فى قصة موسى والعبد الصالح ، ونظرنا اليها من وجهة نظر الشريعة .. فسوف نرى ان الجزاء الذى وقع فيها كان متفقا كل الاتفاق مع شريعة موسى ..

ان انقاذ أصحاب السفينة بخرق السفينة عمل طيب تجازى عليه الشريعة ..

وقتل الغلام الذى كان سيرهق والديه طغيانا وكفرا هو جزاء الشريعة ، فقد كانت الشريعة التى أنزلت على موسى فى التوراة تقضى بقتل من يقوم بعقوق والديه ..

أما بناء الجدار فأمر يتفق كل الاتفاق مع الشريعة .. فليس بناء الجدار خيرا يسديه العبد الصالح للقرية الفاسدة ، انما هو ضرب لفسادها بمعنى من المعانى ، وهو منع لهذه القرية من سرقة كنز الرجل الصالح ، وصلاح الآباء يمتد الى الأبناء رحمة من الله فى شريعة موسى ، كما أن عقوق الوالدين جزاؤه القتل فى هذه الشريعة ..

لا خلاف بين الشريعة والحقيقة ..

ولا مفاضلة بين موسى والعبد الصالح ..

من سوء الأدب ان نقول ان هذا أفضل من ذلك .

أحدهما أستاذ .. والثانى تلميذ .. هذا صحيح ..

ولكن اى أستاذ واى عبيد ..

الأستاذ يحمل أسراراً من الله والتلميذ نبى من أولى العزم الكبار ..

وما يقوله بعض الصوفية الجهلاء من أن الأولياء أفضل من الأنبياء ، أمر يخرج القائل من الجد الى المجون والزندقة ..

ولو جاز لنا أن نفاضل بين من يعلم أكثر ومن يعلم أقل .. وقلنا ان العبد الصالح أفضل من موسى ، فسوف يجيز لنا هذا المنطق ان نقول ان هدهد سليمان كان أفضل من سليمان .. فقد كان الهدهد محيطا بعلم لم

يحط به سليمان ، وكان يعرف أكثر مما يعرف سليمان عليه السلام قال الهـــدهد لسليمان **« أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين »** ..

نريد أن نبتعد عن هزل المفاضلة بين رجلين من رجال الله .. ونريد ان نحسن الأدب ونحن نتحدث فى علم الشريعة وهو نفسه علم الحقيقة ..

ونريد أن نقول ان كلا الرجلين كانا قمة من القمم ..

احدهما كليم الله ونبيه ..

والثانى عبد أوتى من الأسرار ما أوتيه ..

ما هو علم الأسرار ؟..

تحدثنا القصة أن هناك علما من لدن الله ، علما مجهولا لولا هذه الاشارة التى وردت بشأنه فى القرآن لما عرفنا عنه شيئا ..

والواضح أن هذا العلم متصل بالأسرار موصول بالغيب ..

ان العبد الصالح يخرق السفينة وهو يعلم المستقبل . .ويعلم ان هناك ملكا سيأخذها لو لم تتلف ..

وهو يقتل الغلام لأنه عندما يكبر فسوف يعذب والديه ويعقهما ، وهذا مستقبل لم يقع بعد وغيب ..

وهو يبنى الجدار فى القرية لان سر الماضى والمستقبل قد كشفا له ، فعلم ان تحت هذا الجدار كنزا ليتيمين كان أبوهما صالحا ، واليتيمان يعيشان فى قرية تشتهر باللصوص ..

نريد أن نقول ان هذا العبد كان يعرف طرفا من غيب الله عز وجل ..

والغيب شىء لا يعرفه سوى الله عز وجل ، ومن يشاء اطلاعهم من عباده عليه سواء كان هؤلاء العباد من الملائكة او الأنبياء او البشر قال تعالى **« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول »** .. وليس الكشف عن الغيب متصلا بقدرة من يكشف الله له الغيب ، فان الجن رغم قدراتهم الهائلة وخفائهم لا يعرفون الغيب ، وقد مات امامهم سليمان عليه السلام فلم يعرفوا نبأ موته الا بعد أن أكلت نملة الخشب عصـــاه فخر على وجهه ..

انما يخضع كشف الغيب لبعض العباد لقانون لا يعلمه سوى الله عز وجل هذا القانون هو مشيئته النافذة سبحانه ..

واحيانا يكشف الله طرفا من الغيب فى كتب الأنبياء ، كما وقع فى الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سورة الروم ..

« الم .. غلبت الروم فى ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون » ..

كانت هذه النبوءة كشفا لطرف من الغيب للمسلمين ، وكان هــذا الكشف يتم علانية فى كتاب الله المنزل الكريم .

أحيانا يطلع الله عباده على الغيب علنا كما رأينا فى سورة الروم ..

واحيانا يطلع الله عباده على الغيب سرا كما حدثنا فى قصة موسى والعبد الصالح .. وعلم الأسرار ، وهو جزء من علم الشريعة ، وليس علما أعلى منه كما يتصور البعض ، هــذا العلم غيب يستأثر الحق تبارك وتعالى به ، ويمنحه بأقدار متفاوتة لبعض عباده ، تحقيقا لحكمة عليا هى الرحمة ..

. . . .

هذه القصة التى وردت فى القرآن الكريم هى النبع الأول للصــوفية الاسلامية ، هذا البحر الغامض البعيــد المنطوى على الأسرار هو حلم الصوفية ..

أن موسى مسلم أسلم وجهه لله ، والعبد الصالح مسلم أسلم وجهه لله ، وكل أنبياء الله تعالى وأوليائه مسلمون أسلموا وجوههم لله ..

وهناك علم يمكن أن ينكشف بنور يقذفه الله فى قلب العبد اذا صــفا قلب العبد لله ..

والصوفية هم الذين صفت قلوبهم لله ..

ويتكرم الله عز وجل على أصحاب القلوب التى لا تشهد غيره ولا تحب سواه بالمكاشفات والأسرار .. وربما منع الله تعالى أو منح .. ربما قبض علمه أو بسط علمه .. مشيئته سبحانه وتعالى مطلقة نافذة ، والمنع والمنح ليسا بسبب من جهد العباد وانما هما محض فضل من الله ..

وليست تجارب الصوفيين ومجاهداتهم الا تدريبات روحية لتصفية القلوب لله .. وبعدها ينتظرون أن يفتح الله عليهم ببعض اسراره سبحانه .

هكذا ينظر بعض الصوفية الى القصة ..

. . . .

وانكار هذا النظر استبعاد وجود عباد يفتح الله عليهم ببعض أسراره ، يعنى انكار آية من آيات القرآن ..

كما أن بسط هذا النظر على كل من يدعى الصفاء خطأ بالغ ..

لأن علم الأسرار سر ..

ومميزات السر ان يحمله اقل عدد ممكن من القادرين ..

ونحن لا نعرف عدد عباد الله الذين يختصهم الله ببعض علمه وبعض أسراره لا نعرف أين هم .. ولا من هم ..

ان الفارق الجوهرى بين العلم البشرى وعلم الأنبياء ، وعلم الأسرار ، هو الشيوع والذيوع ..

اذا انتشر العلم وذاع كان علما بشريا ، أو علما من علوم الأنبياء طبقا لنوعه أما علم الأسرار فمن صفاته الكتمان والصمت .. لقد كان العبد الصالح عنيفا مع موسى حين سأله أن يعلمه .. ولم يستطع موسى ان يصبر على هذا العلم .. رغم كونه موسى ..

لقد أرسل الله تعالى موسى لفرعون وهو يعلم أنه سيصبر على فرعون ويهزمه ..

وارسل الله تعالى موسى لهذا العبد الصالح وهو يعلم انه لن يصبر عليه وسيهزم صبره ..

ولو صبر موسى على العبد الصالح لعرفنا أسراراً كثيرة ..

ولكن الله تبارك وتعالى لم يشأ ان نعرف أكثر مما عرفنا ..

ولم يشأ سبحانه أن يعرف موسى أكثر مما عرف ..

معنى هذا أننا أمام علم لا ينكشف الا بقدر محدود ، ولا يمنح الا بحساب بالغ الدقة ..

هذا العلم الذى يسعى اليه الصوفية بعد العلم البشرى وعلم الأنبياء ولا يقوم الا بهما ، هذا العلم بالغ الصعوبة ..

وادعاؤه أمر رهيب ..

هى دعوى هائلة وخطيرة .. والدليل الوحيد على الصدق فيها هو الصمت وكتمان السر ..

ولهذا قال بعض الصوفية « **من تكلم خرج** » ..

أو قالوا « **من افشى السر هلك** » ..

وسنرى مصداق هذا النظر نفسه فى القرآن ..

سنرى أن الكلام فى هذا العلم يخرج صاحبه من مجال الرؤية ان لم يخرجه من هذا العلم أصلا .. فى قصة موسى والخضر ..

حين خرج العبد من الصمت الى الكلام ..

خرج من مجال الرؤية .. اختفى تماما ..

قال لموسى « **هذا فراق بينى وبينك** » ..

ولم يكد العبد الصالح يتحدث حتى خرج من آيات القرآن .. انطوى عليه بحر كلمات الله عز وجل ودلف الى خفاء الخفاء ..

لم نره بعد ذلك ولم نصادفه ..

اذا كان التصوف كما نعتقد دعوى ، دليل صدقها الوحيد هو الصمت .. فهذا يغلق الباب نهائيا أمام التصوف .. واذن فما هذا الذى نراه من انتاج الصوفية وكتبهم وأشعارهم وقصصهم ..

واذا كان التصوف له أصل فى القرآن ، فلماذا لم نسمع الكلمة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.. وما هو التصوف أصلا ؟..

ولماذا لم يكن هناك صوفية فى عصره أو بعد عصره ؟..

لماذا بدأ التصوف بعد ٢٠٠ سنة من رحيله الى الرفيق الأعلى ؟..

فى بحار التصوف الف سؤال وسؤال ، والف غريق وغريق ، والف لؤلؤة ولؤلؤة ، والف محارة فارغة ومحارة مليئة بطين القاع .. وثمة حكايات لها العجب مثل حكايات الأساطير فى ألف ليلة وليلة ، وبدلا من قصص الجن وعجائبه سنجد قصص الأولياء وكراماتهم ، وهى أيضا عجائب ..

وهناك احتمال قوى أن نغرق فى هذا البحر لو لم نكن نجيد السباحة .. أو نستخدم أدوات الملاحة الصحيحة ..

نفرد اشرعة الروح البيضاء ونبحر ..

ما دمنا نسبح فى بحار القوم فلا مفر من استخدام أساليبهم فى هذه البحار .. ولا بد ان نبدأ رحلتنا البحرية وأشرعتنا مفتوحة لكل الرياح القادمة من أبواب الكون ..

ونريد عقلا محايدا قبل كل شىء ..

لا نريد أحكاما مسبقة أو افكارا جاهزة للحكم على التصوف قبل الخوض فى أمواجه ..

سهل ان يقف المرء على الشاطىء ويغمض عينيه ويقول :

ليس هناك بحر ..

واصعب كثيرا من ذلك ان يكابد الموج ويجرب السباحة أو يحاول الوصول ..

سهل أن نقول ان التصوف بدعة .. أو كلام فارغ .. ولكن هذا ليس حكما ..

لا يكون الحكم حكما الا اذا ملك ضمير قاض نزيه ، والقاضى لا يحكم فى الدعوى الا بعد النظر فيها وتأمل الأدلة وامعان الفكر ..

نحن نبحث عن حقيقة التصوف ..

نحن اذن نبحث عن حقيقة ..

وكل انسان فى الأرض يبحث عن حقيقة ..

والبحث عن الحقيقة يفترض حياد الباحث وتجرده ..
بعد رحلتنا قد نقف ضد التصوف .. وقد نقف مع التصوف ..
لا نعرف من الآن أى شاطىء سوف نرسو عليه ..

ولكننا عندما نفعل .. سنكون مدركين لماذا نقف على شاطىء الرفض أو شاطىء القبول ..

لنبدأ رحلتنا بالأسئلة ..

ما هو التصوف ..

ما اصل الكلمة ..

وما معنـــــاها ؟

يقول الصوفى ابو تراب النخشى (متوفى سنة ٢٤٥) الصوفى لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء ..

أى انسان هذا الذى لا يكدره شيء . ويصفو من خلال عينيه كل شيء.. ويصفو به الكدر ذاته ..

أى انسان هذا ..

أى قلب يحمله مثل هذا الانسان ..

هل هناك وجود حقيقى لمثل هذا المخلوق ..

يقول الصوفية ان هناك وجودا لهذا المخلوق ، فمن صفا قلبه لله وشاهد حكمته ورأى بديع صنعه لم يكدره شيء ، حتى الكوارث والآلام لا تخدش صفاءه ، ومن وصل لهذا الحال صفا فى عينه ملك الله . وصار اذا اختلط بالحياة صفاء يضاف الى عكارتها ..

ولماذا نأخذ عن الصوفية .. لو اخذنا عن الفقهاء فسوف نجد أحمد ابن حنبل يقول فى سجنه أيام المحنة ..

ـ انا جنتى فى صدرى ..

وكان الناس يواسونه ويحاولون تهوين قسوة السجن عليه . فأفهمهم انه ليس سجينا انما هو فى الجنة ، لأن جنته فى صدره ..

. . . .

ترتفع أمواج البحر ..

رغم أننا لم نزل على الشاطىء ..

صعب ..

الدخول على القوم صعب ..

ما هو اصل كلمة التصوف .. اصل الكلمة محل خلاف بين العلماء هناك القائلون باشتقاق الكلمة من أهل الصفة الفقراء الذين كانوا ينزوون فى جانب من مسجد الرسول ويبيتون فيه لأنهم لا يملكون نقودا يستأجرون بها بيوتا ..

وليس صحيحا أن التصوف مشتق من أهل الصفة ..

أيضا يختلف العلماء على الصفاء .. والصوف ..

فى العلماء من يقول ان التصوف لفظ مشتق من الصفاء ، ومنهم من يقول انه لفظ مشتق من ارتداء الصوف ولبس خرقة الصوفية وهناك من يقول ان التصوف لقب ، وقد استعرض الدكتور ابو العلا عفيفى فى كتابه « التصوف ، الثورة الروحية فى الاسلام » أكثر من خمسة وستين تعريفا للتصوف .. وقال بعد ذلك .

« كنا نطمع بعد دراسة خمسة وستين تعريفا للتصوف ان نجد معنى عاما مشتركا ينتظمها جميعا ، ولكننا لم نظفر بهذا المعنى على وجه التحديد ووصلنا الى معنى قريب منه » ..

وسر هذه الحيرة أن تعريفات التصوف شخصية لحد بعيد ، فكل صوفى يعبر عن حاله .. وأحوال الخلق الروحية تختلف مثلما تختلف أحوالهم فى المعايش ..

وللقشيرى راى لطيف فى تعريف التصوف انه لا يحاول اصلا تعريفه ويرى أن اسم التصوف لقب ..

« ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر انه كاللقب » ..

ومعنى كلامه أن التصوف لقب لا يسأل عن معناه أو اشتقاقه كما لاحظ د. ابو العلا عفيفى ..

هذا معناه أن الصوفية يوصدون الباب حتى امام من يسألهم عن معنى اسمهم .. وهذا دليل على امر من امور ثلاثة ، إما ان التصوف سر ، وانما انه أمر خلافى بحت ، واما أنه متعدد الجوانب كالفن الفنى ، وسوف نترك للقارىء ان يجد الجواب بنفسه .. ولننظر نحن فى الموج محاولين قراءة الكتابات الكثيرة التى كتبها الصوفية على الماء ..

. . . .

ان بشر بن الحارث « الحافى » وقد لقب بالحافى لأنه خلع نعليه يوما وأسرع يجرى فى الرمضاء فلم يدركه أحد . ان بشر الحافى يقول فى تعريف التصوف « **الصوفى من صفا لله قلبه** » .

مات بشر ببغداد سنة ٢٢٧ .

لن نجد قبل المائة الثانية من الهجرة تعريفات للتصوف ..

لم يكن التصوف معروفا كمذهب روحى له مدارسه وشيوخه ..

كان الزهد هو المعروف ..

لهذا نجد معظم تعريفات التصوف بعد القرن الثانى للهجرة ..

قال معروف الكرخى (توفى سنة ٢٠٠ هجرية) .

« التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق » ..

يريد معروف أن يقول ان التصوف اخذ ويأس فى نفس الوقت .. اخذ لحقائق الآخرة ويأس من دنيا الناس .. والأصل اللغوى للدنيا هو الدنو والتدلى والتدنى ..

واذاً يرتفع معروف الكرخى عن الدنيا ويزهد فيها ، ويسلك طريق الأخذ بالحقائق ..

ويقول فريد الدين العطار صاحب كتاب منطق الطير :

« الصوفى من اذا نطق كان كلامه عين حاله فهو لا ينطق بشىء الا اذا كان هو ذلك الشىء » ..

تأمل قول الرسام العالمى الشهير فان جوخ ــ بعد ذلك بعشرة قرون ــ **عندما أرسم زهرة .. أصير أنا الزهرة ..**

لاحظ أن معنى العبارتين واحد ..

فهل يكون التصوف فنا ..

سؤال نطرحه وننتظر قبل الاجابة عليه مزيدا من النظر . سئل سمنون المحب عن التصوف فقال ..

« الا تملك شيئا ولا يملكك شىء » ..

اليس هذا الكلام فنا فى حد ذاته ..

يحكى القشيرى قول الصوفية « **الصوفى ابن وقته** » ..

اليس هذا تجسيدا لحال جميع الفنانين المتقلبين ..

فى تعريفات التصوف من يمت بصلة الى الفن ، وفيها ما يمت بصلة الى الحقيقة الدينية ، كقول رويم حين سئل عن التصوف فقال « **استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده** » ..

وفى التعريفات ما ينتمى الى الزهد كقول ابى حمزة البغدادى وكان معاصرا للجنيد **« علاقة الصوفى الصادق ان يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العزة ويخفى بعد الشهرة ، وعلاقة الصوفى الكاذب ان يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ويشتهر بعد الخفاء » ..**

وفى التعريفات ما ينتمى الى فلسفات معقدة فى التوحيد كقول أبى بكر الشبلى (توفى سنة ٣٣٤) **التصوف شرك ، لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ولا غير ..**

يريد أن يقول ان التصوف لون من الوان الشرك ، لأنه يصون القلب عن رؤية الدنيا .. وليس هناك غير الله .. الدنيا أو الكون لا وجود له ولا قيام له وليس هناك الا الله .. يريد الشبلى أن يخترق ببصره المكونات الى المكون ، والمصنوعات الى الصانع ، والخلائق الى رب الخلائق ..

وهذا تعبير آخر عن حالة الفناء أو وحدة الشهود ..

سنعثر على تعريفات عديدة للتصوف .. وهى تعريفات تتحدث عن احوال .. والأقوال عن الأحوال عادة لا يمكن فهمها الا اذا مررنا بهذه الأحوال ..

ونحن نفضل البحث عن تعريف جديد للتصوف كتجربة روحية .. وأرجح ما نراه ان التصوف هو فن الوصول الى الله ..

وربما اسفر هذا الوصول عن جذبة تعترى العقل فاذا العقل ذاهب ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..

وربما اسفر هذا الوصول عن رؤيا فنية بالغة العمق والتعقيد كمذهب وحدة الوجود .. وربما اسفر هذا الوصول عن عشق يدعو الى الجنون فاذا الصوفى يصرخ « **ما فى الجبة الا الله** » .. واذا السيوف والنعال ترتفع الى رأسه ..

وربما اسفر هذا الوصول عن ثبات فى الدين وتمكن فى العقيدة .

اختلفت مصائر الصوفية كما اختلفت طرائقهم فى التذوق وان جمع بينهم جميعا خيط واحد ..

الحب ..

انهم يرون انهم يحبون الله كما لا يحبه احد ..

وهم يرون ان الحب نسيج أصيل فى الكون ، وسر غائر من اسراره ..

يقول الرازى ان الآيات الواردة فى القرآن عن الأحكام الشرعية اقل من ستمائة آية ، وان البواقى فى بيان التوحيد والنبوة والدعوة الى الله ..

والقرآن يذكر كلمة الحب وينسبها الى الله تجاه البشر ، وينسبها الى البشر ازاءه سبحانه ..

قال تعالى على لسان خاتم رسله :

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » آل عمران (٣١) .

وقال تعالى حاكيا عن موسى :

« **والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى** » سورة طه (٣٩) .

وقال تعالى مخاطبا عموم المؤمنين :

« **ان الله يحب المتقين** » سورة التوبة (٩) .

وقد فسر الامام الغزالى حجة الاسلام قوله تعالى : « **والذين آمنوا أشد حبا لله** » فقال .. أثبت الله تعالى الحب ، وأثبت انه يزيد عند المؤمنين لقوله تعالى : « **ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله** » سورة البقرة (١٦٥) .

وينظر الصوفية اساسا الى الحب كعنصر اصـــيل من عناصر الكون وسبب هام من أسباب الخلق ..

يقول الله تعالى « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » ..

والعبادة قمة من قمم الحب وكمال من كمالاته ..

وقد فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة وقرأ الآية هكذا وما خلقت الجن والانس الا ليعرفون ..

والمعرفة لازمة للحب .. هى سبب الحب .. ومن عرف عن الله أكثر احبه أكثر .. ومن لم يعرف عن الله الا القليل كان حبه على قدر معرفته .

ويتوقف الصوفية كثيرا أمام قوله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه** » .

نريد ان نلاحظ ان الله لا يخوف الذين يرتدون عن دينهم بأن يلقيهم فى النار أو يصب عليهم عذاب الجحيم بما فيه من نحاس مصهور ، نريد ان نلاحظ ان الله يخوف المرتدين بالحب .. بأن يستبدل بهم قوما يحبهم ويحبونه ، والارتداد عن الدين شرك ، والشرك فساد فى العقل وهو أشرف ما فى الانسان ، وكأن الله تعالى يهدد اقسى الذنوب وارهبها بأرق ما فى الوجود واعذبه وهو الحب ..

يقول جلال الدين الرومى ان كلمة « **يحبهم** » يقين كامل ، اما كلمة « **يحبونه** » ، فمن ذا الذى يصدق عليه هذا الوصف .

يشير الرومى كعادة الصوفية بايجاز الى معنى بالغ العمق ..

ان الحب عطاء وتكرم ..

والله هو الذى يملك العطاء وحده والكرم ..

والله هو الذى يحب حبا ..

إما كلمة يحبونه .. اما الحب البشرى .. فى أرفع صوره .. حتى لو كان موجها الى الله .. فماذا يستطيع أن يعطى ..

لا شيء ..

لو أعطى الانسان وقته لله ، فالوقت ملك لله اصلا .

ولو قدم الانسان كل ماله لله ، فالمال وديعة الله عند عبده .

ولو فرق الانسان جسده فى سبيل الله شظايا فهذا الجسد ملك لله ، هو خالقه من تراب ثم من نطفة .

لا يعطى الانسان لله شيئا .

لا يملك أن يعطى من معنى الحب سوى شاطئه .

أما الله عز وجل فهو المعطى الوهاب حقا ..

هكذا ينظر الصوفية الى العالم ..

أنهم يرون الحب قانونا حاكما فى الوجود .. وسببا فى ميلاد الكون ، ونسيجا تشف به الحياة على رحابتها وجلالها .. وهم يرون أن الله قد خلقنا ليتفضل علينا بحبه ، ويتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه ..
قال تعالى « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** » ..

هل يشترى الله عز وجل – رغم انه مالك كل شيء .. هل يشترى الا شيئا يحبه ..

ان الله تعالى بلفظ « اشترى » يقرب من أذهان البشر أهمية العطاء .. والعطاء هو أول عطر يخرج من شجرة الحب ..

اذا كان التصوف هو فن الوصول الى الله .. أو هو فن عبادة الله .. أو هو حب الله تبارك وتعالى .. اذا كان هذا حقا فهل كان عصر رسول الله وعصر الخلفاء الراشدين اقل حبا لله من عصر المائة الثانية بعد الهجرة .. حيث ظهر التصوف ..

نريد أن نسأل لماذا لم يظهر التصوف فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

الجواب على السؤال يسير .. كان عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد العصور حبا لله ، وكان الرسول أشد الخلق حبا لله لأنه كان أعرف الخلق بالله ، ولقد تحدث الله تعالى عن أبى الأنبياء ابراهيم فقال « **واتخذ الله ابراهيم خليلا** » .. ومعنى الخلة شدة المحبة .. أما خاتم النبيين فقال الحق تعالى فى حقه « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » .

واطلاق الرحمة عليه هذا الاطلاق يعنى انه أشد عباد الله حبا لله .. لأن الرحمة أعرف بالرحمن الرحيم وأحب ..

وإذاً .. تسقط دعوى حب الله حبا يقرب من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يساويه ..

لماذا لم ينشأ التصوف فى عصره صلى الله عليه وسلم ؟

لم يكن التصوف قضية مطروحة فى عصره كانت قضية قد استهلكت واستنفدت أغراضها .

يقول بعض الصوفية أن الرسول مر بتصفية النفس قبل إن يكون نبيا ، فقد كان يتحنث فى غار حراء ..

ونحن ننفى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف تصفية النفس ، لأن نفسه كانت صافية ولا تحتاج الى صفاء لم يكن يتعبد لأنه متعكر ، وانما لأنه متحير ، ولم يكن تحنثه فى غار حراء هو سبب هبوط الوحى عليه ..

لم يهبط الوحى عليه لأنه ارتقى فى تجاربه الروحية حتى أوحى الله اليه انما هبط عليه الوحى اصطفاء من الله واختيارا لا دخل له فيه ولا تطلعات عنده اليه ..

قال تعالى « **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان** » فنفى عنه انه كان ينتظر الرسالة أو الوحى أو يدرى عنهما شيئا أو عن الكتاب أو الايمان اى القرآن والتكاليف الشرعية ، لم يكن التصوف قضية مطروحة فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبب آخر .. ان تصفية القلب لله تعنى السير على سنة رسول الله ، ولم يكن رسول الله قد انهى رسالته لتبدأ التجارب الروحية بهدف تصفية القلب ..

أيضا لم يظهر التصوف فى عصر الرسول كفن من الفنون المعقدة لانشغال المسلمين بما هو أخطر ..

كانت هناك أعباء نشر الدعوة .. وهى أعباء فادحة ..

وكانت هناك المعارك الساخنة بين السيوف ، ومعارك الجدل القائم فى الأسواق والتجمعات .

وكان المسلمون يعبرون عن حبهم لله بالقتال فى سبيله دفاعا عن الدعوة اولا ، ونشرا لمبادئها ثانيا ..

كان الحب يأخذ شكل التعبير العملى ..

كان الحب عملا ..

لم يكن مجرد إقوال تقال فى الليل .. والليل يدهن الكلمات بالزبدة . فاذا طلعت عليها الشمس ذابت وأسفر وجه الحقيقة ..

وكان طبيعيا ان تلد النزعة العملية لأيام الاسلام الأولى ، مع جفاف الحياة وانشغال الأوقات ، كان طبيعيا أن يولد الزهد من هذا كله ..

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زاهدا بكل ما تحمله كلمة الزهد من معان حقيقية .

كان ينام على حصيرة فى الأرض .. حتى لتترك الحصيرة آثارها فى جنبه الشريف .. وكان يأكل فلا يشبع ، تعففا أن يأكل وفى أرض الله جائع ، وكانت عائشة من بيت غنى هو بيت أبى بكر ، وكانت تأكل فى بيت أبيها افخر الأطعمة ، فلما صارت أما المؤمنين بزواجها من رسول الله قالت « كنا لا نوقد النار ثلاثة أيام متتالية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل القديد (الخبز الجاف) وغموسه الزيت » .

كان الرسول زاهدا فقيرا .. وقد شكته نساؤه يوما لأنه لا يزيد فى النفقة عليهن ، ولم ترتد بناته الذهب ولا لبست نساؤه الحرير ، وحين مات صلى الله عليه وسلم .. مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى طعام اشتراه لأهل بيته ..

هذا المحارب فى سبيل الله دائما ، المجاهد فى الله أبدا كان زاهدا وبذور الزهد موجودة فى آيات القرآن .

« ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين » .

« وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب » .

« وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

تأمل قوله عن الحياة انها لهو .. ولعب .. واللهو هو اللعب كما يتبادر الى الذهن .. ولكن هناك معنيين للهو وللعب ، وهما ــ باعجاز القرآن ــ معنيان يستغرقان حقيقة الدنيا وباطنها الأجوف .

ولقد فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات حق الفهم .. فحارب لنشر الاسلام معرضا حياته للقتل ..

وفهم الصحابة قدر الدنيا فآثروا عليها الآخرة وعملوا فى الدنيا ، لأن الدنيا ــ رغم تفاهتها ــ هى الطريق الوحيد للآخرة ، وهو ضيق هام وخطير رغم قيمته اليسيرة ..

ايضا فهم التابعون معنى الزهد ..

وسيطر على المسلمين فى السنوات الأولى للدعوة ، فهم حقيقى للدعوة كان الجهاد هو رهبانية هذه الأمة الجديدة ..

كان لليهودية رهبان ، وكان للمسيحية رهبان ، وكان للأديان رهبان ، وكان هؤلاء الرهبان ينقطعون فى الصحراء ويعيشون فى الأديرة ويتدارسون فى دينهم ويتجنبون الدنيا ويتأملون فى الكون ، وكان للاسلام رهبان أيضا ، ولكن رهبانا من لون جديد .. رهبان فى الليل وفرسان فى النهار .. وأحيانا فرسان فى الليل وفرسان فى النهار .. فقد كان خالد بن الوليد يفاجىء

عدوه أحيانا فى قلب الليل .. وكانت المعارك العسكرية تستغل أوقات المسلمين سواء كانت ليلا أم نهارا ..

وهكذا كانت الأيام الأولى فى الاسلام .. كانت الفروسية والجهاد هما رهبانية المسلم ..

روى عن رسول الله قوله « **لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد** » .

وفى الأيام الأولى للاسلام لم يكن الفرسان العظام يجدون وقتا للتصوف .. أو اجراء التجارب الروحية .. كانوا مشغولين بالحرب والجهاد ..

وظلت الشعلة التى أوقدها الرسول صلى الله عليه وسلم تدفع المؤمنين، وانطلقت سيوف المسلمين تحطم أسوار الشعوب السجينة .. وتطلق الحرية للمحرومين من الحرية ، وتفك السلاسل التى تكبل العقول أن تبحث وتنطلق وتعرف خالقها الأحد ، ومرت أيام الله تعالى وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى .. وحكم المسلمين بعده ابو بكر الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم ولى أمور المسلمين عثمان بن عفان ، وقتل عثمان والمصحف فى يده ونساؤه حوله .. وقتل على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين كرم الله وجهه ، واستمرت الفتنة الكبرى ..

وارتفعت سيوف المسلمين بعد ان جرها الصراع السياسى للداهية معاوية ، وسالت الدماء .. وتغير الوقت .. وولد التصوف من افكار عديدة .. افكار ودماء وكلمات وقضايا ومواقف ..

وكان لا بد للتصوف أن ينبع منها ..

وقد نبع التصوف من مصادر عديدة ..

من حق الواقف أمام البحر أن يسأل نفسه .

كيف تولد البحار ؟

ومن أين تجيء كل هذه الأمواج والمياه والتيارات المائية وحركة الرياح ..وما هى العلاقة بين الرياح وتيارات البحر وحركة دوران الأرض وحركة دوران النجوم والمجرات ..

نحن نعرف أقل القليل .

وان كان كبرياؤنا يصور لنا اننا نعرف الكثير ..

من بين ما نعرفه ان البحار تولد عادة من بكاء السحب ..

فى البدء يصطدم سحاب يحمل شحنة كهرباء موجبة ، وسحاب يحمل شحنة كهرباء سالبة ..

ومن الصدمة يولد البرق .. بعد ثوان من ميلاد البرق يرتج الأفق بصوت الرعد ..

ثم تسقط الأمطار .. تذيب قمم الجبال وتذيب معادنها وصخورها وتحفر مجاريها وتشق طريقها نحو البحر ..

يوما بعد يوم تعلو امواج البحر ..

وكل الأنهار تجرى الى البحر والبحر ليس بملآن كما تقول التوراة ..

. . . .

هذا تفسير علمى لميلاد البحار ..

وهناك تفسير آخر لميلاد البحار ..

تفسير غير علمى وغير موضوعى .. تفسير عاشق اخرجه السهر والوجد عن صوابه الى صواب أعمق . نفترض أن عاشقا مثل ابن الفارض يريد ان يفسر لنا ميلاد البحر .. يقول أكثر من أربعة أبيات من الشعر :

أبــرق بدا من جانب الغــور لامع

أم ارتفعت عن وجــه ليلى البــراقع

انار الغضا ضاءت وسلمى بذى الغضا

.. ام ابتسمت عما حكتــه المدامــع

ان ابن الفارض يعلم أن البرق يولد فى السماء ، ولكنه ــ بوصــفه سلطان العاشقين ــ يرى ان وجه الحبيبة أو وجه الحقيقة هو البرق ..

وهو يرمز لهذا الوجه باسم ليلى ..

اى ليلى .. نحن نعرف ..

هل هناك ليلى فعلا أم إنه يحترق الى الحد الذى نخجل ان نسأله اين ليلاك ..

كل ما نعرفه ان هــذه النار التى أضاءت هناك وسلمى جوارها .. كانت تشبه ابتسامة بكت فيها سلمى ..

انشر خزامى فاح أم عــرف حاجــر

بأم القــرى أم عطــر عزة ضــائع

اختلفت الروائح على العاشق فلم يعرف مصدر هذا العطر .. لم يعرف كم قطرة من البنفسج وكم ذرة من الياسمين وكم جزيئا من الفل .. لم يعرف هل جاء هذا العطر من خزامى .. أم من حاجر .. لم يعرف هل جاء العطر من المدينتين الشهيرتين بصنع اثمن العطور .. لم يعرف وان ادرك فجأة أن هذا عطرها هى ..

عطر عزة الضائع ..

لماذا ضاع عطر عزة من الحياة وظل فى عقل العاشق ..

هذا سؤال سخيف فلا تسأله للمحبين ..

تضيع الأشياء فى دنيا الحب لأنها ينبغي أن تضيع .. ولو بقيت لما صار لها معنى سوى التطفل ..

يحب الشاعر حتى الآن ثلاث نساء ـ اذا اخذنا كلماته بنص معناها ـ وهو يحب امراة واحدة اذا أدركنا مراده الحقيقى ..

فى البيت الرابع سنراه يضيف اسما ..

الا ليت شعرى هـــل سليمى مقيمة

بوادى الحمـــى حيث المتيـــم والع

اسمها سليمى ..

حبيبته الرابعة عند الحمقى وقصار النظر ..

والحق أن الرجل ليست لديه حبيبة لأنه يعدد الأسماء ، وما دام يعددها فهذا معناه انه يسبح نحو بحار أخرى تتجاوز الأسماء ..

نحن أمام متيم والع . هذا نص كلماته .. والعاشق اذا احترق رفعت عنه الجزية فأسلم ، وخرج عن نطاق الشرك الى التوحيد ، ولأن القرية التى تحترق لا تطالب بشىء سوى أن تظل والعة فكذلك العاشق .. هو الأولى ان يظل مضيئا باشتعاله ..

. . . .

هذا تفسير عاشق لميلاد البحر ..

ان بحار الحب ولدت عنده داخل منطقة مجهولة فى عقله أو فى قلبـــه أو فى روحه ..

المنطقة مجهولة مرتين ..

مرة نحن لا نعرف هل هى فى قلبه ام فى عقله ام فى روحه ..

مرة ثانية نحن لا نعرف فى اى مكان هى فى هـــذا الجزء من الحياة المجهولة .. الغامضة ..

أى تفسير تحبون ان نناقش به ميلاد التصوف ومصادره .

اى اجابة تحبون ان نكتبهـا على الرمال عن سر ميلاد البحار عنـــد الصوفية ..

. . . .

نسأل شاعرا كان عاشقا هو الآخر ..

يقول محمد اقبال « ليس من الصواب ان نرجع كل ظاهرة تظهر فى احدى البيئات الى العوامل الخارجية .. فنهمل بذلك العوامل الداخلية ، ان اى فكرة من الأفكار ، لا يمكن أن يكون لها سلطان على النفوس ، الا اذا كانت تمت لهذه النفوس بصلة ، والعوامل الخارجية تجىء لايقاظ هـذه

الفكرة ، ولكنها لا تخلقها خلقا .. وعندما بحث المستشرقون فى أصل التصوف ، ذهبوا الى أن مصدره هذا العامل او ذلك ، ونسوا أن أى ظاهرة عقلية ، أو تطور عقلى فى أمة ، لا يكون لهما معنى ، ولا يمكن فهمهما الا على ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التى عاشت فيها هذه الأمة قبل ظهور تلك الظاهرة » .

يقول د. أبو العلا عفيفى :

« بهذه العبارة الموجزة الرائعة لخص اقبال النقد الأساسى الذى نريد ان نوجهه الى المستشرقين فى نظرياتهم لنشأة التصوف .. واشار الى الطريق الحقيقى لمعالجتها » ..

ما هو السر فى حماس الدكتور أبو العلا عفيفى وهو استاذ للفلسفة لرأى شاعر صوفى ؟

سر الحماس أن المستشرقين ـ أو معظمهم ـ وقع فى خطأ مبدئى حين ناقش التصوف وبدأ يبحث عن أسبابه ..

وتمثل هذا الخطأ فى انهم لم يأخذوا بمنهج اختلاف المستويات وتعدد المصادر ..

قالوا ان هذا البحر ولد من هذه السحابة التى مرت من هناك .. ونحب ـ بادىء ذى بدء ـ أن نقول ان ارجاع التصوف لمصدر واحد أمر يفتقر كثيرا الى الدقة فضلا عن تجاوزه للصواب ..

وكل الآراء الاحادية النظرة ، او التى تعتقد ان هناك مصدرا واحدا لنشوء الأفكار ، كل هذه الآراء تقع فى اخطاء فادحة حين تقدم نفسها الينا فى بداية ابحاثه ، لجأ المستشرق نيكلسون الى التعميم فقال ان التصوف بكل نظرياته اسلامى أساسه القرآن واتهم المستشرق القرآن بالاضطراب والاختلاف لأنه وجد اضطرابا واختلافا فى نظريات التصوف ، وكان اضطراب منطقه هو السر فى حكمه الخاطىء ..

وقال المستشرق كريمر ان الفضل فى نشوء التصوف الاسلامى يرجع الى الرهبانية المسيحية المؤسسة على الخوف من الله والرهبة من الجحيم .. وغفل كريمر أن القرآن يحتشد بمشاهد القيامة والجحيم وفيه مجال خصب لامكان التطور بما لا يخرج عنه ..

ولكى نحدد انفسنا ابتداء ..

نقول اننا لن نرجع لأحكام المستشرقين فى أمور التصوف .. لا بأس ان نقرأ ابحاثهم ، ولا بأس أن نعترف لهم بفضل اكتشاف كنوز التراث الصوفى ، ولكننا نؤمن بهذه النظرة العلمية الحرة التى أوردها الدكتور عبد القادر محمود فى كتابه « الفلسفة الصوفية فى الاسلام » يقول

« لا انكر ان بحوث المستشرقين قد افادت البحوث الاسلامية رغم عمومية احكامها احيانا وتعصبها احيانا اخرى . ودقة بعض مفهوماتها فى القليل النادر ، ولا شك ان بعد المستشرقين جميعا عن الروح الاسلامى عامل هام فى كل هذا ، وبخاصة اذا ذكرنا ان دراساتهم للتصوف الاسلامى لم تبدأ الا فى القرن التاسع عشر لأول مرة » ..

هناك عبارة خطيرة فى رأى الباحث ..

« بعد المستشرقين عن الروح الاسلامى » ..

هذه العبارة هى المسئول الأول فى رأينا عن تعصب المستشرقين وآرائهم الخاطئة وهذا السم الذى دسوه لنا فى العسل ، وهذه الأحجار الزجاجية التى قدموها الينا باعتبارها قطعا من الماس الأصيل ..

ان التصوف الاسلامى ذوق وشهود .. وليس علما باردا يمكن ان يناقشه عالم يرى ببصره وان كانت بصيرته عمياء ..

من الصعب على الباحثين فى التصوف الاسلامى فهم التصوف بغير تذوق له .. سواء كان هذا التذوق دينيا أو حضاريا أو ادبيا ..

فما بالك بمن لا يؤمن بالاسلام أصلا ..

والأصل ان الزهد هو الأب الشرعى للتصوف .. ونحن نعرف إن الزهد فى العصر الاسلامى الأول لم يكن حركة من الحركات الدينية ، ولا مذهبا من المذاهب ولا نظاما جماعيا ، بل كان احساسا قلبيا بتفاهة الحياة وبساطة الموت وهذه الرغبة فى نشر الاسلام ..

والظاهر من سير بعض المجاهدين فى الاسلام ، ان الجهاد كان يحظى بنفس النظرة التى التصقت فيما بعد بالزهد ، ثم انتقلت منه الى التصوف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **مرابطون الى يوم القيامة** » ..

وأشار بكلمته الى ان الجهاد قائم طالما أن الحياة قائمة ..

غير أن الحياة أوقعت المسلمين فى اكثر من إزمة .. وجاء على المسلمين وقت ترادفت فيه المحن فصار الزهد والبعد عن الأحداث هو افضل جهاد ممكن ..

وقعت الفتنة الكبرى فى تاريخ الاسلام استحيت بذورها ان تظهر يوم انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وان احدث النبأ اضطرابا هائلا فى المدينة المنورة ..

اظلمت المدينة واظلم فيها كل شىء ..

وبكى المؤمنون وحى السماء الذى انقطع ..

وبكى المسلمون رحيل سيد الخلق وخاتم النبيين عن دنياهم ..
وكان السؤال المطروح يومها :

من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكم المسلمين ..

وحسم الموقف شخص أبى بكر وتاريخه . كان أبو بكر قد ولى الامامة الصغرى حين أم الناس فى الصلاة بناء على طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض الموت ورغم معارضة عائشة فقد اصر النبى على أمره ، وصلى أبو بكر بالناس ..

ولقد خشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هـذا الرجل اللين الدمث الذى يبكى اذا صلى حتى تخضل لحيته بالدموع . وتحول هذا الرجـل فيما بعد الى سيف صارم من سيوف الله فى الأرض حين بدات مأساة الردة وحين مات أبو بكر رضى الله تعالى عنه عادت الفتنة تحاول رفع راسها ثم حسم الموقف شخص عمر بن الخطاب وتاريخه ، وخشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هذا الرجل الشديد الذى يبطش اذا غضب ، وتحول هذا الرجل فيما بعد الى رقة الحليم ، وحكم المسلمين حكما سيظل مثلا اعلى لنزاهة الحكم البشرى ..

ورغم أن عمر بن الخطاب كان يحرك بأوامره جيوشا فتحت دمشق ، واندحرت أمامها الفرس فى القادسية ، واندحر امامها البيزنطيون فى اليرموك رغم أن جيوش عمر بن الخطاب فتحت مصر وفارس ..

رغم هذا كله ، لم يكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يملك حرسا خاصا يستطيع أن يدفع عنه الخيانة اذا امتدت اليه الخيانة ..

ان غلاما فارسيا هو أبو لؤلؤة فيروز ، كان يعمل فى المدينة فى خدمة حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة ، جاء الى عمر بن الخطاب يشتكى اليـــه شيئا ، فلم يجبه الخليفة لأنه رأى الحق ليس فى جانبه ، فلما كان صباح اليوم التالى وانتهى الخليفة الى المسجد ليؤم المسلمين فى صلاة الفجر طعنه الفارسى بخنجره طعنتين ..

وكان سؤال عمر بن الخطاب وهو يموت عن قاتله وسر قتله ، فلما عرف ان قاتله مجوسى وقد قتله لأسباب ليست عامة ، اطمأن باله انه مات على العدل فمات ..

وكان عثمان بن عفان هو ثالث الخلفاء الراشدين .. ولم يكن يملك مثل شخصية سلفيه العظيمين .. اتفق المسلمون عليهما واختلفوا فيه .. وقد وقعت فى عصره اخطاء نبرئه منها ــ تأدبا ــ وننســـبها لمن حوله من معاونيه ..

فى العام الرابع والثلاثين من الهجرة النبوية انقض الثائرون على منزل

الخليفة وقتلوا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه وهو جالس يقرأ المصحف فى هدوء ، وسال دم الخليفة على قميصه وسال على نسخة القرآن التى كان يقرأ فيها ..

ولعب قميص عثمان دور البطل بعد موته ..

وتداعت الأحداث وبدأت الفتنة الكبرى فى الاسلام . وحمدا لله انها لم تكن فتنة فى كتاب الأمة الاسلامية ؛ وانما كانت فتنة سياسية تتصل بصاحب الحق الأول فى حكم المسلمين ..

وسالت دماء كل قطرة منها تكفى لملء الكون بحزن ثقيل فاجع .. قتل على بن أبى طالب كرم الله وجهه بعد خمس سنوات من قتل عثمان ، وكان ذلك فى مسجده بالكوفة وهو قائم يصلى ، وقد قتله رجل يدعى ابن ملجم وكان معه مهرا لامرأة تسمى قطام .. وكان دمه مهرا لزواج معاوية من السلطة السياسية وانفراده بحكم الدولة ..

بعد تسعة عشر عاما من قتل على بن ابى طالب فى الكوفة ، قتل الحسين فى كربلاء واجتز القتلة راسه الشريف وحمله الى يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان زوج هند آكلة كبد حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

تمضى سفينتنا فى موج من الدم ..

سحاب من الفتن كقطع الليل يمضى وراء سحاب .. والظلمة تشتد وتتكاثف .

وثمة مواقف عجيبة ..

فتن تقف منها قوى متكافئة فى الفضل مختلفة فى الاتجاه والنظر والآراء والمواقف ..

واقعة الجمل مثلا .. وقوف على ضد عائشة ..

« وتوقفت المعركة أمام الجمل الذى كانت تمتطيه السيدة عائشة أم المؤمنين وتستنفز من على ظهره المقاتلين حسب العادة العربية العريقة ، ولم تتم الغلبة لعلى الا بعد ان عقر الجمل الذى خلع اسمه على هذه المعركة » ..

نفترض أننا كنا نعيش فى هذا العصر لأى جيش كنا ننضم ..

هل ننضم لجيش على بن أبى طالب ونرفع السيف على عائشة ..

ام ننضم لجيش فيه عائشة لنرفع السيف ضد على ..

ان عليا لا يقف مع الباطل ..

وعائشة لا تقف مع الباطل ..

والامتحان بالغ الصعوبة ، وافضل للمرء ان يجرر اقدامه نحو جبل بعيد ويهجر هذا كله وينزوى ..

وهناك امتحانات يكون النجاح فيها هو الهرب منها .. وهذا ما فعله بعض المسلمين يومئذ ..

انسلخوا من الحيـــاة العامة ، وهجروا المجتمع الذى راح يتناقش بالسيوف والحراب ، وآثروا البعد عن لعبة السياسة الأموية القذرة التى ارتدت قميص عثمان وطالبت بدمه وهى تفكر فى الحكم أولا وفى السـياسة اخيرا ..

وهكذا دفعت الأهوال والفتن كثيرا من المسلمين الى الفرار بدينهـــم والزهد فى المساهمة فى الحياة العامة ، حتى ان جماعة من أهل بدر لزموا بيوتهم واتخذوها منازل للآخرة .. فلم يخرجوا منها الا الى قبورهم .. وفى المسلمين أيامها من عمد الى الصمت المطبق فمه .. روى الجاحظ أن رجلا قال صحبت الربيع بن خيثم سنتين فما كلمنى الا مرتين خــلال العامين ..

سالنى : امك حية ..

وسألنى مرة اخرى : كم فى بنى تميم من مسجد ..

فلما قتل الحسين بن على أتى قوم اليه فقالوا لنستخرجن منه اليوم كلاما .. قالوا يا ربيع .. قتل الحسين ..

وجم الربيع .. ثم قال بعد فترة صمت « **الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون** » ..

كانت الفتنة سببا فى زهد البعض أو صمت البعض كما راينا والزهــد والصمت بذرتان من بذور التصوف ..

وقد ألقيت البذرتان فى أرض تصلح للزراعة ..

وعادت الأمطار تسقط ..

أمطار أحيانا .. ودموع فى أحيان إخرى ..

ها هو بحر زين العابدين .. ابن سيد الشهداء الامام الحسين بن على ابن ابى طالب ..

كان حزنه على ابيه عميقا ..

ولقد بكى الرجل رغم ان الرجال لا يبكون ..

وقال يوما « فقد الأحبة غربة » .

وقد شرب اغترابه من حزنه على أبيه سيد الشهداء حتى اثمر واينع واصبح الاغتراب مقاما من مقامات الزهد ..

واصبح الصوفى كالغريب فى الدنيا لأنها ليست داره ..

وهذا أصل كبير من أصول التصوف .

اذا كان الصوفى مفتربا ، وكان الفنان مفتربا ، فهل ينطوى الصوفى على شيء من الفن ؟ وهل التصوف في حد ذاته فن ؟

ان الاجابة على هذين السؤالين أمر بالغ الأهمية .

. . . .

حين ولد التصوف منذ ١٢ قرنا ، لم يكن مفهوم الفن أو دور الفنان قد اتسع وصار الى ما صار اليه اليوم من رقى وتعقيد .

كانت الاشكال السائدة فى التعبير الفنى منذ ١٤ قرنا (أيام البعثة النبوية) هى رواية الاساطير وقول الشعر ..

وكأن الكلام ينقسم فى لغة العرب الى قسمين .. نثر وشعر .

وفى بداية الدعوة الاسلامية ، اتهم الجاهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يروى الاساطير « **وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا** » سورة الفرقان .

واتهموه بأنه يقول الشعر « **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** » سورة الطور .

واتهموه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الشياطين تنزلت عليه بهذا الكلام المحير الذى يسميه القرآن ، فنفى عليه بهذا الكلام المحير الذى يسميه القرآن ، فنفى الحق ذلك « **وما تنزلت به الشياطين** » . سورة الشعراء .

وهذه التهم الثلاث تريد ان تضع الرسول فى دائرة الفن .. وتخرجه من نطاق الرسالة .. وقد دحض القرآن الكريم هذه التهم جميعا وتحدث عن الفرق بين الرسالة الالهية .. والفن .

ورغم أن الشاعر كان يحتل فى قومه مكانة ممتازة قبل بعثة الرسول ، ورغم أن قصائد الشعراء كانت تعلق على الكعبة ، « ومن هنا جاءت تسمية القصائد » « بالمعلقات » ورغم ان الشاعر بمثابة الذاكرة لقومه ، رغم هذا كله نفى القرآن عن الرسول قول الشعر ..

قال تعالى فى سورة يس « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** » .

وكلمة « وما ينبغى له » تعنى أن وصف الرسول بالشعر انتقاص من كماله صلى الله عليه وسلم .. لان المسافة بين الشاعر والنبى هى مسافة بين عالمين يختلفان كل الاختلاف ، من الشرف ان يكون المرء فنانا او شاعرا ، ولكن هذا الشرف اذا وجه الى الرسول كان تهمة ونقيصة ينزهه الحق عنها .

وهكذا رد القرآن الكريم على كل ما وجه الى الرسول من اتهامات تتصل بالفن .

فيما يتعلق بأنه يروى الاساطير أو يكتتبها قال تعالى ((**قل انزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض**)) سورة الفرقان .

وفيما يتصل بقول الشعر قال تعالى ((**انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر**)) سورة الحاقة .

وفيما يتصل بالهام الشياطين واتصالها قال تعالى ((**وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون**)) . سورة الشعراء .

. . . .

لا نعرف كم مر من الوقت حتى فهم العرب أن الكلام لم يعد ينقسم الى نثر وشعر .. انما صار ينقسم الآن الى ثلاثة أقسام .

نثر وشعر وقرآن ..

والنثر والشعر اسلوبان بشريان للتعبير ، أما القرآن فكلام الله تعالى ، وهذا الاعجاز الذى ينطوى عليه القرآن فى معانيه وصوره وموسيقاه الداخلية ، شيء يختلف تماما عن سحر الفن ..

لأن الفن ابداع وتخيل ، واختراع ما ليس له وجود .. والشاعر يقول ما لا يفعل .. اما القرآن فحق كله ، وليس فيه اختراع ولا تخيل ، والرسول لا يقول الا ما يفعل .

هذا الفارق الجوهرى من الفن والدعوة ، أو بين الشعر والرسالة ، هو الذى دفع القرآن ــ فى أكثر من سورة ــ الى تفهيم الناس حقيقة الأمر ، وقد سمى الله تعالى احدى سور القرآن باسم سورة الشعراء .. والسورة من سور القرآن القصيرة ، ورغم ذلك فعدد آياتها ٢٢٧ ، والآيات تتركب من جمل قصيرة ، ورغم قصر الجمل فقد جاء تركيبها الالهى معجزا متحديا ، وكأن الحق يقول للبشر جميعا ان القرآن ليس شعرا ، وليس نثرا ، انما هو كلام الله تعالى ، وكما أن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، فكذلك كلامه سبحانه ليس كمثله شيء .

. . . .

فى نهاية سورة الشعراء ، ينفى القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم اى شبهة فى اتصاله بالشعر أو شياطين الشعر ، وينبىء الله تعالى عباده عمن تتصل به الشياطين أو تتنزل عليه .

« هل انبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » .

بهذه الآيات يفهم الله تعالى عبيده ان الشياطين لا تنزل الا على قلوب الافك الآثمة ، وان الشياطين يكذبون فيما يقولونه لاتباعهم من البشر ، وأن أتباعهم من البشر يكذبون فيما يقولونه للناس ، فالكذب متبادل والاثم متبادل .. ويمضى السياق القرآنى فاذا نحن ننتقل انتقالة مفاجئة الى الحديث عن الشعراء .. والنقلة ليست مفاجئة كما نظن ، فقد كان شعراء العرب يزعمون ان لكل شاعر شيطانه الذى يلهمه باعظم افكاره الفنية جنونا .. واراد الله تبارك وتعالى أن ينفى عن رسوله الكريم هذه التهم السخيفة التى تجعله مرة خاضعا لشياطين الشعر ومرة لرواة الاساطير .

بعد ذلك يوقفنا القرآن الكريم أمام حقيقة الفن بحديثه عن الشعراء . ويرسم فى ثلاث آيات قصيرة صورة للملامح النفسية للشعراء والفنانين عموما .. ويحدد الفروق الدقيقة بين الشعر والرسالة .. ويحدد الفروق بين طبيعة الفن وحقيقة الدعوة الى الله ..

يقول تعالى : **« والشعراء يتبعهم الغاوون »** .

هناك من يتبع الشعراء .. هناك سر خاص او سحر خاص فى كلام الشعراء يجعل الناس يتبعونهم .. ان الشعر فن ، واى فن لا بد له من جمهور ، وللشعراء جمهورهم .. والذين يتبعون الشعراء عادة هم الغاوون .. فمن هم الغاوون .

اطلق اللفظ قبل ذلك على آدم حين عصى ربه . قال تعالى **« وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »** . سورة طه .

لم تكن غواية آدم خطيئة لا تغتفر ، انما كانت انقيادا من آدم واستماعا لاحلام الشيطان ووعوده ونسيانا لأوامر الله الا يقرب هذه الشجرة ، وحين وسوس اليه الشيطان **« هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »** سورة طه ..

هذه الوسوسة كانت عملا فنيا ، بمعنى ان ابليس رسم صورة متخيلة من عنده ، اخترع شيئا لا وجود له فى الحقيقة واقنع به آدم ، وكان ابليس يكذب وهو يؤلف هذه القصة ، ولكن تصويره كان مقنعا الى الدرجة التى جعلت آدم عليه السلام ينقاد لهذه الصورة ويصدقها ..

كان ابليس أول فنان يصادفه آدم .. وبسبب قصته عن شجرة الخلد كانت غواية آدم .

من هذا المنطلق نفهم كيف يتبع الغاوون شعراءهم .

ان الشاعر يرسم صورا متخيلة ليست هى الواقع ، صورا لها مذاق الحلم ، ويتبع الناس هذه الصور غير الحقيقية التى يجدون لها طعما اجمل من طعم الحقيقة .

ويمضى سياق الآيات فى سورة الشعراء فيحدثنا الله تبارك وتعالى عن صفة أخرى من صفات الشعراء والفنانين .
« ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » .

هذا الهيام فى الأودية صفة أساسية من صفات الفنان .. وهو تصوير فنى معجز لحقيقة الفنانين والشعراء ..

ينتقل الشاعر من واد الى آخر ، هل يعنى ذلك انه ينتقل من مكان جغرافى الى مكان جغرافى آخر .. هذا متضمن فى المعنى .. والى جوار هذا المعنى تتضمن الصورة انتقالا من تجربة الى تجربة ، ومن مستوى الى آخر ، ومن معاناة الى معاناة أخرى ، ليست الأودية اذاً مقصورة على الأماكن الجغرافية ، انما يمتد المعنى ليشمل مستويات من التصوير الفنى ، ويشمل مستويات من الابداع الفكرى ، وبهذه الآية يحدد القرآن صفة الفنانين بالقلق احد الملامح النفسية البارزة للفنان ..

ان التنقل والتغير والملل السريع والقلق من صفات الشعراء والفنانين، بينما الثبات والاطمئنان والسكينة من صفات الأنبياء والداعين الى الله ..

ويمضى السياق القرآنى فيورد أهم صفة من صفات الفنانين أو الشعراء **« وانهم يقولون ما لا يفعلون »** .

وبهذه الآية المعجزة ، ينسف الحق عز وجل ادعاءات الجاهلين بأن الرسول شاعر ، ويضع معيارا للتفرقة بين الرسالة والشعر ، كان العرب يقولون « اعذب الشعر اكذبه » ، اشارة الى أن الفن ليس نقلا تصويريا لحقيقة الواقع ، فهناك لون من ألوان الكذب الفنى فى الفن ، أما الكذب فأمر مستبعد تماما من الرسالة ، واذا كان التخيل والاختراع يعتبران موهبة عند الفنان ، فانهما نقيصة عند الداعية الى الله ، نقيصة يبرؤه الحق منها ..

واذا كان الشاعر يقول ما لا يفعل ، فان قول الرسول هو فعله .. وأى رسول هو الفعل المجسد لكلمات الله ، ويدعو الرسول الى المثل العليا بشخصه بل ان شخصه يكون هو المثل الأعلى لمعاصريه ومن يأتى بعدهم ، وأفعال الرسول مطابقة لأقواله تماما ..

أما الفنان أو الشاعر .. فمن ذا الذى يستطيع الزعم بأن قوله هو فعله ؟

يدعو الفنان او الشاعر عادة للجمال والخير والحب والفضيلة ، ولكنه لا يستطيع أن يكون بشخصه وافعاله وذاته نفس ما يدعو اليه ..

قد يكون هناك انفصال بين فن الفنان وأسلوبه فى الحياة .

قد يكون هناك فرق بين القول والفعل عند الفنان او الشاعر .

ليس القول عند الفنان هو الفعل كما هو الأمر بالنسبة للدعاة الى الله نتأمل هذه الاشارة الالهية اللطيفة التى ترسم صورة لاحلام الفنان العالية ، وقصور شخصيته عن بلوغ ما يدعو النـاس اليه .. « **وانهم يقولون ما لا يفعلون** » .

هل يعنى هذا ان نخرج الشعراء ــ كرمز للفنانين ــ من خيمة الاسلام .. هل يعنى هذا ان الاسلام يقف ضد الفنون .

يقول الله تعالى فى نهاية الآيات فى سورة الشعراء « **الا الذين آمنـوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا** » .

هناك استثناء فى لفظ « الا » ..

واذن تتسع خيمة الاسلام للشـعراء المؤمنين الصالحين الذاكرين .. وتتسع للفنانين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا .. وقديما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اصدق شعر قالته العرب قول لبيد

« الا كل شيء ما خلا الله باطل » .

. . . .

أيكون الصوفية هم الفنانين المؤمنين فى الاسلام ؟

لقد فهمنا مكانة النبى ووضع الشعراء ..

وعرفنا الفرق بين ثبات الداعية الى الله وقلق الفنان وتحولاته ..

وعرفنا صدق الداعية الى الله وشطحات الفنان واضافاته الوجدانية .

ونريد الآن ان نسأل ..

لماذا نرى معظم تراث الصوفية ادبا من ارقى الوان الادب واعقدها ؟

لماذا كان معظم الصوفية شعراء ، وكتابا . وحكماء .. ؟

لماذا نحس ونحن نقرأ للصـوفية انهم قوم يعانون معاناة بالغة تشـبه معاناة الفنانين ؟

لماذا شطح بعض الصوفية شطحات تشبه شطحات الفنانين ؟

هل ينطوى الصوفى على شيء من الفن .. ؟

وهل التصوف فى حد ذاته فن ؟

لن نجيب على هذه الاسئلة الآن ، انما سنترك للقارىء ان يجيب عليها بنفسه خلال ابحاره معنا ..

فقط .. نريد أن ننعش ذاكرة القارىء بتصورنا عن وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بين الصوفى والفنان ..

أول شىء يتفق فيه الصوفية مع الفنانين ان كل واحد فيهم يملك رؤياه الخاصة .. ويحس بالاغتراب عن مجتمعه .. والاحساس بالغربة أصل كبير من أصول الفن ، واصل كبير من أصول التصوف ، وقد كانت غربة « على زين العابدين » رضى الله تعالى عنه نبعا شرب منه كثير من الصوفية فيما بعد ..

وليست مصادفة ان التصوف نشأ بعد القرن الثانى للهجرة ، ولقد كان مرور الوقت ووقوع الفتن أرضا ولد فيها الاحساس بالغربة ، وبدأت علامات الاستفهام تولد على سطح الحياة .. ما هذا الذى يحدث ؟

ما هذه الدماء التى تراق .. ؟

لماذا يموت من نحب أو يقتلون ؟ لماذا تقتل البراءة والتقوى بغير ذنب سوى البراءة والتقوى ؟

وينغرس فى نفس الانسان احساسه بالغربة .. بالابتعاد .. ويخاصم الانسان الواقع الكائن .. ويبتعد الصوفى برؤياه عن الواقع المضطرب .. وكذلك يفعل الفنان ..

ان الفنان انسان يخاصم الحياة ، ويريد تجاوز الواقع الكائن ، ولا يبدع الفنان اذا كان راضيا **كل الرضا عن الحياة ، ليس هناك فن بشرى بمعناه الأرضى فى الجنة ، لأن الجنة كمال مطلق والفن لا ..**

لا يمارس العمل فى كمال مطلق ، وكذلك التصوف . فى عصر الرسول وعصور الخلفاء الراشدين لم ينشأ التصوف لوجود الحد الأعلى من الكمال .. وبعد ذلك نشأ التصوف كمحاولة لتكملة هذا النقص الذى وقع لصورة الكمال .

وهدف الفنان النهائى هو تجاوز الواقع واستكمال النقص فى الحياة وأداته هى التعبير الفنى المعقد المركب ..

أما هدف الصوفى فهو الوصول بتجاربه الروحية الى الله ، واحيانا يعبر الصوفى عن نفسه بالشعر أو الحكايات الرمزية أو النثر الغامض والرموز ..

ومن الخطأ البالغ أن نتناول تعبير الصوفية الأدبى سواء كان شعرا أو نثرا ، لنناقشه بمنطق الدين ..

هنا يمكن أن نخطىء كما أخطأ القدماء ..

ادعى الى الدقة كثيرا أن نناقش انتاجهم الفنى بمنطق الفن ..

اذا كانوا يتحدثون فى الأحكام الشرعية .. فهذا دين ..

واذا كانوا يجتهدون فى الفقه .. فهذا تفسيرهم للفقهه ..

واذا كانوا يتحدثون بالشعر عن حب ليلى وعزة ، فهذا فن عظيم نناقشه بمنطق الفن .. ونرى هل هو فن عظيم حقا أم ان هذه دعوى ؟

ولقد كان خطأ المستشرقين انهم ناقشوا التصوف كدين ، وحسبوه على الدين .

ولما كان التصوف « حالة » ، وكان فى الصوفية آلاف الحالات ، فمعنى هذا أن الدين سيخرج من ثبات الحقيقة الى أودية الحالات الفنية المتغيرة وهذا ما لا يرضاه أحد ، او يقبل به منصف .

وهكذا يظل الصوفى تحت خيمة الاسلام ، ونعتبره داخلا فى مجال الاسلام طالما كان داخلا فى اطار الكتاب والسنة ، فان خرج الى ميدان الفن الفسيح ناقشناه بمنطق آخر ..

نضرب مثالا لتوضيح فكرتنا .

اذا قال العاشق المتيم قيس بن الملوح لنا « من فرط ما احببت ليلى صرت أنا ليلى .. احملها فى قلبى وروحى .. ان ليلى هى روح روحى » .

لو قال قيس بن الملوح هذا لنا فماذا نقول ردا على جملته ..

هل نتهم انفسنا بعدم الفهم أم نتهمه بالجنون ؟ اختار معاصروه أسهل الطرق واتهموه بالجنون وذاع اسم شهرته فلم يعد يعرف الا به .. ذلك أن دعوى العشق لا يجوز عليها التصديق والقبول ، ولا يجوز عليها الرفض والاستبعاد .. طالما اننى لست أنا العاشق ..

لو كنا عاشقين فقد نفهم قيسا .. ولو لم نكن عاشقين فسوف نتهمه بالجنون .. (الا يقولون من ذاق عرف ؟) .

بماذا نعلق على أبيات الشاعر التى يقول فيها :

ينادى المنادى باسمها فاجيبه ... وادعى فليلى عن نداى تجيب

وما ذاك الا اننا روح واحد ... تداولنا جسمان وهو عجيب

كشخص له اسمان والذات واحد ... باى تنادى الذات منه تصيب

ان الشكل الذى قدمت لنا به الفكرة هو الشعر .. والشعر فن .. أليس هذا فنا رفيعا ..

والمضمون الذى يريد الشاعر توصيله وهم يتصور فيه اتحاده بليلى ، واتحاد البشر مفهوم ومعروف ، وهو مستحيل أن يقع بهذه الصورة التى يتحدث عنها الشاعر الا للحظات ..

وبالتالى نسقط دعوى الاتحاد مع الخالق ، ويصير صرف ليلى الى الحقيقة الالهية فكرة مستبعدة ومرفوضة ..

غاية ما يمكن أن نفهمه من الشعر ان الشــاعر يحب الله حبا لا يرى فيه نفسه ..

وقد عبر عن هذه الصورة بهذه الأبيات الشعرية .. وهى فن يمكن نقده وتحليله ، وليست دينا يمكن اضافته الى الاسلام ، ومحاسبة الاسلام عليه كما يفعل بعض العلماء المغرضين والمستشرقين .

لا ننكر ان فى التصوف جزءا من الفن ..

ولا ننكر ان فى الفن العظيم جزءا من التصوف ..

والفن موهبة يمنحها الله لبعض عباده ، وشأنها شأن بقية المواهب امتحان يرى الله تعالى فيه أين يضع الانسان موهبته .

والصوفى كالفنان فى جزء من تركيبه النفسى .. فهو يملك قدرا من الحساسية البالغة والحدس العميق ، ويملك رؤياه الخاصة به ، ويملك قدرة على التعبير لا يملكها العابد فحسب .

ومثل الفنان .. يحلم الصوفى بتجاوز الواقع الظاهر لما هو أعمق واخفى ، ويحب أن يضيف الى الكون جمالا لم يكن فيه قبل أن يولد ، وقد يصطدم الصوفى كما يصطدم الفنان بمجتمعه ، وقد ينتصر المجتمع على الصوفى أو الفنان فينفيهما فى الأرض أو تقيلهما .

ويتشابه الفنان والصوفى فى اعتمادهما على التجربة وصولا بفنهما الى الذروة ، واذا كانت تجربة الفنان تستوعب الجسم والروح ، فان تجربة الصوفى تعتمد على الروح اكثر من اعتمادها على الجسد ، يخطىء الفنان ليعبر عن الخطيئة . أما الصــوفى فهو يســأل فحسب عن الخطيئة لكيلا يقع فيها .

وقد حدد لنا حسن البصرى هذا المعنى العميق حين سئل :

يا أبا سعيد .. انك تتكلم فى هذا العلم (الزهد) بكلام لم تسمعه من احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أين أخذته ..

قال : من حذيفة بن اليمان حين قال : كان الناس يسألون النبى صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيــه ، وعلمت أن الخير لا يسبقنى ، وعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير .

. . . .

أيضا يتشابه الصوفى والفنان فى أن كليهما يقتات على الحب ..

وهنا يختلف الصوفى عن الفنان فى موضوع حبهما ، وان اتفقا فى كثير من التعبيرات الأدبية والفنية ..

فالفنان يسكر من رؤية الحبيبة ماديا ، وهو يشرب الخمر فى صحتها وينتشى بما يحس ويقول انه هى وانها هو ، وكذلك يفعل الصوفية ، يستخدمون نفس المصطلحات كالكأس والشراب والوجد والسكر والصحو ..

الفرق بين الفنان والصوفى ان الفنان يحب حبا بشريا ، ويتعلق قلبه بالبشر ، ويريد الفنان اذا عشق أن يرى صورته فى عين من يحب ، والفنان يحب نفسه ويحب قدرته على الحب ويحب الحب قبل أن يحب الحبيبة ، واخطر ما يريده الفنان أن يكون محبوبا ..

هذا اقل آماله .. واعظم آماله أن يكون معبودا .

اما الصوفى فله وجهة نظر اخفى وارقى من وجهة نظر الفنان ..

يقول جلال الدين الرومى « ليس لكل احد ان يكون محبوبا ، فانه يحتاج الى صفات وفضائل لا يرزقها كل انسان .. ولكن لكل انسان أن يأخذ نصيبه فى الحب وينعم به .. فاذا فاتك يا سيدى أن تكون محبوبا ، فلا يفتك يا عزيزى ان تكون محبا .. وان لم يكن من حظك أن تكون يوسف .. فمن يمنعك أن تكون يعقوب .. ولو عرف المحبون ما ينعم به العشاق المتيمون ، لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء الى صف المحبين البؤساء » .

الست ترى أن الصوفى أشد تواضعا من الفنان ..

الست ترى أن الصوفى يحب ان يكون محبا.. اما الفنان فيحب أن يكون محبوبا ..

وعلى حين يؤكد الفنان ذاته فى الحب عن طريق تضييع هذه الذات . يضيع الصوفى ذاته فى الحب .. وبضياع هذه الذات لا تبقى الا ذات المحبوب وحده ..

ذات الخالق وحده ..

ولأن الفن يختار رجاله عادة من ذوى المشاعر العنيفة والحساسية العميقة ، نرى الفن يمتزج عادة بلون من الوان المغالاة والتزيد والجنون ، واحيانا نرى فى التصوف مغالاة وتزيدا ، واذا كان قيس بن الملوح مجنونا فى نظر المجتمع لأنه احب ليلى كل هذا الحب ، فان المجنون فى نظر نفسه كان هو العاقل الوحيد وكل الناس مجانين ، أما اذا نظر الصوفى لقيس ابن الملوح فسيراه مجنونا لأنه ذهب الى صورة ليلى ولم يذهب الى المصور البارىء ..

ذهب الى ليلى فعذبته ليلى حتى فقد عقله ، ولو ذهب الى الله وفقد عقله لكان له شرف البهت والتحير والجنون فيمن يستحق باعجازه البهت والتحير ..

. . . .

واذا كان التصوف بحارا غريقة وجزرا وعرة .. فان أفضل تمييز للتصوف هو تقسيمه الى قسمين :

التصوف الايجابى والتصوف السلبى .. أو التصوف الاسلامى والتصوف الفنى .

ومعيار التفرقة هنا هو الكتاب والسنة ..

ما كان محكوما باطار الكتاب والسنة ، كان تصوفا اسلاميا ، وما خرج عنهما كان فنا يخضع لمقاييس الفن وقيم النقد ، ولم يعد يلزم الاسلام فى شىء .. لان الاسلام هو الكتاب الذى أنزل علينا .. هو القرآن وما تواتر من السنة .. وما عدا ذلك من زيادة .. أفكار ليست هى الاسلام ولا تحتسب عليه ..

وسوف نرى أن فى التصوف رجالا كانوا هم التصوف الايجابى وحده ، وسنرى رجالا يمتزج فيهم التصوف الايجابى بالتصوف السلبى .. وسنرى الصوفية السلبيين .

سنرى أن ذهن الانسان تمتزج فيه آلاف الأفكار ، ورغم هذا كله ، فان هناك بوصلة نستطيع اذا نظرنا فيها أن نعرف هل نبحر فى الاتجاه السليم نحو الحقيقة ..

أم نمضى نحو الغرق فى عواصف البحار ..

نحسب أن الوقت قد حان للحديث عن مصادر التصوف وتفسيراته ورجاله ..

كان الزواج القاسى بين الزهد والتأمل وظروف المجتمع الاسلامى الداخلية والخارجية هو المسئول عن ميلاد التصوف بعد ٢٠٠ سنة من هجرة الرسول .

ونحن نرفض تصديق دعوى المستشرقين التى ترى ان التصوف نبع من مصدر واحد ، ونرى انه نبع من أكثر من مصدر ..

الأول : بعض آيات فى الكتاب الكريم ..

الثانى : ما عرف عن الرسول من زهده وتأمله .

الثالث : التأثيرات الداخلية التى وقعت فى المجتمع الاسلامى فى المائتى

سنة الأولى من الهجرة (كالفتنة وعلم الكلام والاتجاه العقلى الذى استتبع رد فعل وجدانى) .

الرابع : التأثيرات الخارجية التى وفدت على العقل الاسلامى نتيجة احتكاكه بالفلسفة اليونانية وتجارب الأمم الروحية والعقلية التى خضعت للاسلام .

وقد قيلت نظريات كثيرة فى أصل التصوف ..

قيل ان التصوف تعبير عن الناحية الباطنية فى الاسلام ، وهذه هى دعوى الصوفية أنفسهم .. اذ يعتبرون أنفسهم ورثة الرسول فى العلم ، ولما كان الأنبياء لا يورثون مالا ، فانهم يورثون العلم ..

وسنرى فى هذا المجال ان بعض الصوفية حملوا آيات القرآن ما لا تحتمل ، وفرضوا عليها أهواءهم فرضا ، واستحلوا لانفسهم أن يفسروا بعض الكلمات القرآنية تفسيرا يستحيل أن تحتمله .. مثل تفسير الصوفية من الشيعة لقوله تعالى « **مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان** » قالوا ان البحرين هما على وفاطمة ، أما اللؤلؤ والمرجان فهما الحسن والحسين . وهذا تفسير يعتسف المعنى ويفرضه على النص القرآنى ..

وقيل ان التصوف رد فعل للعقل الآرى ضد دين سامى فرض عليه فرضا . وتهافت الدعوى واضح ، وقيل ان التجارب الروحية للهنود اثرت على المسلمين ، وقيل ان التصوف الاسلامى نتاج فارسى فى نشأته وتطوره ، لأن عددا كبيرا من الصوفية من أصل فارسى .. وهذا كله كلام يلقى على عواهنه ، وسواء قيل ان أصل التصوف هو الهند أو فارس ، فان الثابت أن أصله أعقد من أن يكون ناشئا من سبب واحد ..

وسنرى كلما أبحرنا فى بحار القوم ان مصادر الموج الهائج أعقد من أن تنسب الى سبب واحد أو سحابة واحدة أو تأثير واحد .

. . . .

فى البدء ..

كان بحر الخوف من الله تعالى يمتد فى روح المسلمين ..

وكان الحياء الخائف من الله تعالى هو أسبق العناصر تأثيرا فى المسلمين .. يقول الله تعالى فى سورة فاطر « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » .. وبهذا التخصيص يجعل الله تعالى خشيته برهانا على العلم ودليلا عليه وتسير آيات القرآن فى هذا الاتجاه .

يقول تعالى فى سورة البقرة « **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** » .

ويقول تعالى فى سورة النساء « **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله** » .

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن مناسك العبادة وشعائر الحج وذبح الأضحية فيلفت الانتباه الى حقيقة جوهرية فى سورة الحج « **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم** » .

نتأمل معانى الآيات :

فى سورة البقرة يحدثنا الله عن هدف الخليقة الانسانية ، فيقول سبحانه أن الهدف هو التقوى .

وفى سورة النساء يشير القرآن الكريم الى أن وصية التقوى الموجهة الى المسلمين هى نفسها وصية التقوى التى وجهت قبل ذلك الى الذين أوتوا الكتاب .. وهذا معناه أن الوصية قديمة يرجع تاريخها لنشأة النوع الانسانى .

وفى سورة الحج يقول الحق للحجيج ان دماء الأضحية ولحومها لن تذهب الى الله ، انما سيذهب الرمز المختبىء فى شعائر العبادة .. وهو التقوى ..

وبهذه الآيات كلها ينكشف لب الاسلام عن جوهر التقوى . والتقوى تعنى الخوف من الله تعالى والحياء منه ومراقبته فى كل حال .

وبسبب أهمية التقوى البالغة .. يجعلها الله تعالى هى معيار الفضل الوحيد .. وهى معيار الكرم الوحيد ..

قال تعالى فى سورة الحجرات « **ان أكرمكم عند الله اتقاكم** » ..

لم يقل الله سبحانه ان أكرمكم عند الله اغناكم ، ولم يقل أعلمكم ، ولم يقل أجملكم ولا أفضلكم حسبا ونسبا ، انما قال شيئا يتجاوز هذا كله . ان تصورات البشر وموازينهم تجعل الاولوية للثراء والعلم والجمال والحسب والنسب والسلطة والرئاسة ..

ولم يكن الحق يتحدث فى سورة الحجرات عن موازين البشر ..
قال تعالى : « **ان أكرمكم عند الله** » ..

ثمة مستوى آخر يختلف تماما عن موازين البشر وتصوراتهم .. نحن أمام مستوى الالوهية الجليل ..

يقيس الله عز وجل كرم الناس بتقواهم لله ..

التقوى هى المعيار عند الله .. وهى وحدها التى توضع فى الميزان ، وهى وحدها التى تهم .

هذا التتويج للتقوى أثر فى قلوب المسلمين الأوائل ، فقد كانوا يتلقون من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان الرسول اتقى الناس لله ..

كان أشد الناس خوفا من الله ، واشد الناس حياء من الله ، واشد الناس رهبة من جلال الله ، وكان حبه لله عز وجل لا يتجاوز اطار العبودية وتوقير الله .. ورغم أن اعظم ذنوبه — صلى الله عليه وسلم — كانت حسنات للمقربين والعابدين والاتقياء .. رغم معاتبة الحق له على الكمال لأنه يريد منه ذروة الكمال لا الكمال وحده .. رغم انه كان صلى الله عليه وسلم بلا ذنوب .. رغم انه كان رحمة للعالمين بنص كتاب الله .. رغم أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، رغم هذا كله كان يقوم الليل ويصوم النهار فلما سئل لماذا وقد غفر الله لك ؟

اجاب : أفلا أكون عبدا شكورا

ان اجابته صلى الله عليه وسلم تتضمن الاحساس بالعبودية الشاكرة ..

والاحساس الدائم بالعبودية هو جوهر التقوى ..

ولقد عرف الاسلام نماذج من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين كانوا امثلة عليا فى خشية الله وتقواه ..

. . . .

بحر ابى بكر الصديق ..

مثل ريح تسوق السحاب والمطر كان كريما تقيا .. اكرم الرسول بتصديقه وسمى الصديق .. واكرم الرسول بماله وكان قبل الاسلام اعظم اغنياء مكة ، فصار بعد الاسلام رجلا فقيرا ذهبت أمواله فى الدعوة الى الله .. واكرم الرسول بابنته عائشة ، واكرمه بمصاحبته فى الهجرة ، وكان قمة فى العبادة ورقة المشاعر وسمو النفس ، ورغم ذلك فهو القائل انه لايامن مكر الله ولو وضع احدى قدميه فى الجنة ..

هذا صاحب رسول الله ..

هذا مقدار تقواه لله ..

. . . .

بحر عمر بن الخطاب ..

مثل سيف لا يقف امامه شىء كان كريما تقيا .. فى ظروف الاسلام الأولى ، ايام الحصار والجوع والبؤس والتعذيب والاضطهاد .. سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعز الاسلام بأحد العمرين ..

واستجاب الله تعالى ..

كان عمر بن الخطاب هو الرجل الذى أعز الاسلام بشجاعته فى الحق .. وكان عمر بن الخطاب هو الحاكم الذى يتقلب فى فراشه خوفا من أن تنكفىء عنزة فى احدى طرق العراق فيسأله الله لماذا لم يمهد لها الطريق وهو حاكم على المسلمين ومسئول عن طرقهم وكبوات حيواناتهم ..

. . . .

بحر على بن ابى طالب ..

وسيدنا على هو باب مدينة العلم .. وهو أول صبى يؤمن بالاسلام ، وهو الذى تربى فى بيت النبوة .. وشرب آدابها وسقى من تقواها .

. . . .

بحر عثمان بن عفان ..

قتل الرجل الكريم وهو يقرأ كتاب سيده ومولاه .. قتل وهو يقرأ فى المصحف ، وكان يقول :

« اذا جاء العبد كتاب من سيده وجب عليه أن ينظر فيه كل يوم » .

نريد أن نلاحظ استخدامه لتعبير العبد ..

لقد استخدم الرسول نفس التعبير قبل ذلك حين سئل لماذا يجهد نفسه وقد غفر الله له ..

ان الاحساس بالعبودية هو جوهر التقوى ..

والخوف من الله تعالى والذلة بين يديه والافتقار اليه هو جوهر التقوى ..

وسوف نلمح فى جميع الصحابة والتابعين هذا الاحساس البالغ بتقوى الله وخشيته ..

. . . .

بحر سيدنا الحسين بن على ..

صنع موجة من خشية الله ..

وتوجته الشهادة ..

ويسيل دمه فى الله .. رمزا للبراءة التى يقتلها الدهاء والظلم .. وينتقل الموج الخائف الى بحر ابنه ..

. . . .

ما أشد هدوء هذا البحر ..

وما أعظم صفاء أمواجه ..

هذا بحر الكريم ابن الكريم ابن الكريم ..

بحر على بن الحسين بن على بن أبى طالب ..

المياه هادئة ساكنة ..

القاع عميق وان ارتعشت رماله بالخوف من الله ..

الأمواج جاءت من دموع الخشية من الله والهيبة من جلاله ..

لم نزل فى منطقة الزهد الخائف ..

لم ندخل بعد منطقة التصوف المعقد ..

هذا البحر هو المدرسة الأولى من مدارس الزهد الذى تطور الى التصوف .. لقد كان التشيع المعتدل واحدا من أهم العوامل التى أعانت على تطور الزهد الى التصوف كما لاحظ الدكتور عبد القادر محمود .

وكانت المأساة التى وقعت لاهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم هى الجسر الذى وصل بين أهل السنة والشيعة .. فاذا كثير من السنيين ينحازون بمشاعرهم الى آل البيت .. واذا آل البيت أنفسهم يحسون الاغتراب ، واذا المنحازون اليهم يحسون بنفس المشاعر ، ومن الغربة يولد الحزن .. والحزن ينمو فى بدايته تحت شمس اليأس فى الدنيا ، تسقيه دموع الامطار المغتربة .

يوما بعد يوم تورق اشجار الحزن فاذا نحن أمام حديقة بأكملها من الحزن ..

. . . .

على زين العابدين يسير فى السنة التسعين الهجرية .. استعد تماما للموت بعد سنوات لا يعلمها وان كان مكتوبا فى علم الغيب أنه سيموت فى السنة الخامسة والتسعين للهجرة ..

يرتدى الحرير ويخب فى عباءة غالية .. على وجهه مسحة من نبل حزين .

هو زاهد يلبس الحرير .. ليس الزهد عنده هو فراغ اليد من الدنيا . وانما الزهد هو فراغ القلب من الدنيا .. وقد فرغ قلبه من الدنيا واغترب فيها ..

ان تكون الدنيا فى يدك وخارج قلبك ..

ان تكون قادرا عليها وسيدا فيها ومزدريا لها ومحتقرا لها فى نفس الوقت ..

هذا هو الزهد ..

سئل منذ ليلتين كيف حالك فقال : فقد الاحبة غربة ..

شرب اغترابه من حزنه على ابيه سيد الشهداء الامام الحسين .. ورغم أن اسمه الاصلى هو « على بن الحسين بن على » .. الا أن شهرته

بزين العابدين التصقت باسمه فلم يعد يعرف الا بها .. هو على زين العابدين ..

هو على التقى الذى كان يقوم طرفا من الليل للتهجد والعبادة ، فإذا سار اثناء النهار سار بوجه شاحب من أثر سهر الليل ، وافشت عيناه سر بكائه الطويل طوال ليلة الأمس خوفا من الله وأملا فى رضاه ..

عبد عابد من عباد الله ..

وكلماته فى ابتهالاته تشى بحكمته وادبه النبوى فهو يستمد من مشكاة النبوة مباشرة ..

تورد الصحيفة السجادية قول على زين العابدين فى ابتهال من ابتهالاته « **اللهم لك قلبى ولسانى . وبك نجاتى وامانى . أنت العالم بسرى واعلانى** » .

يسلم الرجل قلبه ولسانه لله ..

واللسان يترجم عما يريد الانسان قوله ، فهو هنا رمز للظاهر الذى يحب الانسان من غيره أن يعرفه عنه ..

أما القلب فرمز لأسرار الانسان ودخيلته .. هو رمز للمخبوء فى باطنه ، وحين يسلم على زين العابدين قلبه ولسانه لله ، يعنى أنه يسلم سره وعلانيته ، فيجعل ما على لسانه وما فى قلبه ملكا لله عز وجل .. ولانه يفعل ذلك يدرك أن نجاته وأمانه يستمدان من مصدر واحد هو الله ، فلا نجاة ولا أمان فى البعد عن الله .

يقول على زين العابدين فى ابتهالاته : « **اللهم امت قلبى عن البغضاء ، واصمت لسانى عن الفحشاء ، واخلص سريرتى وعلانيتى عن علائق الاهواء . واكفنى بأمانك عواقب الضراء ، واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، واعلانى موافقا لطاعتك** » .

يسأل العابد الله تبارك وتعالى أن يجعل سره معقودا على مراقبة الله واعلانه موافقا لطاعة الله .. وهذه الفكرة الاسلامية الخام ، سوف نعثر عليها فيما بعد مفلسفة عند حجة الاسلام الامام الغزالى فى استواء السر والعلن .

نريد أن نلاحظ ملاحظة هامة ..

نحن لم نزل نبحر فى بحار الحزن المغترب الخائف ..

وقد نما مقام الغربة التى تستهدف الآخرة عند سيدنا على زين العابدين ، وتسرب منه الى الحسن البصرى بعد ذلك .. يقول أبو طالب المكى فى قوت القلوب : « **كان الحسن البصرى اذا اقبل فكانما**

اقبل من دفن حميمه ، واذا جلس فكانه اسير قد امر بضرب عنقه ، وكان اذا ذكرت النار عنده فكانها لم تخلق الا له .. »

كان الخوف حالا من حالات العلم ..

كان الخوف من الله مقاما يقيم فيه العارف بالله ..

قال تعالى : « **ولمن خاف مقام ربه جنتان** » .

والحسن البصرى هو الذى ربط الخوف بكونه حالا فى مقام العلم تمكينا للوصول الى اليقين « **فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين** » ..

والطريق الى اليقين يمر بالخوف من الله تعالى ..

ويبدأ الطريق بالتوبة فالصبر .. والشكر .. والخوف .. والرجاء .. والتوكل .. والمحبة .

وقد سئل جعفر الصادق ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا ..

فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه ..

نفس السؤال وجه الى احد تلاميذه بعد ذلك فأجاب : لانكم تعرفون الله ولا تطيعونه ..

نفس السؤال تكرر بعد ذلك على تلميذ لتلميذه .

كان السؤال قد تحور هذه المرة ..

قيل له اننا ندعو فلا نجاب .. والله يقول ادعونى استجب لكم .

فقال : ماتت قلوبكم فى عشرة اشياء :

١ ــ عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .

٢ ــ وقرأتم كتابه ولم تعملوا به .

٣ ــ وزعمتم محبة رسوله وتركتم سنته .

٤ ــ وادعيتم عداوة الشيطان ورافقتموه .

٥ ــ وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ..

٦ ــ وقلتم نخاف النار ووهبتم انفسكم لها .

٧ ــ وقلتم الموت حق ولم تستعدوا له .

٨ ــ واشتغلتم بعيوب اخوانكم ونبذتم عيوبكم .

٩ ــ وأكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها .

١٠ ــ ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا .

فكيف يستجاب لكم ؟ ..

* استغرق الخوف من الله وقتا حتى تحول من الزهد الى التصوف وخلال هذا الوقت قدم الاسلام نماذج مثل عتبة الغلام لم يكن غلاما حين أطلق عليه اللقب ، ولا كان غلاما حين مات ، لقد تجاوز الثالثة والثلاثين مثل عيسى حين لقى ربه ..

انما سموه عتبة الغلام لأنه كان نحيلا متوسط القامة ، وكان فى العبادة غلام رهان ..

وقد استشهد عتبة وهو يغزو فى سبيل الله فى شمال الشام .. وجلس أصدقاؤه يذكرونه ويتحدثون عنه ، لعل الحديث يحييهم ساعة فى ملكوت السماوات فيستحثوا خطوهم الى الله ..

قالت جارته ام عطاء : رحم الله عتبة .. كان جارا لنا وكان هينـا كالنسمة .

وقال احمد بن زهير : كنا نطلب المنزلة فى نفوس الناس الا عتبة ، فقد كان يرى ابتغاء المنزلة عند الناس هو السقوط من عين الله .. وكان يفرح لما يرى من هوانه على الذين لا يعرفونه .. وكان الناس لا يلتفتون اليه لصغر حجمه .. ركبنا سفينة مع عتبة ، واضطربت السفينة من الرياح وجعلت تميل وتستوى ، فاراد الملاح ان يعدل جلوسنا فلم يجد فى عينه اهون من عتبة ، فدفعه فى جنبه وقال : استو يا هذا بازاء من بجوارك ..

واشرق وجه عتبة بالسرور .. وغمغم يقول لنفسه : **الحمد لله ان لم ير فيهم احقر فى عينيه منى .**

وقرأت ام عطاء قوله تعالى « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** » .

وحكت أم عطاء عن عتبة الغلام ..

كان يأخذ دقيقه فيبله فى الماء فيعجنه ويضعه فى الشمس حتى يجف .. فاذا جاء الليل اخذه وأكل منه لقما ثم يشرب قليلا من الماء ..

وقلت له : يا عتبة ، لو اعطيتنى دقيقك فخبزته لك .. قال : يا أم عطاء . الأمر اعجل من ذلك .. كسرة وملح تسد عنى كلب الجوع .

. . . .

كان عتبة الغلام متعجلا .. فعلى أى شىء ؟

ان دعاءه يستطيع ان يفشى لنا سره .

كان أعظم دعاء له « **اللهـم احشر عتبـة بين حواصـل الطير وبطون السباع ..** »

وقد استجاب الله دعاءه ..

والدعاء فى الاسلام مخ العبادة ، هو عقلها واداتها .. والأصـل ان

المسلم لا يحمل هم الاجابة . انما يحمل هم الدعاء .. يكفى ان يكون مؤمنا ويدعو حتى يستجيب الله لدعائه ..

ليست هناك مشكلة فى الاجابة ..

المشكلة كلها فى الدعاء .

« اذا الهمت الدعاء جاءت الاجابة معه » .

وهكذا دعا عتبة الغلام ..

لم يكن يدعو ان يجعله الله سيدا فى قومه ، او ثريا ، او ذكيا ، أو ملكا ، أو رئيسا يحكم ، لم يكن يدعو الله ان يحفظ صحته وحياته أو يبارك فى امواله وأولاده .. لم يكن يسأل الله لنفسه اى شىء .

خرج من ملك نفسه الضيق الى ملك الله الواسع .

لم يعد سجين مطالب البشر ، وهى مطالب مشروعة يستن الدعاء بهـا ..

لم يعد عتبة الغلام يريد لنفسه شيئا لقد احب الله لا الحياة ..
واحب الاسلام لا سلامته هو .

واحب ان ينشر الدعوة ولو مزق جسده فى سبيل الله ..
واحب ان تأكل جسده المزق هذه الطيور الجارحة وهذه السباع الجائعة .

ان عتبة الغلام لم يزل مستمرا فى العطاء ..

لا يقتصر عطاؤه على الجيش أو الحياة الاسلامية او مركز الاسلام الممتاز أو هيبته .

انما يمتد عطاؤه الى الطيور والوحوش .

يريد ان تمتلىء حواصل الطيور باجزاء من جسده .

ويريد ان تمتلىء بطون السباع بأجزاء من جسده .

انه يقدم بعد موته دليلا على كرمه .. فيجعل من جسده مائدة للطيور والحيوان .

حتى لو كانت الطيور جارحة .. وكان الحيوان وحشا .

اليس هؤلاء بعض الخلائق ..

فليعط الخلائق اذن حتى بعد موته .

ويسير عتبة الغلام قاصدا الشام ..

« يعرف ان حياته على الأرض مثل طائر عذب النغم وقف ساعة على غصن .. فغنى ثم طار » .

كان عتبة الغلام يريد ان يغنى بصوت له صليل سيوف تدافع عن الاسلام والانسان ..

وظل مسافرا حتى وصل الى شمال الشام . .

المكان : اسمه المصيصه ..

الزمان : بعد صلاة الظهر ..

فوجىء قادة الجيش بهذا الزاهد العابد النحيل الضعيف داخلا عليهم سألوه ! **ما جاء بك ؟** .

قال عتبة الغلام : جئت اغزو .. رأيت فى المنام انى أتيت اغزو فاستشهد .

قال مخلد بن الحسين : ما عن هذا اسأل ولكنا نصاول بنى الاصفر ، وهم قوم اشداء ، لا ينفع فى نزالهم شبح انضته العبادة والسهر مثلك .. ولا احسب ان عودك هذا الخفيف يستقر على صهوة جواد اذا كر به وفر ..

استمع عتبة الغلام لهذه الكلمات بما تضمه من سخرية خفيفة .. ونظر الى القائد العسكرى نظرة اصابت قلبه كأنها سهم .. وتلون وجهه وقال :

يا ابن الحسين . ليس العجب ان ينفر الهزيل الشاحب لقتال اعداء الله ، وانما العجب ان ينفر اليهم مشوش الايمان زائغ القلب والعقل ، وان النصر لايبطىء عن جيش من جيوش الله الا ان يكون فيه من غره شيطانه عن ربه ، يا ابن الحسين . لو اننا نقاتل القوم بمثل ايمانهم لكان من احمق الحمق ان نلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا كليل ..

ولكن شتان بين ايمان وايمان ..

ويارب نفس رمقت جلال الله فذهب عنها غرورها ، فلم تشهد الا فقرها اليه وعجزها بين يديه ، فأمدها بسر من بأسه ، وايدها بكوكبة من جنده ، فاذا هى فى الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لأن يثبت الكافر لجبل ينقض عليه اهون من ان يثبت لضربة من ضرباتها ..

يا ابن الحسين .. انك لن تنصر الله فى معركة حتى تنصره فى نفسك بتغليب أمره على هواك ، فان كنت فارس هذه المعركة فأنت فارس الاخرى باذن الله .. فانظر ماذا يغنى لحمك وشحمك اذا انت خذلته فى الأرض وجئت تطلب نصره فى الثانية .. وهو الذى جعل هذه بتلك جزاء وفاقا ووعدا حقا فى قوله سبحانه **« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم »** انتهى عتبة الغلام من كلامه لقائد الجيش .

قال مخلد بن الحسين : فوالله لقد انكسرت لما قال .. وكأنما اهدى الى نفسى فقلت له : يرحمك الله يا اخي .. انما كنت امزح . وحين رأى عتبة فى اجابة مخلد انه يتضعضع له حياء مما اتى .. انثنى يجبر ما انكسر من نفسه فقال عتبة : ان بسطة الجسم من اجل مواهب الله ، وانهـا لمن ملقيات الرعب فى قلوب اعدائه ، والمؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، وما غاب عنى والله ضعف جسمى وان ليس فيه ما يرهب عدو الله ، ولقد اهمنى ذلك ، (اقلقنى) وحدثت به نفسى فقلت حين نزلت حلب : اذا قصر جسـمى ان يرهب عـدو الله فلألقينهم بجواد يكون ارهب لهم من سرية ..

وقلت لبعض اخوانى اشـتروا لى فرسـا يغيظ المشركين اذ رأوه فاشتروا لى ذلك الجواد ..

اشار عتبة بيده نحو جواد عربى اصيل جواد حرب لا يفزعه صليل السـيوف وانما يرفع صـاحبه ليكون اقدر على ان يهوى بسـيفه على خصمه ..

. . . .

وانضم عتبة للجيش المحارب .

كانت هناك فترة ترقب وتأهب ..

كانت ساعة الهجوم لم تحدد بعد .

واكتشف الحرس الليلى للمسلمين ان عتبة الغلام يغنيهم عن السهر..

كان هو الساهر يوميا حتى اذان الفجر .. كان الحرس فى خيمته ينام اعتمادا عليه . كان يكفيهم مئونة السهر .

هو الساهر دائمـا ، اما قارئا للقرآن أو مصـليا او ذاكرا .. كان الجيش يضم يحيى الواسطى ايضا وهو من الزاهدين ورأى مخلد بن الحسين فى منامه ذات ليلة حلما .

رأى ان ملكا نزل من السماء ومعـه ثلاثة اكفان من اكفان الجنـة ، فالبس عتبة الغلام كفنا ، والبس يحيى كفنا ، والبس رجلا ثالثا كفنا ، فلما جاء الصباح واستيقظ فكر ان يحدثهم عن حلمه ، ولكن عتبة الغلام قال له :

يا ابا محمد .. انتظر . لا تحدث برؤياك الآن .

ودهش مخلد ، ولكنه سكت ..

كان القوم مرابطين ، ولم يكن هنـاك غزو تلتحم فيه الجيوش .. واستمر الحال على ذلك شهرا ..

وجاءت ليلة ، واحس مخلد ان احدا يحركه فى سريره ، فتح عينيه واستيقظ فوجد عتبة الغلام ..

سأل : ما حاجتك ؟

قال عتبـة : اجلس فقص على الرؤيا ، فما احسب الا ان قـد دنا الموعد .. وحدثه مخلد برؤياه ، وانصرف عتبة .. لم يكد ينصرف حتى نودى بالجهاد . وفزع مخلد الى جواده فأسرجه ، فلما بلغ باب القلعة كان عتبة قد سبقه اليه ..

وفتح القائد الباب وبدأ الهجوم الليلى يحكى مخلد القصة « بلغنا مكانا به بعض آثار العدو .. قلت : من يجيئنا بخبر هؤلاء .

وثب عتبة .. وقال : انا .

واختفى عتبة فى جوف الليل ..

« اذا ألهمت الدعاء الهمت الاجابة معه » .

« انا أحمل هم الدعاء لا هم الاجابة » .

« اللهم احشر عتبة فى حواصل الطير وبطون السباع » .

« اللهم ارزق عتبة اليوم شهادة فى سبيلك تقر بها اعين المسلمين »

لا أحد يعرف اى شىء كان يفكر فيه عتبة ..

كل ما راوه حصانه وهو يغوص فى قلب الليل الأسود ..

وسيفه وهو يرتفع كالقضاء والقدر ..

اسفرت المعركة عن قتل عتبة الغلام .. بعد ان روت الاساطير طرفا من شجاعته فى المعركة وعدد قتلاه من المشركين .. انطلق يصول فيهم ويجول بسر الله .. وايده الله بكوكبة من عنده ، فبدأ حصانه الأشهب مثل برق ينسف اشجار الغابة ويشقها ويشعل فيها حمرة النار والدم ، ثم استجاب الله دعاءه ..

كان قد الهم الدعاء فوردت الاستجابة .

وهكذا هز أحد الأعداء حربتـه ، حتى اذا رضى مـكانها فى يده ، ارسلها الى ظهر البطل فمرقت فى جوفه حتى أحس سنانها بين ثدييه ..

وصرخ يكبر الله هاتفا : فزت ورب الكعبة ..

وفازت الطير والسباع بعشائها ..

وبات كل الخلائق راضيا عن نفسه ..

سنجد صورة عتبة مكررة فى عمرو بن عتبة .. وهو ليس ابنا لعتبة كما يبدو من تشابه الأسماء . انما هو ابن امير ماسبذان وهو ابن امير حاكم ، وأبوه يريد ان يكون الأبن حاكما من بعده ، والأب لا يستطيع العثور على ابنه .. فهو اما ساهر يتعبد ، واما مسافر يغزو فى سبيل الله ..

أو هو على حد تعبير الاب « **كثير التجوال والترحال والسفر ، اذا أقام بيننا اقام كأنه غريب ، لا يأكل مما نأكل ، ولا ينام كما ننام ، ولا يأخذ فيما نأخذ،ونفسى تكاد تذهب من الرقة كلما رايته فى نحوله وعذابه ..** »

ويسوق الأب على ابنه بعض الزاهدين والصالحين والعلماء ليحدثوه أن يرفق بنفسه ، ويرد الابن على ابيه كأنما يضرع اليه .

— يا أبت .. انما انا عبد اعمل فى فكاك رقبتى فدعنى اعمل فى فكاكها . ويتركه الأب لشأنه ..

وكان شأنه يسيرا على نفسه .

كان لعمرو بن عتبة رغيفان كل يوم ، يتسحر بأحدهما ويفطر بالآخر واغناه عما للناس من اسرة وفرش وارائك ووسائد اغناه عن هذا كله حصير عتيق يريح عليه جسمه ساعة من الليل أو بعض ساعة .

وكانت له عبارة يقولها عن صديقه معضد العجلى « **لولا ظلما الهواجر، وطول ليل الشتاء : ولذة التهجد بكتاب الله عز وجل ما باليت ان اكون عشبا** » .

وقال أصحابه « كنا اذا خرجنا للعدو لا نتحارس بالليل لكثرة صلاة عمرو وقيامه » .

وحدث عمرو عن نفسه فقال : «سألت الله ثلاثا فاعطانى اثنتين .. وانا انتظر الثالثة . سألته ان يزهدنى فى الدنيا ، فما ابالى الآن ما اقبل منها وما أدبر ، وسألته ان يقوينى على الصلاة فرزقنى منها وسألته الشهادة فانا ارجوها » .

خرج يوما على بعض رفاقه فى جبة جميلة وعباءة حسنة ، واشار بأصبعه لموضع فى الجبة وقال « **ما احسن ان يتحدر دمى على هذه الجبة ويجرى عليها هنا وهاهنا .** »

والمعروف فى العقيدة الاسلامية .. ان قلب المؤمن حين يدعو ، انما يدعو بصدى ما يحسه من قرب مقادير الله .. وسرائر المؤمنين فى الأرض هى المرآة التى يتراءى فيها ما يشاء الله ان يظهره من مقاديره الموشكة .. وحين يدعو المؤمن بأمله الحقيقى ، يكون القدر على قيد خطوتين منه وقد حضر بما يريده ..

خرج عمرو مع صحابته ، فاستقبلهم واد ضاحك مبتهج طلق الهواء لين النسمات وتحرك فى نفسه وجد هائم .. وقال « **ما احسن هـذا الوادى .. ما احسن الآن لو ان مناديا نادى .. يا خيل الله اركبى** » .

وما اسرع ان نادى المنادى : ياخيل الله اركبى ..

يعنى يا خيلا ستجاهد فى سبيل الله فليركب فرسانك ..

وعلم ابوه بركوبه فى سبيل الله .. وارسل وراءه من يستدعيه ولم يصل اليه رسول ابيه الا بعد أن أصيب ..

كانت اصابة من الصعب ان تقتل .. اصابه جرح صـغير فجعـل يخاطبه :

« **ــ والله انك لصغير .. وان يشأ الله تعالى يبارك فى الصغير** » .

. . . .

وجاء المساء يجرر اقدامه المحطمة ..

وبارك الله فى الجرح الصغير ..

مات عمرو بن عتبة .

تحـدر الدم على عباءته فى نفس الموضــع الذى تمناه .. رزقه الله الشهادة التى كان ينتظرها .

. . . .

كان بحر الخوف يلد شجاعة هائلة .

اليس هذا قانونا من قوانين الايمان . اليس للايمان قوانين تتحرك وتعمل عملها فى النفوس ..

ان الخوف العظيم من الله ، يخيف الخوف ذاته من المؤمنين بعد ذلك .. لا يعود المؤمن يخشى بعد الله احدا ..

ان توحيد الخوف يعنى ان تقصر خوفك على شىء واحد ..
هو « ان تغضب الله تعالى » .

ومن هذا التوحيد تولد الشجاعة .. شجاعة الشهداء .

وقد كان معظم العارفين بالله شهداء .

ولم يكن التصوف بمعناه المعقد قد بدا فى الظهور ..

وقد استغرق ميلاده اكثر من مائتى سنة بعد هجرة الرسول ..
يرى ابن خلدون فى مقدمته ان الاسم لم يكن معروفا فى الاسلام قبل القرن الثانى ، ويقول ابن تيمية فى رسالته « الصوفية والفقراء » .

« أما لفظ الصوفية ، فانه لم يكن مشهورا فى القرون الثلاثة ، وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك . وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالامام أحمد بن حنبل وأبى سليمان الدارانى وغيرهما . وقد روى عن سفيان الثورى انه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى » .

. . . .

كانت أحوال المجتمع الاسلامى مهيأة تماما لنشوء التصوف حين نشأ ولهذا نشأ ..

تتباين آراء العلماء فى نشأة الزهد والتصوف ، يرى الدكتور المرحوم ابو العلا عفيفى أن العوامل التى ساعدت على نشأة الزهد فى الاسلام كانت أربعة ..

العامل الأول : هو تعاليم الاسلام نفسه ، فقد حث القرآن على الورع وهجر الدنيا وزخرفها ، ودعا الى العبادة والتبتل وقيام الليل والتهجد .

قال تعالى : « **واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا** » المزمل آية ٧

والعامل الثانى : فى نشأة الزهد فى الاسلام هو ثورة المسلمين الروحية ضد نظام اجتماعى وسياسى قائم ، ذلك أن المسلمين عندما اتسعت فتوحاتهم وكثرت غنائمهم أقبل الكثيرون منهم على الدنيا وجنحوا اليها ، وشجعهم على ذلك الثراء المفاجىء الذى إصابوه ، وكانت نتيجة ذلك ان قامت فى نفوس أتقيائهم ثورة داخلية محورها الصراع بين نفوس لا تزال على ايمانها القوى ، والدنيا المقبلة بمغرياتها ..

أما **العامل الثالث :** فقد كان الرهبنة المسيحية ، فكثيرا ما نقرأ عن زيارات العابدين من المسلمين للرهبان فى صوامعهم واخذهم عنهم بعض تعاليمهم من ذلك ما روى عن ابراهيم بن أدهم انه قال **« تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان » ..**

اما **العامل الرابع :** فكان الثورة ضد الفقه وعلم الكلام .. فان اتقياء المسلمين لم يجدوا فى فهم الفقهاء والمتكلمين للاسلام ما يشبع عاطفتهم الدينية فلجأوا الى التصوف لاشباع هذه العاطفة .

هذه هى العوامل الأربعة المسئولة فى راى الدكتور ابو العلا عفيفى عن نشوء الزهد فى الاسلام ، ويفرق الباحث بين الزهد والتصوف رغم اتصالهما اتصالا وثيقا ، فيرى أن مصادر التصوف الاسلامى خمسة :

١ ــ القرآن والحديث ..

٢ ــ علم الكلام ..

٣ ــ الافلاطونية الحديثة ..

٤ ــ التصوف الهندى ..

٥ ــ المسيحية ..

وسوف نلاحظ من هذا النظر ان الدكتور عفيفى لم يذكر الشيعة كمصدر من مصادر التصوف .. ولا أشار اليهم كمصدر من مصادر الزهد ..

ولو رجعنا الى الدراسات التى قام بها المستشرق نيكولسون ، وهى دراسات ترجمها الدكتور عفيفى نفسه ، فسوف نجد المستشرق يتحدث عن أصل التصوف ونشأته الأولى وتطوره فيقول تحت عنوان الشريعة والطريقة والحقيقة :

« فى القرآن عدد غير قليل من الآيات التى تدل على ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان على حظ من التصوف ، ولكن القرآن فى جملته شأنه فى ذلك شأن أسفار موسى الخمسة ــ لا يصلح ان يتخذ اساسا لأى مذهب صوفى ، ومع ذلك استطاع الصوفية ، متبعين فى ذلك الشيعة ، ان يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلات يلائم أغراضهم ، على أن كل آية ، بل كل كلمة فى القرآن تخفى وراءها معنى باطنا لا يكشفه الله الا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعانى فى قلوبهم فى اوقات وجدهم ، ومن هنا نستطيع ان نتصور كيف سهل على الصوفية بعد ان سلموا بهذا المبدا ، ان يجدوا دليلا من القرآن لكل قول من اقوالهم ونظرية من نظرياتهم آيا كانت ، وان يقولوا ان التصوف ليس فى الحقيقة الا العلم الباطن الذى ورثه على بن ابى طالب عن النبى ، ويلزم من هذا المبدأ ايضا ، مبدأ التأويل ، ان تأويل الصوفية لتعاليم الاسلام قد يأتى على انحاء وأشكال لا حصر لها ولا لعددها .. وربما ادى الى تناقض فى العبادات والمسائل العملية ، وكل ذلك مفروض صدقه فى النوع لا فى الدرجة ، لان معانى القرآن لا حصر لها ، وهى تنكشف لكل صوفى بحسب ما منحه الله من الاستعداد الروحى » ..

هذا نص كلمات رينولد نيكولسون فى كتابه « التصوف الاسلامى وتاريخه » ولقد كان مدهشا اشارته الى التصوف كعلم باطن ورثه على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان مدهشا أيضا أن يمر الدكتور ابو العلا عفيفى على هذه العبارة مرور الكرام فلا يتحدث عن على بن أبى طالب أو الشيعة فى حديثه عن مصادر التصوف ..

على أن ما لم يحققه الاستاذ قد حققه واحد من تلاميذه فيما بعد ، هو الدكتور كامل مصطفى الشيبى ، فقد تقدم برسالته لنيل درجة

الماجستير فى الآداب تحت اشراف الدكتور أبو العلا عفيفى ، وكان موضوع الرسالة هو « الصلة بين التصوف والتشيع » ونالت الرسالة الدرجة العلمية ، وطبعت فى كتاب ثم نظر الباحث فيما كتب وعاد يسد الثغرات ، ثم عاد يعيد النظر بالزيادة والنقص فأخرج لنا كتابه الذى استغرق ١٤ عاما حتى ظهر بشكله النهائى ..

والكتاب بالغ الأهمية رغم ان الدكتور كامل الشيبى لا يعتبره مرضيا لغروره ، وترجع أهمية الكتاب لكونه يدرس موضوعا صعبا ، وينتهى فيه الباحث لآراء هدفها هو الأمانة العلمية والرغبة المخلصة فى اكتشاف الحقيقة .

ولعل الجديد فى الكتاب ، الى جوار ما فيه من جهد علمى مخلص ، أنه استعان بعدد من مراجع الشيعة انفسهم ، فلم يكن ممكنا له وهو يدرس هذا الموضوع ان يتجاهل مؤلفات الشيعة ..

وفى بداية الكتاب يعترف المؤلف بصعوبة البحث ، فيقول ان موضوع الكتاب يدور حول الصلة بين التصوف والتشيع ، وليس من السهل تبين هذه الصلة بين العالمين ، لأن امورا قد جدت على كل منهما منذ بدا فى الاسلام حتى صار كل منهما مستقلا مستغنيا عن الآخر ..

ومن الغريب انه قد ظهر فى الحياة الاسلامية ثلاثة اتجاهات ما تزال ثابتة ظاهرة للعيان ، فقد نجد ناحية من العالم الاسلامى تسودها مذاهب اهل السنة ، ونجد مكانا آخر تسوده مذاهب الشيعة ، ونلمح مناطق ثالثة يغلب عليها التصوف مختلطا باحدى هاتين المجموعتين من المذاهب ، ومن الملاحظ (لم يزل النص للدكتور كامل الشيبى) ان المسلم يستطيع الاستغناء عن مذاهب أهل السنة اذا كان شيعيا ، وعن مذاهب الشيعة اذا كان سنيا .. ويستطيع كل من السنى والشيعى ، أن يحيا حياة اسلامية دون أن يتصل ذهنه بالتصوف ونظرياته وعملياته ، غير ان المتصوف لا يستطيع الاستغناء عن أحد هذين الاتجاهين الاسلاميين .. فلا بد ان تتصل الطرق الصوفية باتجاه من هذين الاتجاهين ، فمن المعروف أن النقشبندية مثلا من الطرق الصوفية السنية ، والبكتاشية من الطرق الشيعية ، فتدخل الأولى فى فرق أهل السنة ، والثانية فى فرق الشيعة .

وقد بين كثير من الباحثين القدماء اتصال المتصوفة باتجاه اهل السنة والجماعة ، وهو الاتجاه الوحيد الذى نعترف له بالصحة فى الاسلام ، وقال القشيرى فى رسالته التى وجهها للمتصوفة سنة ٤٣٠ هجرية .

« اعلموا ــ رحمكم الله ــ ان شيوخ هذه الطائفة ــ يقصد الصوفية ــ قد بنوا قواعد امرهم على اصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم

عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف واهل السنة من توحيد » .

وكان الجنيد يقول .. « **مذهبنا مقيد باصول الكتاب والسنة** » ..

ورغم ان معظم العلماء يرون أن التصوف كان ثمرة اسلامية لها اللون السنى دون الشيعى ، الا ان أحدا لم يلتفت الى علاقة التصوف فى بدئه بالتشيع .. وهذا ما دفع الدكتور كامل مصطفى الى دراسة هذا الموضوع فى كتابه ..

وسوف نعرض لوجهة نظره ثم نقول رأينا فيها بعد ذلك ..

الشيعة فى رأى ابى الحسن الاشعرى هم الذين شايعوا عليا رضى الله تعالى عنه ، وقدموه على سائر الصحابة .

وقد ذكر ابن حزم ذلك فى وضوح ورأى ان « **من وافق الشيعة فى ان عليا رضى الله عنه ـ أفضل الناس بعد رسـول الله فهو شـيعى وان خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون ، فان خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا** » ..

وابن حزم متعصب على الشيعة ـ كما هو معروف ـ ولكنه هنا يحدد ويجمع ويمنع ، فرأيه هنا شهادة باحث .

. . . .

هذا راى الشيعة كما يورده الدكتور الشيبى ، وهو راى يملأ المسلم بالحزن ، لأن المفاضلة بين الصحابة والغلو فى احدهم امر جر على المسلمين عديدا من الفتن والمحن ، وكان سببا فى انقسام المسلمين ، ودينهم دين توحيد لله وتجميع لعباده ..

ليس هناك مسلم سنى ينكر فضل على بن ابى طالب .. ومن ينكر فضل احد من صحابة رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقـد أثم اثما عظيما . لكن عدم انكار الفضل لا يعنى الغلو ، ولا يعنى اسباغ صفات القداسة على أحد من المسلمين ، ان عظمة الدين الاسلامى تتمثل فى انه دين توحيد يعرف حق الله عز وجل على عباده ، ولا يجعل لرسوله صلى الله عليه وسلم رغم انه رحمة للعالمين بنص الآيات .. لا يجعل له اى نوع من انواع القداسة ، انما هو رغم فضله البشرى انسان يمشى فى الأسواق وياكل الطعام ويجوع ويعطش ويمرض ويصح ويحيا ويموت .. شـانه شان البشر فى اى مكان وزمان ..

ان نصاعة التوحيد الاسلامى وبشرية الرسول صلى الله عليه وسلم آيتان من آيات الدين الاسلامى الحنيف ..

وهما آيتان يصمت بعدهما كل حديث او اجتهاد .

. . . .

مهما يكن من امر ..

لم يكن الواقع فى ظروف الفتنة الأولى مناخا هادئا للتفكير ، وكانت الأحداث والدماء تسدل ستارة على الهدوء العقلى والوجدانى اللازم لادراك الأمور .. ومن هنا تحول على بن ابى طالب كرم الله وجهه فصار ـ دون أن يعرف أو يقصد او يريد ـ فتنة كبيرة افتتن به الشيعة ، وغالوا فيه غلوا كبيرا ..

ويلفت الدكتور كامل مصطفى الشيبى الاذهان الى حقيقة قد تكون خافية وهو يبدأ بحثه فى الكتاب عن الامام على .

ذلك أن الامام عليا شخص له جانبان . جانب تاريخى يعرفه الناس وتتعرض له الكتب العامة .. وجانب روحى دخلت فيه اضافات قد تكون اسطورية ، ويبدو هذا الجانب عند الشيعة اولا ثم عند المتصوفة بعد ذلك ..

ويسمى الدكتور الجانب الأول بالجانب العام . والثانى بالجانب الخاص .

أما الجانب العام فمعروف خلاصته ان الامام على بن ابى طالب ولد بعد النبى بثلاثين سنة .. واسلم وعمره عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعد خديجة رضى الله تعالى عنها مباشرة ، وانه لم يعبد الأصنام قط لصغره وانه كان أقرب الناس الى الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكان ربيبه وكان خليفته على ودائعه وكان صاحب لوائه وكان خليفته فى اهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون من موسى بنص الحديث عن النبى نفسه ..

ومن المعروف أن النبى آخى بينه وبين على .. وقال فيه من كنت مولاه فعلى مولاه .. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد رأى الشيعة فى هذا الحديث ترشيحا له لتولى الأمر بعد النبى صلى الله عليه وسلم .. ولكن بقية المسلمين لم يوافقوهم على ذلك مستندين الى حديث آخر القاه النبى فى آخر لحظة من حياته ..

من المعروف أو المشهور ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى على « **انا مدينة العلم وعلى بابها** » ..

ايضا يروى عن على أنه كان مغاليا فى الزهد والعدل ، الى حد انه قسم رغيفا سبعة أسهم ، وروى ابو طالب المكى انه كان ازهد الصحابة .. وانه لم يترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من عطائه اراد أن يشترى بها شيئا لاهله .

هذه هى الجوانب العامة المعروفة عن على بن أبى طالب ..

أما الجانب الخاص الذى عنى به الدكتور بالمثل العليا والأوصاف والجوانب الروحية التى أضافها اليه الشيعة أولا ، ثم المتصوفة بعد ذلك حين جعلوا عليا مرجعهم وراسهم فى التصوف والزهد ..

ويرى الشيعة فى على ما يراه المسلمون فيه ، ولكنهم يضيفون اليه أشياء تميزه عن زملائه من الصحابة ..

يرى الشيعة انه لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوى بهم أحد ..

وفى التفسير المنسوب الى الامام الحادى عشر للشيعة يقول « **ان الله لما خلق آدم وسواه وعلمه اسماء كل شىء وعرض على الملائكة جعل محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين اشباحا خمسة فى ظهر آدم وكانت انوارهم تضىء فى الآفاق . الى آخره** » .

وينسب الشيعة الى على بن ابى طالب قولهم « انا آدم وانا نوح وانا موسى وانا عيسى انتقل فى الصور كيف اشاء من رآنى فقد رآهم » .

وتلك صورة تذكرنا بمقالة الحلاج المشهورة ..

فاذا ابصرتنى ابصرته وإذا ابصرته ابصرتنا

ويلاحظ الباحث كيف تلقف المتصوفة أمثال هذه النصوص واخذوا افكار الغلاة وجعلوها مستند طريقتهم ومثالا للنسج على منواله ..

وقد وردت عن على بن ابى طالب الوان من الحوار نسبها اليه كميل ابن زياد الزاهد الشيعى المشهور (المقتول سنة ٨٣) ..

قال على : الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال على : محو الموهوم وصحو المعلوم .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال على : هتك الستر لغلبة السر .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال على :نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره.

قال كميل زدنى بيانا ..

قال على : اطفئوا السراج فقد طلع الصبح ..

ويلاحظ الباحث امتلاء هذا الحديث بمصطلحات صوفية تجعل اختراع الحديث امرا مؤكدا .

. . . .

ايضا نسب الى على بن ابى طالب قول يوضح منهجه فى المعرفة .

قال : « **العقل لمراسم العبودية لا لادراك سر الربوبية ..** »

وهذا الحديث يعنى ان عليا يري أن الذوق هو المنهج الذى يصل به الانسان الى الحقيقة الالهية ، أما العقـل فهو الذى يستعمل فى ادراك الحلال والحرام وفهم العبادات وما جرى مجراها ..

أيضا روى عن‌على بن أبى طالب انه قال « **سلونى قبل ان تفقدونى فأنا بطريق السماء أعلم منى بطرق الأرض** » .

أيضا روى عنه انه قال « **ان أمرنا صعب مستصعب لا يحمله الا عبد امتحن الله قلبه للايمان ، ولا يعى حديثنا الا صدور أمينة وأحلام رزينة** ».

. . . .

لو نحينا جانبا ما نسب الى على بن ابى طالب .. ونظرنا الى شخصيته فسوف نرى أنه عاصر الفترة التى تحول فيها الاسلام من فكرة مثالية الى صراع عمل سياسى ، وقد وجد على بن ابى طالب نفسه مطالبا بأن يسدد الخطا وأن يدل على الحق ويخوف من المزالق . وان يقف وقفته الصلبة مدافعا عن الاسلام ..

ودفع دمه ثمنا لاسلامه وتقواه ..

وصار دمه بحرا تشرب منه انهار الصوفية ..

يلاحظ كتاب « الصلة بين التصوف والتشيع » ان كلام على بن ابى طالب يتداخل مع كلام اسلاف المتصوفة من الزهاد . وانه يتداخل مع كلام الصوفية أنفسهم ..

* واول نص يورده فى هذا المقام ما قاله عامر بن عبد قيس الزاهد البصرى (المتوفى فى خلافة معاوية) فقـد قال هذا الزاهـد : **لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا** .

وتلك عبارة وردت مسندة الى على بن أبى طالب .. وهى مأخوذة من الآية التى تقول « **لقد كنت فى غفلة من هـذا فكشـفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد** » .

* سمع سعيد بن جبير الزاهد المحدث (قتل بأمر الحجاج سنة ٩٤ هجرية) يقول لجماعة فى اعلى المسجد ليلا : **سلونى قبل ان لا ترونى ..**

وفى ذلك تكرار لعبارة على المشهورة « **سلونى قبل ان تفقدونى** » .

أيضا نسب لسفيان الثورى مقالة تشبه هذه المقالة .. أيضا نسب نفس القول الى جعفر الصادق .

❋ أما الحسن البصرى فقد قال معاصروه فى كلامه إنه مأخوذ لفظا ومعنى أو معنى دون لفظ من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ..

❋ روى عن سفيان الثورى (المتوفى سنة ١٦١ هجرية) وهو شيخ الزهاد فى الكوفة انه قال : **الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، وليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء »** ، وذلك متصل بقول على بن أبى طالب **ان اخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الأمل** .

❋ ورووى عن عبد الواحد بن زيد قوله : مثل المؤمن كالولد فى الرحم لا يحب الخروج ، فاذا خرج لا يحب ان يرجع ، فكذلك المؤمن فى الدنيا .

وذلك تعبير ضعيف عن قول على بن أبى طالب « **واعلموا انه ما من شىء الا ويكاد صاحبه ان يشبع منه ويمله الا الحياة** » .

❋ وترد لرابعة العدوية (المتوفاة سنة ١٨٠ هجرية) عبارة قالتها « **ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته فأكون كالأجير السوء .. عبدته حبا له وشوقا اليه** » ..

وقد وردت هذه المعانى فى عبارة على بن ابى طالب (وهى عبارة تنسب الى حفيده ابن الحسين على زين العابدين) ..

قال على : **ان قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وان قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وان قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الاحرار** » ..

❋ كان مالك بن دينار الزاهد البصرى (المتوفى سنة ١٨١ هجرية) يقول فى كلامه كثيرا من المعانى التى استمدها من على بن أبى طالب .. فقد قال لوالى البصرة وهو يقف وسط جنوده وابهته حين ساله : الا تعرفنى ؟ ..

قال مالك من اعرف بك منى . اما اولك فنطفة مذرة ، وأما آخرك فجيفة قذرة . وهذا الكلام يتصل بما قاله على بن أبى طالب « **ما لابن آدم والفخر واوله نطفة وآخره جيفة** » .

وكان عتبة الغلام ينظر الى قول على المشهور للدنيا « **قد هجرتك ثلاثا ولا رجعة لى فيك** » حين قال فى خطابه لحورية تخيلها « **طلقت الدنيا ثلاثا ولا رجعةلى فيها حتى القاه** » ..

وقال شقيق البلخى (المتوفى سنة ١٩٤ هجرية) اذا كان العالم طامعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل ؟ واذا كان الفقير المشهور بالفقر راغبا فى الدنيا والتنعم بها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج عن رغبته ؟ واذا كان الراعى هو الذئب فمن يرعى الغنم ؟ ..

وهذه العبارة الطويلة التى تضرب الامثال على اهمية الزهد وكونه قـدوة ، هـذه العبارة لخصت فى قول اسـند الى على بن إبى طالب **« ان الله أخذ على ائمة الهدى ان يكونوا فى مثل أدنى الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره » ..**

. . . .

يلاحظ كتاب الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصـطفى الشيبى ان التداخل لم يقتصر على ما أخذه الزهاد من أقوال على - وانما تعداه الى بناة التصوف ومؤسسيه ايضا ..

لقـد شرب كثير من الصـوفية من بحـر الامام على بن ابى طالب ، ووضعوا كثيراً من كلامه او (بتحديد ادق) وضعوا كثيرا مما نسب اليه من كلام فى عبارات جديدة من تأليفهم ، وكان مستواهم فى البلاغة والفن اقل كثيرا من مستوى الامام على ، فقـد كانت عباراتهـم اطول واقل حساسية ، وكان على بن ابى طالب مشهورا بالصمت ، فاذا تكلم أوجز الحكمة فيما يقول .

حين تولى الاشتر النخعى عصر عهد اليه على بن ابى طالب عهده المشهور الذى قال فيه « اذا أحدث لك ، ما انت فيه من سلطانك ابهة أو مخيلة (**يعنى اذا اغتررت وملأك الغرور**) فانظر الى عظمه ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك - فان ذلك يطامن من طماحك (يقلل من غرورك ويكف عنك غربك (يحول بين الغرور وبينك) ويفىء اليك بما عزب عنك من عقلك (يرجع اليك بما ذهب من عقلك) .

نفس هذه الفكرة تداولها الصـوفية .. فها هو ذو النون المصرى (المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية) يقول **« من أراد التواضع فليوجه نفسـه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته »** .

ونريد ان نلفت انتباه القارىء الى أن فكرة على بن ابى طالب بالدعوة الى التواضع هى احدى الافكار الاساسية للصوفية ، ولقد تناول الصوفية فكرة ضالة الانسان أمام الله وجعلوا منها جوهرا أساسيا من جواهـر أفكارهم ..

فالصوفى من لا يرى لنفسـه مكانة ولا مقاما ولا وجـودا أمام الله ، وشيوخ التصوف السنى كالجنيد يريدون من الصوفى أن يذهب ويضيع ويتلاشى ويعود الى الصفاء الذى كان عليه قبل ان يخلقه خالقه ، حين كان ذرة فى عالم الذر ..

والتصوف بمعنى تصفية القلب لله ينطوى على العبودية لله ، ومعنى

العبودية أن يسجد العبد لله هذا السجود المزدوج ، مرة بجسده ومرة بجماع روحه .

بل ان تواضع الصوفية يجعل هدف تجاربهم الروحية هو الفناء فى خالقهم . وهكذا أثر على فى الصوفية ..

فهم أحيانا ينقلون عنه نص معانيه بعد وضعها فى أساليب جديدة ، واحيانا يأخذون أفكاره الاساسية ويبنون عليها ابنية جديدة .

قال ذو النون المصرى « **ان الله تعالى انطق اللسان وامتحنه بالكلام وجعل القلوب اوعية للعلم** » .

وقال على بن ابى طالب **القلوب أوعية فخيرها اوعاها ..**

هذه الفكرة التى تتضمن ان القلب وعاء . جعل منها الصوفية مدارا من مدارات افكارهم .. وها هم يقولون « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية للذكر وجعل قلوب الزاهدين أوعية للتوكل ، وقلوب المتوكلين أوعية للرضا ، وقلوب الفقراء أوعية للقناعة وقلوب أهل الدنيا أوعية للطمع » .

واذا كان على بن أبى طالب قد ألمح بهجرانه للدنيا ، فهاهم الصوفية يصرحون بأنهم قد طلقوا الدنيا ثلاثا وهجروها هجرانا بلا عودة . ومثلما كان على بن ابى طالب يقسم الناس الى ثلاثة أصناف من حيث عملهم فيقول « **الناس ثلاثة فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق** » ..

فكذلك يفعل الصوفية ، وها هو ذو النون يقسم المعرفة الى ثلاثة أقسام « الأولى خط مشترك بين عامة المسلمين ، والثانية معرفة خاصة بالحكماء والعلماء ، والثالثة خاصة بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم » .

وقد بلغ ولع الصوفية بعلى بن أبى طالب مبلغا عظيما ، فنسبوا اليه اقوالا لم يقلها مثل « الصوفى من لبس الصوف على الصفا واطعم الهوى طعم الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا واستوى عنده الذهب والحجر ، والا فالكلب الكوفى خير من الف صوفى » .

ومن الواضح ان العبارة منحولة لأن لغة على بن ابى طالب لا تسمح له باستخدام هذا التعبير المتأخر « كانت الدنيا منه على القفا » .

ولم يتوقف ولع الصوفية به عند حد ..

اخذوا منه .. وزادوا فيما اخذوه منه .. ونسبوا اليه .. وقالوا فيه كلام حب عظيم ، ونسبوا علمه الى علم يشبه العلم اللدنى أو علم الاسرار ..

يصفه أبو نعيم فى الحلية فيقول :

« سيد القوم . محبوب المعبود .

باب مدينة العلم والعلوم ، وراس المخاطبات ومستنبط الاشارات . نور المطيعين وراية المهتدين ، وولى المتقين وامام العادلين وزينة العارفين ، المنبىء عن حقائق التوحيد المشير الى لوامع علم التفريد .. الى آخره » .

وهذه الاشارة الى التوحيد والتفريد تعنى علم الصوفية المخصوص .

يقول أبو طالب المكى « وكان عند أهل العلم ان علمهم (يقصد الصوفية) مخصوص لا يصلح الا للخصوص » .

ويرى السراج فى شرحه لتقسيم على بن ابى طالب للعلوم بعد أن تبنى هو الآخر تقسيما ثلاثيا للعلوم ..

يرى السراج ان أول العلوم علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود والأمر والنهى وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم وهو العلم الذى كان يعلم به حذيفة بن اليمان .. وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه أحد . وقد وضع السراج عليا فى المنزلة التى كانت لحذيفة .. بل انه وضعه بعد الرسول مباشرة لأن الرسول علمه سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك أحدا غيره ..

ويسند الصوفية الى على بن ابى طالب قوله « ما من آية الا ولها أربعة معان ظاهر وباطن وحد ومطلع . فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » .

ويرى الامام الجنيد ان الامام عليا قد أعطى العلم اللدنى . ويروى عن الجنيد انه قال : « رضوان الله على أمير المؤمنين ، لولا انه اشتغل بالحروف لأفادنا من علمنا هذا معان كثيرة » ثم يقارن الجنيد بين على والخضر ويجعلهما بمنزلة واحدة ويبين أن هذا العلم اللدنى حظى به الخضر بقول الله « وعلمناه من لدنا علما » .. ، وبهذه الرؤية كان الجنيد يعتقد ان علم على بن أبى طالب لم يأته تعلما ، وانما هو توفيق الهى حظى به .. ويأسف الجنيد لأن عليا اشتغل بالحروب ، ولولا هذا لاستفاد منه الصوفية وتعلموا الاسرار التى عرفها ..

وينبهنا نيكلسون الى ان التصوف ليس فى الحقيقة الا العلم الباطن الذى ورثه على بن أبى طالب عن النبى ..

ويرى ابن الفارض نفس الراى . فهو يقول فى تائيته الكبرى :

واوضح بالتاويل ما كان مشكلا   على بعلم ناله بالوصية

أما ابن عربى فهو يفسر النبأ العظيم فى قوله تعالى **« عم يتساءلون عن النبأ العظيم »** بأن النبأ العظيم هو القيامة الكبرى ولذلك قيل فى أمير المؤمنين على هو النبأ العظيم وفلك نوح « أى الجمع والتفصيل ــ باعتبار الحقيقة والشريعة لكونه جامعا لهما » .

أما جلال الدين الرومى فيقول فى على بن أبى طالب :

منذ كانت صورة تركيب العالم كان على ..

منذ نقشت الأرض وكان الزمان كان على ..

الفاتح الذى انتزع باب خيبر بحملة واحدة كان على ..

من كان هو الوجود ولولاه لسرى العدم فى الموجود اياه كان على ..

ان سر العالمين الظاهر والباطن الذى بدا فى شمس تبريز .. اياه كان على ..

وكلما تقدم الزمن ، كان على بن أبى طالب يتحول الى اسطورة عند الصوفية ..

لقد وصلوا الى القول بأن على بن أبى طالب لم يمت ، وانما رفع الى السماء كما رفع عيسى بن مريم وسينزل كما نزل عيسى .

وهذا نص يرويه الشعرانى عن ولى يحمل اسم على وفا ..

ووجدنا بعد القرن السادس والسابع صوفية يزيد من مقامهم انهم علويون كعبد القادر الجيلى والسيد أحمد الرفاعى والسيد أحمد البدوى وابو الحسن الشاذلى وابراهيم الدسوقى وعبد الوهاب الشعرانى واستاذ الشعرانى الشيخ على الخواص وابن قضيب البان الموصلى وغيرهم كثير ..

ولقد كان قتل على بن أبى طالب سنة ٤٠ هجرية ، وكان استشهاده رائعا ، فصار موته كحياته مرتين ، موتا طبيعيا عاما وموتا اسطوريا خاصا ، مثلما كان علمه علما طبيعيا عاما وعلما سريا خاصا « وقيلت فى موته اساطير كثيرة » ..

قيل انه حمل فى تابوت على جمل فضل الجمل طريقه ..

ويذكر ابن حجر عن ابن عساكر انه قال : « لما قتل حملوه ليدفنوه مع رسول الله ، فبينما هم فى مسيرهم ليلا اذ ند (تاه) الجمل الذى هو عليه فلم يدر ابن ذهب ولم يقدر عليه ، ولذلك يقول أهل العراق هو فى السحاب ، وقال غيرهم انه وقع فى بلاد طىء فاخذوه ودفنوه » وانكر البكتاشية هذا كله ، فهم شيعة وصوفية معا ، ولذلك قالوا انه بعث من جديد « وظهر ملثما على جمل وقاد جنازته بنفسه الى مدفنها » ..

وبهذه النهاية الفنية المسرحية ، يضع الصوفية على بن ابى طالب سيدا لهم جميعا .

يرى الدكتور كامل الشيبى ان عليا دخل التصوف حتى صار اساسا من أسسه لا يمارى فيه أحد ، حتى ان ابن خلدون يقول فى معرض تناوله تأثير الشيعة على التصوف أن الصوفية يلبسون الخرقة ، لان عليا رضى الله عنه البس الخرقة للحسن البصرى وأخذ عليه عهدا بالتزام الطريقة ..

. . . .

ما هى مسئولية على بن أبى طالب عن هذا كله ..

ما هى حقيقة نسبه للصوفية والتصوف ..

هل كان على بن أبى طالب عالما بالاسرار قد اوتى من العلم اللدنى كما أوتى العبد الذى يتحدث عنه الله تعالى فى قصة موسى والسفينة والغلام والجدار .. ؟

هذه كلها اسئلة هامة .

نعتقد ــ وهذا راينا الخاص ــ ان على بن ابى طالب لم يكن مسئولا عن دخوله عالم الصوفية والتصوف ..

فلم يؤثر عنه بسند معقول ما يؤدى الى القول بأنه كان يرى فى نفسه امتيازا خاصا او علما خاصا أوتيه من لدن الله ..

لم يكن لمدلول الصوفية والتصوف معنى فى ذهنه « لان التعبيرين نشآ بعد استشهاده بفترة » ..

لم يكن على بن ابى طالب رضى الله عنه كثير الكلام « انما كان دائم الصمت فان نطق طاوعته الحكمة » ..

لم يكن يعتقد أن قرابته من النبى تجعل له وضعا خاصا فى الاسلام ، وانما كان يعرف ان الفضل فى الاسلام للتقوى **« ان أكرمكم عند الله اتقاكم»** وكان رجلا تقيا بحق ..

وحين تقدم على بن أبى طالب لحكم المسلمين لم يكن يتقدم لانه قريب الرسول او من آل البيت ، وانما تقدم لانه راى فى نفسه القدرة والفضل لحكم المسلمين .. وكان قادرا وفاضلا ..

نريد ان نقول ان على بن أبى طالب ليس مسئولا عن الغالين فيه او المنتسبين اليه او الآخذين منه .. تماما مثلما كان عيسى ابن مريم عليه السلام بريئا ممن نسبوه الى الله بالبنوة أو الثالوث أو أى أسلوب .

والاسلام دين واضح .. ومن يعرف الاسرار عمد الى الصمت ، وهذا

شرط ورد فى القرآن الكريم عن العبد الصالح الذى يعتقد العلماء انه الخضر ..

من يعرف لزمه الصمت ..

ولقد كان على بن ابى طالب عارفا ، ولهذا لم يتحدث عن علم الأسرار « انما ضرب للمسلمين بسلوكه نموذجا راقيا لما ينبغى أن تكون عليه حياة المسلم » ..

وهو نموذج سرعان ما تناسى الناس وضوحه ، وان أفاضوا فى الحديث عما صمت هو عنه أو دثره بالكتمان ..

ان طبيعة السر فى الاسلام إنه سر .. لا ينكشف الا لافراد .. وعليهم بالصمت ، وبذلك يبقى للسر معناه ..

نحن نسلم جدلا بأن على بن أبى طالب كان يعرف كثيرا من الأسرار ، ولكن كيف نناقش ما صمت هو عنه ، أليس الأفضل ان ننظر فى حياته لنرى كيف عاشها ..

كانت حياة على بن أبى طالب باختصار .. محاولة رائعة لصب الاسلام فى القالب الذى أراده له الله والرسول ..

لقد أعطى حياته للاسلام والمسلمين ، وتكبر على الدنيا بجاهها ومالها، ورفض أن ينزل عن مبادىء الاسلام وهو يدخل صراعه الذى دخله « وبسبب نقائه ومثاليته هزم فى الصراع .. وكانت هزيمته نصرا هائلا للاسلام ، فقد كان مع الحق وكان الناس يعرفون انه على الحق ، وكان استشهاده من أجل هذا الحق اعلاء صارما لقيم الحق واعلامه ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم احب الخلق عنده ، والدليل على ذلك ان عليا سمى ابناءه بعد الحسن والحسين بأحب الأسماء اليه .. محمد .. ثم العباس ثم أبا بكر ثم عمر ..

وفى الوقت الذى كان الاسلام فيه ينتشر وكان الصراع على أشده حول الحكم ، كان على بن أبى طالب يقوم بالقاء محاضرات إسبوعية فى مسجد الكوفة لتوجيه الشباب الى حقيقة الاسلام ، وكان هذا يحدث مع ابن عمه عبد الله بن عباس .. وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التى ترعرعت وازدهرت بعد ذلك فى بغداد عاصمة العباسيين ..

ولقد كان فى موت على بن أبى طالب شيئا يثير الانتباه .. ومن المدهش ان هذا الشىء لم يزل موجودا ..

كان على بن ابى طالب يعرف حين خرج انه خارج ليقتل ، كان يتوقع

هـذه النتيجة ، أو كان يراها بقلبه ، ورغـم ذلك ، وربما ذلك ، وربما بسبب ذلك خرج ..

لقد أدرك على بن أبى طالب ان الاسلام الذى يمثله معاوية هو القشرة الاسلامية مع لب الكسروية والقيصرية ، قشرة اسلامية وجوهر رئاسى لا يعبأ بشىء سوى الرئاسة ..

وحين وقف ضد هذا كان يدرك انه سيقتل .. وقد أدان على بدمه هذا النظام الى الأبد .. ونبه المسلمين فى ذات الوقت الى أهمية الجوهر .. وكان موته فى حد ذاته كافيا لاعلان الحقيقة ..

لم يكن موته عاديا ..

كان كل شىء يجابهه يهدده بسحق طموحه ، ولم يكن طموحه شخصيا انما كان اسلاميا ، وادرك انه يجب ان يحدق فى الخوف دون خوف ، وصار شجاعا الى مقتله ..

ولقد ادرك على بن ابى طالب هذه الصفة الخاصة التى تثبت للشهداء، وهذه الطبيعة الخاصة التى يخلعها التاريخ على التضحية بالذات .. ولهذا خرج ولهذا استشهد ..

أراد بموته ان يحمى مبادئه ويزيد من جمع الناس حولها ، وأراد باستشهاده ان يعرف الناس ان الاسلام يستحق ان يموت من أجـله أمثال على بن ابى طالب وقد وعى المسلمون الدرس بعده ..

وبسبب عنفه فى الحق وحبه للاسلام .. غالى فيه الناس ونسبوا اليه ما لم يقله وتوسعوا فى ذلك ..

هذه هى مسئولية على عن التصوف ، وهذه نسبته الى الصوفية .. لقد صنع دون ان يقصد مثالا اسطوريا بالغ السمو .. كان فتوة فى حرية .. والفتوة تعبير يستدعى معانى القوة القادرة ، واكتشف النـاس فتوته ، وصار تعبير الفتوة من تعبيرات الصوفية .

جاء فى المنشور الذى أصدره الخليفة العباسى الناصر لدين الله حين اهدر الفتوة وجعل نفسه رأسـها « بسـم الله الرحمن الرحيم .. من المعلوم الذى لا يتمارى فى صحته ولا يرتاب فى براهينه ان أمير المؤمنين كرم الله وجهه هو أصل الفتوة ومنبعها ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها (وعنه تروى محاسنها وادبها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليـه دون غيره ينشب الفتيان) وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسـج الرفقاء والاخوان » ..

ومن المعروف ان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم آخى بينه وبين على بن أبى طالب ..

ويبقى سؤال ..

هل كان على بن أبى طالب عالما بالأسرار قد أوتى من العلم اللدنى كما أوتى الخضر ..

هذا سؤال نجهل الاجابة عليه بصراحة ..

لم يرد عن على ما يشير صراحة الى أنه قد أوتى من علم الأسرار اذا جاز ان يكون للاسرار علم .. اذ مفاد الاسرار ومعناها أن تظل خافية ..

لم يرد عن على ما يشير صراحة الى أنه أوتى من لدن الله علما ..

ربما كان الرسول يؤثره ببعض أسرار النبوة .. هذا محتمل وقائم، وربما كان الله يقذف فى قلب على بالعلم ، هذا محتمل وقائم ، ولكن هذا كله لا دليل عليه سوى الصمت ، ومن ثم تصعب الاجابة على السؤال، ولعلى أميل الى ترجيح الظن بأنه أوتى من هذا العلم الالهى .. لانه صمت تماما ولم يتحدث عنه ..

وتبقى اجابة السؤال مستعصية ..

لا نعرف ..

كل ما نعرفه أنه كان بحرا عظيما من البحار التى سقاها محيط النبوة.. ومن البحار تولد السحب والأنهار والبحار مرة اخرى .

على طريق الحياة ..

تمضى اعظم الشخصيات الانسانية وهى لا ترتدى سوى عباءة الفكر ، ولا تحمل فى يدها سوى شموع الحقيقة ..

وينسدل الظلام فتتحرك الأيدى الآثمة بالخناجر المسمومة وتضرب .. وتسقط الشمعة من يد حاملها ..

ويسيل الدم .. ويخطو أحد الشهداء خطواته الاخيرة من دنيا الباطل الى عالم الحق ..

هذه المأساة الانسانية تتكرر فى حياة النوع البشرى كثيرا ، منذ ان خلق الله تعالى آدم ، الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ..

لم يسلم الأنبياء وكبار العارفين منها .

ولقد كان عيسى عليه السلام موشكا على القتل لولا أن رفعه الله تعالى اليه . ومن المدهش ان الناس تشترك سواء بالصمت او خضوعا للمصالح الشخصية فى جرائم اغتيال هذه القمم الانسانية ، فاذا سقطت احدى هذه القمم ، بدات أنهار البكاء .. وبدأ الحزن المرير .. وبدأ تمزيق الوجوه والصدور ، وراحت الاساطير تعمل عملها بالاضافة

والحذف والتعديل والتبديل الى شخصية الشـهيد ، فاذا نحـن أمام شخصية أسطورية تختلف تماما عن حقيقة الشخصية الأصلية .

ولقد حدث شيء يشبه هذا تماما فى أيام الفتنة الكبرى ..

تقاعس الناس عن على بن أبى طالب واسلموه لسـيوف القتـلة ، وتقاعسوا عن الحسين بن على وأسلموه لسيوف الخيانة .

فلما ذهب الشهيدان الى الله ، نسجت الأسـاطير حولهما خرافات عديدة ، وبدأت حركة الغلو والغلاة ، فاذا النور الالهى قد تسرب من نبى الى نبى حتى حل فى جسد على ، واذا على لم يمت وانما هو حى يعرق تحت الدثار الثقيل ، الى امثال هذه الخرافات التى جاء الاسلام أصـلا لحربها ، وموقف الشيعة المعتدلين من الغلاة واضح وحاسم ..

قال الصدوق القمى اسـتاذ الشيخ المفيد .

« اعتقادنا فى الغلاة انهم كفار بالله جل اسمه » .

قالها الشيخ ثم قرأ قوله تعالى فى سورة آل عمران : **« ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يامركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ايامركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون »** .

ولقد أدرك على بن الحسين بن أبى طالب ان الناس ستلتف حوله وتحاول استغلال اسمه سواء فى الدعوة اليه أو الدعوة لخرافة الغلو .. أدرك هذا جيدا فابتعد تماما ..

لم يمكن لأحد من استغلال اسمه أو الدعوة اليه ..

اعطى ظهره للدنيا وانصرف الى العبادة ..

ادرك وسط جو الفتن والخيانة والدسائس والحمق وسائر الصفات الدنيوية ، ان مهمته ان يبتعد عن هذا كله ويصير نموذجا للاسلام الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان الحزن قد نسج له عباءة والقاها على كتفيه ..

قتل جده على بن أبى طالب وعمره سنتان .

وقتل أبوه الحسين فى كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة ..

وشهد بعينيه ـ وكان مريضا فى المعركة ـ مصرع اخوانه واعمامه .. وحفرت الأحداث الدامية فى نفسه نهرا من الحزن طالما فاض من عينيه . ثم انه شهد ما زاد حزنه أضافا مضاعفة .

راى الناس يبايعون ليزيد بن معاوية .. وعاصر ضرب الكعبة الشريفة بالمنجانيق .. وشهد عصر الحجاج فى حكمه الظالم للعراق ..

وعاصر حركات أغرقت العالم الاسلامى فى بحار من الدم ..

وشاهد بدايات حركة الغلو والغالين .. وادهشه ان الذين قتلوا اباه وجده او اشتركوا فى قتله او تقاعسوا عنه هم الذين ينسبون اليهما صورة ليست هى الصورة الحقيقية ..

ووسط سحائب الفتن قرر على بن الحسين ان ينأى بنفسه عن هذا كله .. لم يكن موقفه سلبيا ، ولا كان يهرب من معركة ، انما كان بموقفه يمثل الايجابية الاسلامية الرفيعة ..

كان ميدان المعركة قد تحول الى ساحة مضطربة من الاكاذيب والخيانات والغلو .. وكان المثل الاسلامى الاعلى الذى ابتعد من عيون المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابتعد بوفاة الصحابة الكرام ، كان هذا المثل فى حاجة الى البعث من جديد ..

وكان فى حاجة لأن يرى الناس هذا المثل حيا أمامهم .. وكان على زين العابدين هذا المثل ..

كان يكره أهل العراق ويحمل عليهم كثيرا لسببين .. الأول انهم اسلموا والده وجده للقتل ، والثانى انهم يغلون فى والده وجده وينسبون اليهما ما نسبه بعض اتباع الأنبياء السابقين لأنبيائهم من الوهية .

ورد فى طبقات ابن سعد ان نفرا من أهل العراق اثنوا عليه فقال لهم : « ما اكذبكم وما أجراكم على الله تعالى . نحن من صالحى قومنا وبحسبنا أن نكون من صالحى قومنا » .

ايضا كان حربا على كل الغلاة ، وكان يمقت الغلو ولا يحب أن يرفعه احد فوق منزلة أحد من المسلمين .

وقال يوما لمن زادوا فيه بالثناء « **ايها الناس احبونا حب الاسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا** » .

ونفى السمو عن نفسه ، وحين بلغته أنباء ما يقوله عنه أهل العراق اشار بيده الى العراق وقال : « ليس فينا ما يرمينا به هؤلاء » .

رغم هذا كله .. لم يسلم الرجل من الاذى الذى جاءه فى صورة الغلو والثناء الخرافى . كان على بن الحسين ابن اميرة فارسية من اميرات آل ساسان ، ونسب اليه البعض حقه فى حمل تاج العرب والعجم ، فقد كانت عقائد الفرس الدينية انهم ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم وجعلهم ظله فى الأرض ..

وهذه العقيدة الوثنيـة التى لم يكن عليهـا نزاع عنـد الفرس .. التصقت زورا وعدوانا بعلى بن الحسين ، فقيل انه يملك وحده حق حمل التاج ، لان امه هى الشهربانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس وابوه هو الحسين بن على .. ويبدو ان ما حمل القائلين بهذا على قولهم شـعر ابى الأسود الدؤلى :

وان غلاما بين كسرى وهاشـم لأكرم من نيطت عليـه التمائم

وحقيقة هذا الأمر ابعد ما تكون عن على زين العابدين .. فلم يعرف عنه طوال حياته اى اتصال بالموالى ، ولا كان فى تصرفاته ما يبدى اتجاها فارسيا لديه ، لقد بقى الرجل طوال حياته بعيدا كل البعد عن كل شبهة الحكم أو الرئاسة او رغبة فى الحكم او الرئاسة ..

كان الرجل زاهدا بحق ، ولم يكن زهده نابعا من هجران للدنيا ، فان المسلم الحقيقى لا يهجر الدنيا ، انما نبع زهده لسبب اخطر ..

كان يدرك ان وجوده فى هذا الجو من الفتن الطامية كفيل بأن يسىء الى الصورة الاسلامية الناصعة التى يمثلها ..

ولهذا ابتعد ..

ولم يسـلم رغم ابتعاده من كلام غلاة الشيعة الذين نسبوا اليـه ما لم يقله وما لم يكنه فى الحقيقة ..

ولكنه فعل ما ينبغى أن يفعله اى مؤمن يخشى الله عز وجل .

تبرأ من الغلاة والفتن ، وابتعد تماما عن مسرح الصراع الرهيب الذى بدا ..

كان يدرك بوعيه الاسلامى انه لا يأمن على القيم الاسلامية التى يمثلها لو دخل ساحة الصراع ..

وكان الصراع يومئذ يثير الدهشة مثلما يثير الحزن .

ان الغلاة من الشيعة يتحدثون بكلام لم ينزل الله به سلطانا ، والموالى من المسلمين يأخذون افكارا وثنيـة سـابقة ويطبخونهـا مع الاسـلام ويقدمون للناس هذا الطعام باعتباره ينتمى الى الاسلام .. والسياسة هى التى تحكم الساحة الاسلامية ..

والسياسة لها اساليبها الخاصة فى الحكم ، وخاصة اذا كان الساسة يأخذون بقول معاوية بن ابى سـفيان « ان لله جنودا فى العسل » يقصد ان العسل لو أضيف اليه السم لاغنى عن معركة كاملة ..

كانت الاغتيالات .. والحروب .. والدماء .. والاكاذيب .. والحزن

المبالغ فيه .. والحب المغالى فيه .. كان هذا كله يقف على مسرح الحياة الاسلامية ..

واذاً فمن حق زين العابدين ان يبتعد .. ليس هذا مجاله ولا مستواه ولا ميدانه ..

انصراف الرجل للعلم .. والعبادة .. زهد فى الدنيا بصورتها التى كانت عليها ، واى مسلم كان يتصرف نفس تصرفه لو كان فى عباءته ..

. . . .

تتهيأ الشمس للاختفاء وراء افق الصحراء ..

بعد قليل يبدل المغرب ثيابه ثوبا بعد الآخر ..

الشفق القانى يملأ أطراف السماء بلون يشبه لون دم الشهداء ..

زين العابدين يشق طريقه قاصدا المسجد لصلاة المغرب مع الجماعة .. لا يرتدى الصوف كالزهاد المتأخرين أو الصوفية فيما بعد ..

انما يرتدى عباءة ثمينة ، ويطل من وجهه نبل طبيعى لا يكون الا فى وجوه الصادقين .. يرفع عينيه الى السماء ويتأمل الأفق الدامى ..

ينقلب اللون بغتة ليوم كربلاء ..

كانت السماء والأرض يومها مخضبتين بدم الشمس ودم الحسين ويذكر اهل بيته الشهداء فيبكى ..

تنحدر دموعه على وجهه فى صمت نبيل مستسلم لقضاء الله وقدره .. ويسأله بعض اصحابه عن كثرة بكائه فيقول :

« لا تلومونى ، فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم انه مات ، وقد نظرت الى اربعة عشر رجلا من اهل بيتى يقتلون فى غزاة واحدة .. أفترون حزنهم يذهب من قلبى » .

هذه الاشارة الموحية الى يعقوب تفسر كلمته التى قالها فيما بعد ..

وصارت شعارا للعارفين بالله والصوفية « فقد الأحبة غربة » .

يكون الانس حين يكون فى الأرض من نحب .. فاذا كان حبنا فى الله ، وسقطت السيوف تحصد رجال الله ، وتصادف أن كان هؤلاء الرجال هم الأب والأخ والعم ، فمن الطبيعى ان يجتمع حزننا على القريب الذى غاب ، على احزان العقيدة التى توجه اليها الطعنات ، ويتكاثف الشعور بالحزن فى النفس ..

ويولد الاحساس بالغربة .. يؤدى فقد الأحبة الى الغربة ..

ذلك ان الحب يحتوى على شيء غامض يشبه السحر ، شيء يجعل للحياة مذاقا خاصا من الانس والبهجة ، هذه البهجة هى سطح البحر الأزرق الجميل الهادىء ، وليس هناك كنوز عظيمة تعيش فوق سطح البحر ، تختار كنوز المعانى ان تختبىء مع لالىء القاع تحت اعماق من المياه والصخور والمخاطر والضغط والمعاناة ..

وليس امام من يريد اكتشاف اللالىء الا ان يغوص نحو القاع ..

ولابد لمن يريد الحقيقة ان يترك سطح البهجة الأزرق اللامع ويمضى وراء الخوف حتى يحدق فيه دون خوف ..

ولقد دفع زين العابدين ثمن زهده ومعرفته ..

قاده الحزن العميق على حال الاسلام وغربته كمسلم الى حقيقة اليقين .. فكان مسلما يشرف بالاسلام ويشرف به المسلمون .

كان يدعو الله تعالى بدعاء وجيز يعبر عن مقام العبودية الذى يقف فيه « **اللهم كما اسات واحسنت الى ، فان عدت فعد على** » ..

وكان يبخل على نفسه واهل بيته ، فلما مات وجدوه ينفق على مائة اسرة من اسر المدينة الفقراء ، وظل ينفق عليهم سرا فلم يعلم بذلك احد الا بعد ان مات وجاءوا يبكونه ويسألون عن نفقتهم ..

وكان يرى ان صدقة السر تطفىء غضب الرب ..

وحين مات وجدوا بظهره آثارا تكشف عن حمله لأحمال الخير الثقيلة التى كان يضعها على ظهره ويحملها الى المساكين اثناء الليل .

وكان اذا نهض للصلاة اصفر لونه وتغير وجهه .. فسئل فى ذلك فأجاب انه ينهض للوقوف بين يدى رب العالمين ، ومن حقه ان يصفر لونه خوفا وحبا ..

ولقد روى سفيان الثورى شيخ الزهاد فى القرن الثانى ، ان رجلا جاء الى على بن الحسين فأخبره ان فلانا قد ذمك ووقع فيك .. فقال على بن الحسين : انطلق بنا اليه .. فانطلقنا معا وهو يظن ان على بن الحسين سوف ينتصر لنفسه ، فلما اتاه دعا له بقوله :

« **ان كان ما قلت حقا فغفر الله لى ، وان كان ما قلت فى باطلا فغفر الله لك** » ..

. . . .

وعاش على بن الحسين أو زين العابدين كما اشتهر حياة تفرغ فيها للعلم والعبادة ..

وتنسب الى زين العابدين الصحيفة السجادية التى تتضمن أدعية ومناجيات حفظها الشـيعة ونشروها ، وجاء فيها فى المقـدمة انها بخط الامام زيد بن على وباملاء أبيه زين العابدين ..

ويرى كثير من العلماء المدققين ان جزءا من الصحيفة السجادية صدر من زين العابدين .. ولكن الاضافة والاستطراد والتعليق والزمن قـد صيرها الى ما صارت اليه هذه الصحيفة ..

ونلاحظ مع الدارسين أن الادعية فى الصحيفة السجادية طويلة بعض الشىء ، وليس من طبيعة الدعاء أن يكون طويلا ، لأن ذهن الانسان لو انصرف الى محاولة تذكر الدعاء فسوف تتسرب منه معانيه كما يتسرب الماء من أصابع المرء ..

وفى القرآن ادعية كثيرة ، وسوف نلاحظ عليهـا الايجـاز العميـق الوافى بالغرض ..

والله تبارك وتعالى هو الذى يلهم الدعاء ..

وقد حدثنا الله عز وجل عن دعاء آدم وحواء حين أكلا من الشجرة المحرمة وعصيا الله ..

« ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وحدثنا عن دعاء ذى النون فى جوف الحوت .

« لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين » ..

وحدثنا عن دعاء المؤمنين المختصر :

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا » ..

ومعظم الأدعية التى أنتهت لايدينا طويلة .. ونحن نشك فى نسبتها اليه ونتفق فى ذلك مع شواهد الحال وطبيعة الدعاء ..

لكن فيها سطورا تضىء كالنجوم ولا تصدر الا من قلب زين العابدين .

« اللهم ان كنت عصيتك فانى قد اطعتك فى احب الاشياء اليك ، وهو الايمان بك تكرما منك لا منا عليك » .

. . . .

فى المدينة التى نورها رسول الله صلى الله عليه وسلم بامامة دولته ، توفى زين العابدين وترك ولده محمد الباقر .. الذى سيجىء من بعـده حفيده جعفر الصادق ..

والذى سيكون لكل واحد منهما دوره فى الزهد المؤدى الى التصوف .

انتهت أيام على بن الحسين او زين العابدين على مسرح الحياة .

ووقف ابنه المسمى محمد الباقر على المسرح .. والباقر ليس اسما من أسماء محمد ، انما هو وصف له ، كما كان زين العابدين وصفا لابيه ، وقد سمى محمد بالباقر اشارة الى انه يبقر العلم بقرا ، او يشقه شقا ويصل الى قلب الحكمة .. وقد مات الباقر فى الثانية والستين من عمره ، بعد أن صارت له الامامة ٢٤ سنة . ولهذا ترك علامة بارزة فى تاريخ الزهد الذى اعان على نشوء التصوف .. حين ظهر محمد البـاقر على مسرح الحياة ، كانت سماء الحياة ملبدة تماما تملؤها الغيوم الكثيفة ..

ان الصراع بين شيعة على بن ابى طالب والدولة الأموية لا يتوقف .. سواء بالانقضاض بالسيف أو الخروج بالكلام .. ورغم ان ابناء الحسين قد ابتعدوا تماما عن دائرة الصراع وانصرفوا الى العـلم ، الا أن أحزابا من الشيعة نهضوا لمقاومة الدولة بالسيف وخرجوا عليها بالقوة ..

وعلى المستوى الفكرى كان الصراع على اشده بين علماء الكلام وعلماء السنة ، وكان المعتزلة يرون تقديم العقل على النقل ، ويثيرون مشكلات تتصل بالحرية والجبر والقضاء والقدر ، ويتحدثون هل القرآن مخلوق أم لا ، ويدخلون الصراع حول صفات الله واسمائه ، وكان أهل السنة يقفون فى الطرف الآخر من الصراع ..

ومثلما ابتعد أبناء الحسين عن صراع السيف ، ابتعدوا أيضا عـن صراع الترف العقلى ، سئل محمد الباقر عن الجبر والاختيار فقال :

« ان الله أرحم بخلقه من ان يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها ، والله اعز من ان يريد امرا فلا يكون .. »

سئل : هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة :

قال : نعم .. اوسع مما بين السماء والأرض ..

وواضح من هذا النص ان الباقر لا ينفى ولا يثبت ، ولا يغلو ولا ينقص ، انما يقف موقف الوسط العدل من الأمور ، فهو ينفى أن يكون الانسان ريشة فى مهب الرياح بلا ارادة . وينفى ان يكون الانسان مطلق الاختيار فى الكون ، وبذلك يعيد المياه الى مجراها الأصيل ويضع قاعدة للاشاعرة فيما بعد .

نشأ محمد الباقر فى هـذا الجو الملبـد الملىء بالسـحاب والصراع والمفاجآت .. وانصرف تماما الى العلم والزهد ..

ترك كل الأمور التفصيلية التى يتقاتل عليها المسلمون .. واهتـم برحلة الانسان نحو الله تعالى **« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »** أيضا ابتعد الباقر عن الغلو وكرهه كراهية شديدة ، وكانت

الدولة الأموية تلعن على بن ابى طالب على منابر المساجد فى الامصار ، كجزء من خطة دعائية ضد الشيعة ، وغلا بعض الشيعة فكانوا يسبون عمر بن الخطاب وابا بكر الصديق كرد فعل لهجوم الدولة الأموية ، وبلغت محمد الباقر أنباء الشيعة الذين يسبون أبا بكر وعمر بن الخطاب ، واصدر تصريحه الشهير الذى يعيد فيه الأمور الى مجاريها ..

قال الباقر : **بلغنى أن قوما بالعراق يزعمون انهم يحبوننا وينالون من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ويزعمون اننى أمرتهم بذلك ، فابلغهم انى الى الله منهم برىء ، والذى نفس محمد بيده ، لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم ، ولا نالتنى شفاعة محمد ان لم اكن استغفر لهما** « يقصد أبا بكر وعمر » ..

وبهذه الكلمات يتبرأ الباقر من غلاة الشيعة ، ويرمى بالكفر من يسبون أبا بكر وعمر ، ويؤكد ان الأمور لو صارت اليه لقتلهم وتقرب الى الله بدمائهم ..

رغم اعتدال الباقر الشديد .. لم يسلم بعد موته من صب حياته فى قالب صوفى زهدى بحيث صار واحدا من الصوفية أو زاهدى الصوفية..

حكوا عنه ان دمعته لم تجف طوال حياته شأن أبيه ، وروى عنه إنه قال ما اغرورقت عين بمائها الا حرم الله وجه صاحبها على النار ، بل انه يقسم البكاء كما قسم المعرفة فيقول :

« فان سالت الدموع على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، وما من شىء الا له جزاء الا الدمعة ، فان الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو ان باكيا بكى فى امة لحرم الله تلك الأمة على النار .. »

والجديد الذى يضيفه الباقر أو يضيفه له معاصروه هو ربط الذكر الالهى بالبكاء .. يقول ان الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر .

ومن الصعب وسط جو الحياة المضطرب أيامها ان نعرف اليوم ماذا قال الباقر حقيقة ، وماذا تنسبه الناس اليه .. وسنجد هذه المأساة عالقة بكل الشخصيات الزاهدة التى نسبت الى الصوفية ..

وفى تصورى أن الباقر كان زاهدا فحسب ، وعباراته التى تدين الغلو والغلاة هى التى يتصور صدورها منه حقا ، لأنهـا تتفق مع روح الاسلام السنى ، أما ما أضيف الى شخصيته ونسج عنه من أساطير ونسب اليه من كلمات غامضة تدخل فى لب التصوف ، فأغلب الظن ان هذا كله منحول ومضاف اليه ..

وقد رويت عن الباقر حكايات تجعله كالخضر عليه السلام ..

قال ابن المبارك « توفى سنة ١٨١ » أنه قابل بين مكة والمدينة شبحا يلوح فى البرية ، سأله ابن المبارك من اين قال من الله ، قال الى اين قال الى الله قال علام قال على الله ، ويظل ابن المبارك يدقق فى السؤال حتى يكتشف انه يحدث محمد الباقر ، وبعد عدة ابيات ركيكة من الشعر يكشف الباقر عن شخصيته ويختفى فى ضباب الصحراء فلا يعلم ابن المبارك هل صعد الى السماء أم انشق عنه الهواء ..

ونحن نعرف الآن أن الباقر مات قبل صاحب القصة بخمسين سنة ، فهل كان ما رآه الراوى شبحا ام حقيقة ؟

واضح أن هذا الشبح ظهر فى مخيلة ابن المبارك الخصبة ولا اثر له فى الحقيقة . ومن هذه الأشباح التى تذهب وتجىء فى المخيلة ، تمتلىء كتب التصوف واخباره بالكثير ..

وهذا كله اختراع فنى لا يلزم احدا ولا يعبر عن حقيقة ..

. . . .

مات الباقر فلم يسلم من هذه العباءة الخرافية التى القاها غلاة الشيعة على صورته ..

وبرز الى المسرح ابن محمد الباقر جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب . وسمى جعفر بالصادق لصدقه ، وعلى عادة الشيعة صارت الصفة اسما ثانيا له .. فهو جعفر الذى يصدق اذا حدث أو عمل أو سكن أو تحرك هو جعفر الصادق اذاً ..

وكانت الظروف التى صاحبت ظهوره على المسرح اشد قسوة من ظروف ابيه محمد الباقر ..

كانت حركات العنف فى قمتها ، سواء على المستوى السياسى او الفكرى .. وهكذا عاصر الصادق حركة الغلو فى أعنف مراحلها ، فوقعت فى حياته حركة ابى مسلم الخراسانى وحركة عبد الله بن معاوية ، كما وقعت حروب مروان بن محمد وحركات الخوارج وحركات الزيديين ، والاصل فى حركات الزيديين ايمانها بقول زيد بن على امامهم الأول « **ما كره قوم قط حر السيوف الا ذلوا** » .. وهكذا خرج زيد على الدولة بالسيف فقتل فى الكوفة سنة ١٢١ هجرية ، وصلب بعد قتله خمسين شهرا عريانا ثم احرق كما يقول مروج الذهب .

وفى هذا الجو المضطرب الثائر ، تفرغ جعفر الصادق تماما للعلم ، وترك السياسة والملك لطالبيهما وما كان اكثرهم انصرف جعفر الصادق الى التأمل والزهد والقراءة والتدريس والذكر والعلم ، ومع الوقت صار

الرجل استاذا روحيا لجيله المعاصر .. وكانت كلماته فى العقيدة والاسلام بالغة العمق والاحكام والوعى معا ..

كانت الآراء متناحرة تتقاتل حول صفات الله والجبر والاختيار والقضاء والقدر ، وكان المجتمع يموج بتيارات ثقافية متعددة ، فقد انتشر الاسلام وبلغت امواجه أقصى شواطىء الأرض البعيدة ، ودخلت فى الاسلام أمم مختلفة لها تصورها وعقائدها واسلوبها فى الفكر ، كما صارت الفلسفة اليونانية جزءا من نسيج بعض العقول المسلمة ، وكان فلاسفة هذا الوقت العقلانيون هم المعتزلة .. واحتدم الصراع الفكرى بين أهل العقل والبحث والنظر وأهل التسليم والتفويض مثلما احتدم الصراع بالسيوف بين الخارجين على الدولة والمؤيدين لها ..

وسئل جعفر الصادق عن ارادة الله وارادة الفرد ، سئل عن الجبر والاختيار ، وقال كلمته البليغة :

« ان الله تعالى اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما اراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما اراده بنا عما اراده منا » .

وبهذه الكلمة يمتنع الجدل تماما فى الموضوع المتنازع عليه .. تسقط الدعوى والخصومة ولا يبقى غير جوهر الزهد الصافى ..

ان البحث فيما اخفاه الله عنا لا معنى له ، لأن هذا ما أراده بنا ، ولا حساب على هذا ، انما يكون الحساب على ما أراده منا من تقوى وعبادة وتوقير . ايضا اجاب جعفر الصادق على المتكلمين فى الله ، وكان المقصود علماء الكلام من المعتزله ومن انجر فى الصراع معهم من علماء السنة ..

قال جعفر الصادق : **« الكلام فى الله لا يزداد صاحبه الا تحيرا »** ..

وبهذه الكلمة الجامعة المانعة تسقط القضية والخصومة ولا يبقى الا ان ينصرف الناس الى العمل ..

ان الكلام فى الله لا يزيد صاحبه الا تحيرا ..

ما هو الاسلوب الذى يزيد من ثبات الثابتين اذاً ؟

الاسلوب هو العمل .. وليس الكلام ..

ومضى جعفر الصادق فى حياته كعالم وزاهد .. ويرى بعض الدارسين من المستشرقين انه كانت له مدرسة شبه سقراطية ..

وفى مسجد الكوفة وحده كان له تسعمائة شيخ من تلاميذه .. وكان من تلاميذه جابر بن حيان .. المشهور فى التاريخ بصنعة الكيمياء وتحويل

المعادن .. ولقد كان جعفر الصادق يرسم بكلماته عالما بالغ الشفافية والعمق ، وكان صورة رائعة من ابيه واجداده ، فهو يحافظ على الاسلام ويبتعد عن صراع الأفكار التى لا تزيد المرء الا تحيرا ، ويكف عن دس عقله فيما طواه الله واخفاه عن عباده كالغيب ..

وهو بذاته صورة للمسلم الذى يشرب من نبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثلما اضيف الى أجداده ونسج حولهم وقعت نفس الاضافات لجعفر الصادق . يروى الكلينى حديثا ينفى فيه جعفر الصادق علم الغيب عن الائمة ، ويقابله حديث آخر ينسب الى جعفر الصادق يقرر فيه « **ان الامام اذا أراد ان يعلم علم ، وان سليمان ورث داود ، وان محمدا ورث سليمان ، وانا ورثنا محمدا** » .

ويسأله احد السائلين عن العلم ، هل هو ما ورد فى الكتب السماوية وحدها فيكون جواب الصادق « **ليس هذا هو العلم ، ان العلم الذى يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة** » .

وقد انكر عمر بن الرياح امامة الصادق لانه اجاب عن سؤال واحد اجابتين مختلفتين وروى الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « **انا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم** » ..

ويبدو من هذا ان الصادق كان يكلم الناس على قدر عقولهم ، وهذا تقليد من تقاليد الاساتذة الموهوبين ، فان الاستاذ لو كلم الناس على قدر فهمه هو أو عقله هو فربما لم يفهم عنه أحد ، فربما ضاعت الفائدة فيما يقوله .

لا غرابة اذاً فى هذا ، انما تثور الغرابة مما يثبته بعض المؤرخين لجعفر الصادق ، بحيث يبدو فيه متناقضا مع احدى جوهريات الاسلام .. كمعرفة الغيب ، أن أحدا لا يعرف الغيب ، النص القرآنى على أن الجن لا يعلمون الغيب ، وعلى ان الملائكة لا تعلم الغيب ، وعلى أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ، فهل يقصد جعفر الصادق هنا هذا الغيب المحجوب او اسرار الله تعالى .. ؟

لماذا لا يكون ما يقصده جعفر الصادق هو غيب العلوم والعبادات ، وهذه امور لا بد ان يعرفها من كان استاذا مثله ، وربما كان العلم الذى اوتيه جعفر الصادق علما اكتسبه ، وربما قذف الله تعالى فى قلبه بنور علوم اخرى ، هذا كله جائز الوقوع ومحتمل ، أما اجابته اجابتين مختلفتين بحسب عقلية السائل مرة ، ومحافظة على التقية مرة أخرى .. فليس امرا بالغ الغرابة فى جو مضطرب يموج بالفتن كالجو الذى عاش فيه جعفر الصادق .. ولعل هذا كله يوضح ما قاله الصادق يوما « **وددت**

لو انى افتديت خصلتين فى الشيعة لنا ببعض لحم ساعدى .. النزق وقلة الكتمان » ..

ويبدو من ذلك ان التشيع كان قد دخل فى الطور السرى لاشتداد الفتنة ، ومهما يكن من أمر فان ما أضيف لجعفر الصادق وما نسب اليه من كلام كان شيئا ضخما ، لقد وصل بعض اتباعه من الجهلاء فى الرواية عنه والكذب عليه ونسبة ما لم يقله اليه مبلغا كبيراً .. وقد علل مصنفو الشيعة الأوائل سر تضعيف احاديث الصادق هذا التعليل المعقول ، قال الكشى :

« كان جعفر بن محمد رجلا صالحا مسلما ورعا ، فاكتنفه قوم جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر بن محمد ، ويحدثون باحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك ويأخذون منهم الدراهم » .

وهذا هو رأينا الخاص فى جعفر الصادق .

كان الناس يدخلون عليه فيحدثهم حديث الاسلام لا يزيد ولا ينقص ، فإذا خرجوا من عنده وانتشروا قال كل واحد ما فهمه أو قال كل واحد ما يريد قوله ونسبه الى الصادق على أنه حديث نبوى حدثهم عنه .

هذا الرأى الوحيد يفسر لنا سر تناقضات تراث جعفر الصادق .. كان الرجل مسلما صالحا ولكنه لم يسلم من الكذب عليه ونسبة الخرافات اليه ..

ولدينا منهج لا يفلت شيئا لمعرفة ذلك هل كان الصادق مسلما أم لا ..

كان الرجل مسلما عظيما .. اذاً فلا مجال للارتياب ، وكلماته تقاس بمعيار الاسلام الصحيح ، ما زاد عن ذلك نبرئه منه ..

ولسوف نجد فى سيرة جعفر الصادق نفس هذه الرقة والصفاء اللذين كانا سمة مميزة لاجداده ، فهو يقول عن الدموع التى يبكيها العبد فى سجوده لله :

« ما من شىء الا وله كيل ووزن الا الدموع ، فان القطرة تطفىء بحارا من النار ، فاذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قتر ولا ذلة ، فاذا فاضت حرمه الله على النار ، ولو ان باكيا بكى فى امة لرحموا » .

ويصطبغ زهد جعفر الصادق بصبغة علمية عميقة ، فهو القائل حين سئل عن المعروف **« لا يتم المعروف الا بثلاث ، تعجيله وتصغيره وستره »** وسئل الصادق بأى شىء يعلم المؤمن انه مؤمن قال : **« بالتسليم له والرضا فيما ورد عليه من سرور او سخط » ..**

وهو مسلم يلوم نفسه يوما حين حدثه احد جلسائه بأن جده شفيع الخلائق فقال : **« انى لاخجل من افعالى الى حد اننى استحى ان اواجه جدى يوم القيامة »** « يقصد رسول الله » . .

ونسب لجعفر الصادق انه كان يدعو نفس دعاء النبى الياس ..

اتراك معذبى وقد اظمأت لك هواجرى .. اتراك معذبى وقد اسهرت لك ليلى ، اتراك معذبى وقد اجتنبت لك المعاصى ..

ولسنا نعرف من اين عرف بدعاء النبى الياس ..

أشياء كثيرة لاتثبت للتمحيص ، واشياء تتفق مع روح الاسلام كقول جعفر الصادق :

« من خاف الله اخاف الله منه كل شىء ، ومن لم يخف الله اخافه الله من كل شىء » ..

ولقد كان هذا هو جوهر التوكل الحقيقى ، ومثال ذلك قوله ايضا :

« من اعطى ثلاثا لم يمنع ثلاثا ، من أعطى الدعاء أعطى الاجابة ، ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية » .

ومن كلماته الخطيرة الجامعة قوله : **« لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكن لا يبصرون » .**

حين مات جعفر الصادق .. ومر الزمن .. اعتبر اكبر مفسرى الصوفية ان جعفر الصادق هو امام التأويل الباطن .. واظهره الصوفية كأستاذ لهم وامام .. ومن تفسيراته الآية الكريمة التى تقول فى سورة الكهف : **« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا »** قوله لو اطلعت عليهم من حيث أنت لوليت منهم فرارا ، ولو اطلعت عليهم من حيث الحق لشاهدت فيهم معانى الوحدانية والربانية .

وهو يرى ان « يس » معناها : ياسيد .. ايضا يفسر **« والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى »** بقوله النجم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى اذا هوى اى اذا انقطع عن جميع ما سوى الله تعالى ، وما ضل هنا بمعنى ما ضل عن قربه تعالى .

ايضا يروى القشيرى عن جعفر الصادق فى تفسير قوله تعالى **« فاوحى الى عبده ما اوحى » .. قال : سر الحبيب مع الحبيب ، ولا يعلم سر الحبيب الا الحبيب » ..**

خلال حياة جعفر الصادق ، تنبأ يوما للمنصور بأن امر الخلافة سيكون للعباسيين بعد الأمويين .. وتنبأ بالقتل للثوار العلويين .. وحين

وقع الأمر الأول سماه الخليفة المنصور باسم جعفر الصادق ، وصار الوصف له اسما ..

والثابت تاريخيا ان جعفر الصادق كان يلبس الصوف ، وقد سئل مرة لماذا ترتدى الحرير ، فكشف عن ثياب الحرير فاذا تحتها ثوب من الشعر الصوفى الخشن .

وصار الصوف لباسا للزاهدين والصوفية ..

استغرق الصوفية وقتا حتى صار الصوف لباسا عاما لهم .. وينقسم العلماء فى لفظ الصوفية الى أكثر من فريق ، يرى بعضهم ان الصوفية لفظ مشتق من الصفاء ، ويستبعد البعض هذا الرأى ويروى أن الصوفية لفظ مشتق من الصوف ، ويرى البعض ان الكلمة اليونانية « سوفيا » بمعنى الحكمة هى اصل كلمة التصوف ..

وربما كانت الكلمة مشتقة من هذا كله .. غير ان هناك دلائل تشير الى ترجيح الصوف ..

نحن نعرف من تاريخ الأيام الأولى للاسلام كيف كره الاسلام ان يلبس الرجل الحرير ، ويبدو ان خشونة الرجولة فى الاسلام وترفعها على لبس الحرير كانا أمرين مستقرين تماما طوال بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوال فترة الخلفاء الراشدين ..

ويذكر ابن سعد ان النبى لم يسمح لأحد من الرجال بلبس الحرير الا لعبد الرحمن بن عوف وذلك لانه كان رجلا مصابا بمرض جلدى « او حساسية جلدية » . ومعنى هذا ان لبس الحرير كان محرما على الرجال فى بداية الاسلام ، ثم مر الوقت ، ووليت الدولة الاموية الحكم ، وعاد الحرير الى الظهور مرة أخرى ، ولم يكن الحرير صافيا هذه المرة انما كان منسوجا بالذهب والفضة ..

يلفت د . كامل الشيبى نظرنا لما كتبه المسعودى فى وصف سليمان ابن عبد الملك الذى ولى الخلافة سنة ٩٦ أى بعد موت الحجاج بأفاعيله فى الكوفة .. قال المسعودى « وكان يلبس الثياب الرقاق (يقصد الرقيقة الغالية) وثياب الوشى « يقصد الحرير الموشى بالذهب والفضة والقصب » وفى أيامه عمل الوشى الجيد فى اليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس الناس جميعا الوشى جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته الا فى الوشى ، وكذلك عماله وأصحابه ومن فى داره ، وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه الا فى الوشى حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدره وشى « صديرى منقوش » وعلى راسه طويلة وشى « غطاء راس موشى » وامر ان يكفن فى الوشى المثقلة » .

ما الذى نفهمه من سطور المسعودى .. ؟

واضح أن الترف كان قد تسلل الى قمة النظام الاسلامى الحاكم يومئذ .. وواضح أيضا ان لبس الحرير اصبح يمثل سياسة عامة اتخذتها الدولة الاموية وامرت بها خلفاءها وعمالها .. ولم يكن الخليفة يرضى بلبس شىء غير الحرير المنسوج بالذهب او الفضة أو القصب ، وصار هذا النموذج سائدا بالنسبة للحكام وعمالهم وخدمهم حتى الطباخين منهم ، فقد كان الطباخ الأموى يرتدى الحرير المنسوج بالقصب ولا يدخل على الخليفة أو أمير المؤمنين او الحاكم الأعلى الا وهو يرتدى هذه الثياب ، فترتاح عين الخليفة ولا يجرحها لبس الصوف الخشن ..

وكانت الكوفة مركزا من مراكز صنع الحرير فى العالم الاسلامى مع الاسكندرية ، ولا زالت كلمة « الكوفية » التى تغطى الرقبة مشتقة أصلا من الكوفة ومنسوبة اليها ، وأراد الزاهدون فى الكوفة ان يخترعوا اسلوبا للمعارضة لا تستطيع سلطة ان تؤاخذهم عليه .. **وهكذا لبس الزهاد الصوف ليميزوا انفسهم عن حكام الدولة الأموية** ، وكان لبس الصوف يتفق مع المعارضة السلبية التى يتخذها قادة الزهد وزعماؤه .. وقد رأينا كيف انصرف ابناء على بن الحسين بن على الى تحصيل العلم ونشره والبعد تماما عن السياسة وبحارها المضطربة ، وسلك الزهاد مسلكهم هذا ، فابتعدوا عن دنيا الفتن وأرادوا اظهار معارضتهم للحرير المنسوج بالذهب والفضة ، فارتدوا الصوف ..

ولم يكن الصوف يومئذ غالى الثمن كما هو اليوم ، ولا كان ناعم الملمس كما هو اليوم ، انما كان يصنع من صوف الحيوانات واوبارها ، فيجىء خشن الملمس رخيص الثمن ..

وفى كبار الزاهدين من كان يلبس الصوف ويخفى لبسه للصوف ، اتقاء للمظاهر الكاذبة ، وقد حكت لنا كتب القدماء ان سفيان الثورى لام جعفر الصادق على لبسه الحرير ، فأراه جعفر تحت الحرير ثوبا من الصوف الخشن أو الشعر الخشن .

وهناك من يعتقد ان الصوفية قلدوا الرهبان المسيحيين فى ارتداء الصوف ، وكان هؤلاء الرهبان يرتدون الصوف معظم الوقت ، ولكن الآراء تميل مع الكفة التى تقول ان لبس الصوف لم يكن تقليدا للرهبان ، وانما كان مقاومة سلبية للاتجاه الأموى الذى يحاول بث الرفاهية فى الملابس والمجتمع ..

وقد كان الصوف مادة لا يعبأ بها العرب ، انما كان شيئا مهملا لا قيمة له ولا سعر ، ولم يكن العرب يلبسون الصوف المنسوج حتى فى الشتاء ، انما كانوا يتغلبون على برد الشتاء بارتداء الفرو أو القمصان

المبطنة او المحشوة ، « وهو لباس من القماش يحشى القطن داخله ليقى من البرد » ..

وقد اهملت كتب العصور القديمة التى تتحدث عن ثياب العرب الصوف اهمالا يكاد يكون تاما ، ويبدو ان الصوف كان لباس الفقراء والمعدمين .. وحين ارتداه الزاهدون والصوفية ، كان هذا اشارة موحية بأنهم ينبذون المظاهر الأموية والترف السائد ، ويختارون طريق الفقراء ولباس الفقراء ..

ولسنا نعرف على وجه التحقيق من هو اول رجل اطلق عليه لقب الصوفى ، لقد اختلف الباحثون على ثلاثة اشخاص ، جابر بن حيان وابو هاشم الكوفى ، وعبدك الصوفى ..

اما **جابر بن حيان** فتلميذ جعفر الصادق ، او عبده كما ورد فى خلاصة الأثر ، وكان يلقب بالصوفى ، واختلف الناس فى امره ، فالشيعة يزعمون انه واحد منهم ، والفلاسفة يدعونه لانفسهم ، واهل صناعة الذهب والمعادن يرون انه كان واحدا منهم ، وكان جابر بن حيان يشتغل بعلم الكيمياء ، ولم يعرف عنه أنه كان صاحب مجاهدات فى الصوفية ، أيضا لم يعرف عنه انه نطق بأقوال الزاهدين . ويرجح فى حقه ان لقب الصوفية الصق به نتيجة أخذه من الحكمة اليونانية « سوفيا » وعلومها .

اما **ابو هاشم الكوفى** فقد كان معاصرا لسفيان الثورى ، ويقول عنه سفيان « **لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق الرياء** » .

ويورد بعض المؤلفين ان اول من تسمى بالصوفى هو **ابو هاشم الكوفى** سنة ١٥٠ وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ ..

ويعلق بعض المؤلفين على تسميته بالصوفى بأنه كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كما يفعل الرهبان ، ويقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى ، غير ان النصارى أضافوا الحلول والاتحاد الى عيسى عليه السلام واضافهما هو الى نفسه ، وكان مترددا بين هاتين الدعويين ، ولم يعلم على ايهما استقر فى النهاية « كما يورد صاحب طرائق الحقائق » .

والاخبار الواردة عنه مضطربة ، وتعدل فى اضطرابها الاخبار الواردة عن جابر بن حيان أو تزيد .. وينقلون عن جعفر الصادق انه قال فيه « انه فاسد العقيدة جدا وهو ابتدع مذهبا يقال له التصوف وجعله مقرا لعقيدته الخبيثة » .

اما **عبدك الصوفى** فكان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية صوفية تأسست فى الكوفة ، وقد كان عبدك هذا رجلا زاهدا منزويا توفى فى بغداد

سنة ٢١٠ تقريبا ، ويحدثنا عنه كتاب الرد على اهل الاهواء والبدع انه « اى عبدك الصوفى » كان على راس فرقة من الزنادقة ، واهم ما فى قصة عبدك الغامضة انه كان اول كوفى يطلق عليه اسم صوفى بعد انتقاله الى بغـداد .

ولعل من العسير اليوم ان نعرف اول من اطلق عليه لقب الصوفى ، او نقطع فى هذا البحر براى نطمئن اليه .. كل ما نريد ان نلاحظه جيدا ان هناك احتمالا قويا ومؤشرات عديدة لخروج التصوف من الكوفة .. وقد مر الزهد بمراحل عديدة حتى صار الى التصوف ..

وبعد ان كان الزهد حلا سعيدا ــ او حلا وحيدا بمعنى اصح ــ امام ابناء الحسين ، وبعد ان كان البكاء الطويل والدموع التى لا تجف هى اول بحار سبح فيها الزهد ، دخل الزهد طورا جديدا بدخول شخصيات جديدة فيه ..

وينسب لسفيان الثورى « الذى ولد سنة ٩٧ هجرية » بدء هذا الطور الجديد الهادىء .. فبعد ان كان الزهد سباحة فى الدموع وغربة سببها فقد الاحبة ، صار الزهد هادئا متأملا صامتا مفكرا ..

بدا الاتجاه الى التفكير بدلا من الهرب منه ..

وهكذا سئل سفيان الثورى يوما بعد ان ذاع واشـتهر صيته : **ارى الناس يقولون سفيان الثورى وانت تنام الليل ..**

يريد السائل ان يقول لسفيان انك لا تتعبد اثناء الليل عبادة تفسر شهرتك بالعبادة ..

وكان رد سفيان عليه وجيزا مختصرا وجامعا فى نفس الوقت .. قال سفيان **((اسكت .. ملاك هذا الأمر التقوى ..))** .

يريد أن يقول له ان اهم ما فى الزهد هو التقـوى ، وليس السـهر والعبادة وكان سفيان متفرغا للعلم ، ويبدو انه قطع شـوطا طويلا من العلم فصار اكثر ميلا الى الحزن .. وكان يؤثر عنه قوله :

((لو لم اعلم لكان حزنى اقل ..))

كان سـفيان الثورى سـائحا من السـائحين فى الارض .. وكانت السياحة فى الأرض يومئذ بدعة ، ولكن سفيان الثورى كان يسيح رغبة فى العزلة ، قاصدا التأمل والتفكر ..

كان رايه ان من خالط الناس داراهم . ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه ، فهلك كما هلكوا .

وكان سفيان زيديا ، وناصر محمد بن عبد الله بن الحسين الثائر بالمدينة ، وبايع له واكتسب عداء الدولة بهذا الموقف ، وكان السلطان يطلب راسه ، ولكن سفيان لم يشترك فى القتال لأنه آثر السلم كما يقضى بذلك مبدأ الزهاد .

ويبدو إن اختيار سفيان للزيدية جاء نتيجة اتفاق الزيدية مع تفكيره الحر فالزيدية لا تجعل الامام معصوما ، وهو ليس بالضرورة أعلم المسلمين أما التفوق فى العلم فبابه مفتوح للجميع .. من شاء أن يدخل دخل .

وقد دخل سفيان الثورى باب العلم وتفوق فيه ، وكان جريئا فى الحق ، فقد سلم على الخليفة المهدى تسليم العامة ، ورفض أن يظهر للسلطان اى مراعاة خاصة .

بعد سفيان الثورى جاء داود الطائى وهو رجل اتم تعلمه على يد شيخه فلما امتحنه الشيخ قال له معقبا : **بقى العمل به .**

يقصد الشيخ بقى العمل بما تعلمته ..

ونازعته نفسه الى الوحدة والعزلة ، واعتزل داود الناس واتخذ التبتل منهجا لسلوكه وحقيقة .. ولم يتزوج داود وبقى أعزب أربعة وستين عاما ، وترد فى سيرة داود اشارة إلى كونه شيخا لمريد آخر ..

كان الدور الذى لعبته الكوفة فى نشأة التصوف بارزا بغير شك ..

ان حركات الغلاة من الشيعة ، وحركات الامامة ، وفكرة الشيخ والمريد ، والمقاومة السلبية التى تأخذ شكل ارتداء الصوف ، والعاطفة الدينية التى كانت تستغرق الكوفيين ، واللون الشيعى الذى كان يصبغ الكوفة .. استطاع هذا كله ان يعين على نشأة الزهد وتطوره الى التصوف ، ولم تكن البصرة بمنأى عن تيارات تجعلها هى الاخرى حضانة للزهد المفضى الى التصوف ..

ورغم قرب البصرة والكوفة ، فقد كان بين البلدين تضاد قوى ، يتضح فى كون الكوفة مغلقة على نفسها ، وكون البصرة مفتوحة على التيارات الأجنبية الوافدة .. وكانت البصرة تسمى بأرض الهند ، كما كانت من الناحية الادارية مركز حكومة خراسان أيام الأمويين ، وعلى حين اتصفت الكوفة بالاصالة العربية ، اتصفت البصرة باختلاط الثقافات .. وقد كانت البصرة على تخوم فارس ، ولهذا نشأت فيها دراسات اللغة العربية كأصول الصرف والنحو لتعليم الاعاجم الداخلين فى الاسلام واصبح التلاميذ مع الوقت اساتذة لهذه العلوم ومن حملتها ، وظهر فى البصرة أول واضع للنحو العربى أبو الأسود الدؤلى .. وكان فى أساتذة اللغة العربية من يقوم بتفسير القرآن ، فيفسر للعرب باللغة العربية ، ويفسر للذين انحدروا من دماء فارسية باللغة الفارسية .

ولعل إطرف ماقيـــل عن الفرق بين الـكوفة والبصرة ما قاله كتاب مروج الذهب . فقد شبه البصرة بأنها عجوز أوتيت من الحلى والزينة ، أما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلى عليها ولا زينة ..

وكانت الحياة فى البصرة سهلة طيبة ، ويبدو ان الاسعار فيها كانت رخيصة حتى وصفها احد الكتاب بأنها خير البلاد للجائع والغريب والمفلس .. كما كانت الأحوال فيها أكثر استقرارا من الكوفة ، وكان أهل البصرة اكثر إموالا واولادا واطوع للســلطان ، ولعــل اخطر فرق بين المدينتين هو الفرق بين ضميرهما ، فعلى حين ظل الزهد فى الكوفة مشوبا بالتوجس والخوف استطاعت بذور الزهد فى البصرة أن تنتج لنا زهور الحب ..

وكان جو الكوفة مليئا بغبار المعارك التى ادت الى عكس النتائج التى يريدها الكوفيون ، ولهذا لم يستطع الزهد الكوفى أن يخــرج من نطاق الخوف الى نطاق الحب ، فقد كان ضمير الكوفة مثقلا بالاثم الذى يعانيه اهلها ، وكانت خطيئة الكوفيين تتصل بخيانة المبادىء والتخلى عن المثل العليا عندما تحين ساعة الجد والقتال ، اما البصرة فكانت ذنوبها فردية لا تتصل بخيانة المبادىء أو الكبائر المتصلة بالمثل العليا ، ولهذا قطعت البصرة المسافة بين الخوف والحب إسرع من الكوفة ..

كما ان تشيع الكوفة كان يلتصــق بآل البيت ، وكانت خيانتهم لآل البيت هى السر فى عدم استطاعتهم الارتفاع بحب آل البيت الى الله ، على عكس البصرة التى لم يكن لها ارتباط شيعى بامام يفترض فى اتباعه أن يعتبروا حبه جزءا من عقيدتهم .

وكان الحسن البصرى هو مؤسس مدرسة الزهد فى البصرة ، وكان الرجل زاهدا يصدر عن روح الاسلام الحقيقى ، وقد ولد الحسن البصرى فى المدينة وحفظ كتاب الله فى خلافة عثمان وسمعه يخطب مرات ، وكان أبوه من الاسرى ، ولم يكن عربيا ، ويقال انه ولد على الرق ، وكانت أمه خادمة لام سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يسلم الحسن البصرى ، وقد نسب الى اسم المدينة التى اشتهر فيها علمه وزهده ، لم يسلم من اساطير الصوفية فهم يحكون عنه انه اطلع على الاسرار الدينية وعلم الباطن ، ومهما يكن من امر فقد كان الحسن زاهدا رقيق القلب بالغ الحساسية عميق الحزن ..

كان اذا اقبل فكأنما اقبل من دفن حميمه .. واذا ذكرت النار . فكأنما خلقت من اجله ، وكان يقول **ان طول الحزن فى الدنيا بمثابة تلقيح للعمل الصالح** . وحين سئل عن سر أحزانه قال :

« ان المؤمن لا يسعه سوى الحزن لانه بين مخافتين .. ذنب قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، واجل قد بقي لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك . وكان الحسن البصرى يلبس الصوف .. »

وكان الحسن البصرى يبكى اذا نصب قامته للصلاة فى جوف الليل .. وكان المجتمع البصرى مليئا بالذنوب والانحلال الخلقى .. من مواخير منصوبة اثناء الليل ، وحقوق منهوبة فى النهار المبصر ، كما اشار الحسن البصرى الى الشذوذ الجنسى الذى كان منتشرا فى البصرة ..

وطوال حياة الحسن البصرى كان الزهد لم يزل يسبح فى مياه الخوف .. وحين جاء عامر بن عبد الله بن عبد قيس .. كان هذا ايذانا بخروج الزهد من منطقة الخوف من الله .. الى منطقة الحب لله عز وجل ..

كان عامر أول زاهد تخلص من أحزانه وهمومه واغرق نفسه فى بحار الحب حين قال :

« احببت الله حبا سهل على كل مصيبة ، ورضانى بكل قضية ، فما ابالى ما اصبحت عليه » .

وخرج الزهد من حدوده الضيقة التى تحاصرها الاحزان والبكاء الى عالم أكثر رحابة .. وادعى الى التفاؤل ، وأعقد وأكثر تركيبا ..

ذلك عالم الحب ..

وبدأ الزاهدون يتجهون الى الله بالحب .

قال الزاهد : **يا اخوتاه هل فيكم من احد لا يحب ان يلقى حبيبه ، الا فاحبوا ربكم وسيروا اليه سيرا كريما .**

وجاء عتبة الغلام فكان اكثر اندفاعا فى الحب واقدر على التعبير عنه فى قوله : « ان تعذبنى فانى لك محب ، وان ترحمنى فانى لك محب » وقال : العرس فى الدار الآخرة ، اشارة الى انه لا يفكر فى الاعراس التى تنعقد على هذا السطح الترابى للارض ..

وبدات الكلمات التى تربط الزهد بالحب تطفو على سطح الحياة ..

وقال القائل : **« والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » ..**

ولم يعد الخوف من الله تعالى هو الذى يحكم قلوب الزهاد والصوفية ، ولا صارت الرغبة فى الجنة او الخوف من النار هو السر فى التقوى .. صار الحياء من الله تعالى وحبه حبا خالصا لوجهه هو المسيطر على القلوب .. ودخل الزهد فى مياه التصوف بهذه العاطفة القوية ..

وبدات بحار الحب عند الصوفية تستكمل شكلها من أمطار الزاهدين القدامى ودموع الخائفين .

ومع القرن الثالث للهجرة .. كان الاحساس بالاسلام قد صار احساسا معقدا مركبا كما تقول بلغة الفن ..

لم يعد هو الطاقة الدافعة المؤثرة التى تستولى ببداهتها على الروح ، انما صار مؤسسات تلاحمت مع الواقع بثقافاته المختلفة ورؤاه المتنوعة .. وكان بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغ الشفافية والصفاء ، ورغم عمقه العظيم ، كانت العين تستبين فى قاعة المسك ولآلىء المحارات .. ولم يكن ممكنا ان يغرق أحد فى هذا البحر ، بعد ان ابلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة الله ، وصار القرآن الكريم هو سفينة نوح التى ينجو من يلوذ بها ، ولا يخشى اللائذ بها من أمواج العواصف او امواج الزمن ..

ولم يكد هلال القرن الثالث الهجرى يستكمل استدارة القمر حتى كان الوضع قد تغير ..

لم يعد بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف عن قاع المسك ولآلىء المحارات ، قد اريقت فى هذا البحر الكريم دماء اهل بيته ، وتصاعد ريح المسك من دم الشهداء المراق ، واخترع الحب الذى ينقصه النضوج كلاما كثيرا نسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منه برىء ..

ومن الطبيعى ان حركة الوضع فى السنة ، أو الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونسبة الاحاديث اليه ، نشطت مع نشاط الفتنة وانقسام الفرق واقتتال المقاتلين ، ومن المدهش ان الحديث المتواتر عن رسول الله هو الحديث الذى يقول فيه :

ـ من كذب على عامدا متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ..

ورغم هذا النص الحاسم الذى يتوعد الكاذبين على الرسول ، فقد نشطت حركة الكذب ووضع الاحاديث ، كما كان الناس اذا استحسنوا قولا نسبوه للرسول ، كما كان الوعاظ يحكون الحكايات الطويلة المؤثرة ذات المضمون الوعظى وينسبونها للرسول ، وزاد ركام الاحاديث المنسوبة للرسول .

ونشط اليهود الذين اعتنقوا الاسلام الى وضع الحواديت والاساطير والحكايات الخرافية التى عرفت باسم الاسرائيليات وكان هدفها تحطيم الاسلام من داخله كقنابل الأعماق ، وراحت كل فرقة تأخذ من هذا الركام ما يتفق مع أغراضها ..

ومع القرن الثانى للهجرة كانت كلمة الزهد قد صعدت لبؤرة الشعور ، ومن الغريب ان هذه الكلمة لم ترد فى القرآن الكريم غير مرة واحدة فى قصة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى « **وشروه بثمن بخس**

دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .. وليس لها هنــا كما يقول نيكولسون أى معنى صوفى ، وانما هى مستعملة فى مقام اللوم والتأنيب ، ولكن كلمة التبتل وهى أقدم من كلمة الزهد ، وردت فى القرآن فى قوله تعالى « **واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا** » سورة المزمل ، والمراد بهــا نوع من انواع العبادة التى أمر بها الله ، كما ان السياحة فى الأرض وردت فى القرآن الكريم لقوله تعالى « **التائبون العابدون الحامدون الســائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف** » سورة التوبة ..

ايضا وقف القرآن الكريم ضد الرهبانية ، ووصفها بأنها بدعة إبتدعتها المسيحية .. قال تعالى « **ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله** » ..

ايضا صرح رسول الله صلى الله عليه وســلم بأن الاســلام يخلو من الرهبانية « **لا رهبانية فى الاسلام** » .

ويخطىء نيكولسون حين يتصور ان فى المسلمين الأوائل من سلك هذا الطريق ، ويحتج بما جمعه جولدتسهير من طائفة من الأمثلة على نمــاذج كانت معاصرة للنبى او قريبة من زمنه ، عرفوا بالتكفير عن معاصيهم بهذه الطرق ..

من هؤلاء بهلول بن ذؤيب الذى خرج الى جبل بجوار المدينة ، ولبس لباس الشعر الخشن وربط يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد وجعل يصيح « يا رب » انظر الى بهلول يرسف فى الأغلال » ..

وكذلك أبو لبابه حين ندم على خيانة ارتكبها ، فقد ربط نفسه الى عمود فى مسجد المدينة وبقى على هذه الحال حتى ايقن ان الله غفر له ، وهناك انواع اخرى من أساليب الندم والتوبة كانت متصلة بشعائر الحج الى البيت الحرام ، فكثيرا ما ذهب الحجاج الى مكة مشاة حفاة الأقدام ، أو طافوا بالكعبة وهم مقودون كالجمال بحلقات فى أنوفهم ، وقد سمعنا بحجاج قطعوا على أنفسهم عهد الصمت وان أبا بكر ابطل هذه العــادة واعتبرها من اعمال الجاهلية .

هذا ما يسوقه نيكولســون فى الدلالة على وجــود الزهاد فى العصر النبوى ، وليس هذا التصور فهما سليما لما حدث ، فان هذه النماذج القليلة التى أوردها المستشرقان لم تكن نماذج للزهد ، وانما كانت نماذج للندم النابع من معصية مؤقتــة ، وكان يزول بزوال اســبابه ، ولم يكن الرسول يتدخل فيه لمعرفته صلى الله عليــه وسلم ان هــذا ندم مؤقت سرعان مايزول بقبول التوبة ، وليس زهدا منظما له طقوس وتقاليد ، وليس رهبانية لها قوانينها الحاكمة ..

. . . .

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا ..

اذا كان هذا الندم البالغ الذى يأخذ شـكل تعذيب النفس ليس هو الزهد الذى جاء به الاسلام .

فما هى نوعية الزهد الذى حمله الاسلام كعقيدة .. اذا سلمنا جدلا بأن الاسلام حمل الزهد فى ثنياته كعقيدة ..

. . . .

سنبدأ برأى الاستشراق اولا .. ثم نعرض لرأى احد الدارسين العرب ثم نقول ما نعتقد انه وجه الصواب فى الرأيين ..

يقول نيكولسون فى كتابه « التصوف الاسلامى وتاريخه » ..

انفرد القرن الأول فى الاسلام بالعوامل الكثيرة التى شجعت على ظهور الزهد وانتشاره ، فالحروب الاهلية الطويلة الدامية التى وقعت فى عهد الصحابة وبنى أمية ، والتطرف العنيف فى الاحزاب السياسية ، وازدياد التراخى والاستهانة فى المسائل الخلقية ، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون ارادتهم وآراءهم الدينية على خيرهم ممن اخلصوا فى الاسلام ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية ((الثيوقراطية)) التى حاول المسلمون ارجاعها ، كل هذه عوامل حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها ، وحولت انظارهم نحو الاخرة ووضعت آمالهم فيها ، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة ، وانتشرت على مر الأيام ، فكانت زهدا دينيا خالصا فى بادىء الأمر ، ثم دخل اليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية الى أقدم صورة تعرفها للتصوف الاسلامى ، وظلت هذه الحركة تحمل طابع مذهب اهل السنة الدقيق طيلة حكم بنى امية ، اى نحوا من قرن من الزمان .. وكان القائمون بها من أشهر انقياء المسلمين ، بل كان كثير منهم من القراء واهل الحديث وعلماء الدين ، ومن هؤلاء جميعا استمدت قوتها وشبابها ، واشهر شخصية فى الزهد تمثل روح العصر الذى نتكلم عنه هو المتكلم المعروف الحسن البصرى (توفى ١١٠ هجرية) ، والذى يعتبر مؤسسا لمدرسة البصرة فى الزهد والتصوف .. وتدل اقواله واقوال غيره من أوائل المسلمين بوجه عام ، دلالة لا تدع مجالا للشك على ان العوامل التى دفعتهم للزهد هى :

اولا : الرعب الذى ألقاه القرآن فى قلوبهم من هول يوم القيامة وعذاب النار ..

ثانيا : ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصى ، مما دعاهم الى قضاء حياتهم فى التوبة والاستغفار .

قال سفيان الثورى (متوفى سنة ١٦١ هجرية) ما اطاق احد العبادة ولا قوى عليها الا بشدة الخوف ..

انتهى راى نيكولسون ، وهو راى توافقه على اسبابه .. ولكننا نرى نتيجة مضطربة اعظم الاضطراب متهافتة اشد التهافت ..

ان الرجل يورد اسبابا حقيقية يستمدها بأمانة من المحيط الخارجى الذى إحاط بالاسلام ، ولكنه يقفز — فى الظلام الى نتيجة مفاجئة ، فيرى ان هناك دلالة لا تدع مجالا للشك فى سببين نشأ منهما الزهد .. هما :

١ — الرعب الذى القاه القرآن فى قلوبهم من هول يوم القيامة .

٢ — ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصى ..

وهذان السببان داخليان تماما ، ولا علاقة لهما بظروف الاسلام الخارجية ..

ولقد اخطأ المستشرق حين تصور ان القرآن يلقى الرعب فى قلوب المسلمين ، كما انه اخطأ حين تصور ان الغم والحزن نتجا من تمزق المسلمين بين رعب التخويف وسوء الحال ..

ان هذا التصور الاستشراقى يجعل القرآن اداة تمع لقوى الانسان وطموحه ، ويجعله سلاسل تكبل انطلاقه ..

وهذا التصور ليس صحيحا لحسن الحظ ..

ان القرآن — بكل آياته المرعبة التى تخوف من عذاب النار — ليس موجها الى المسلمين ، انما هو موجه للكافرين ، وليس للمسلم الموحد بالله ان يخشى النار ، لانه ليس مقصودا بها ، كما ان القرآن لا ينشىء فى نفوس من يقرؤه اى غم أو حزن ، بل لعله ينشىء عكس ذلك تماما ، ولو كان صحيحا ما يذكره المستشرق من تكبيل القرآن للمسلمين وتخويفه لهم ، ما انتشر الاسلام بالسرعة التى انتشر بها ، ولما اخضع له الحضارتين الكبيرتين فى هذا الزمان البعيد .. ان القرآن صنع للمسلمين أجنحة من الأمل والاشراق طاروا بها فى سماء الحياة ، على حين قعدت بقية المبادىء بأصحابها واخلدت بهم الى الأرض .. ولم يكن القرآن يحمل الى النفوس دفعات من الغم والحزن نتيجة الشعور بالمعاصى ، لأن الله تبارك وتعالى نص فى القرآن الكريم على قبول توبة التائبين ، كما نص على أن الله تعالى « **يغفر الذنوب جميعا** » ، كما نص على ان الله عز وجل « **لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** » كما نصت أصول العقيدة الاسلامية على أن الاسلام يجب ما قبله ، ويلغى تماما كل شرك او كفر كانا قبله ..

من أين يجىء الغم والهم اذاً ، ومن اين يأتى هذا الرعب الذى يزعم نيكولسون ان القرآن القاه فى القلوب ..

وفى بيان حب الكافرين أو المشركين لعقائدهم ومبادئهم ، اشار القرآن الى حقيقة جوهرية غابت عن العالم الباحث ..

قال تعالى « **والذين آمنوا اشد حبا لله** » ..

وقال تعالى فى بيان حقيقة الصلة بين المسلمين الموحدين بالله وخالقهم الأعز الأكرم « **يحبهم ويحبونه** » ..

فأشار سبحانه وتعالى الى أن حقيقة الصلة بالله هى الحب .. لا القهر .. وهى الاكرام .. لا الخوف ..

وعقيدة هذا شأنها لا تحمل رعبا ولا هما ولا غما ..

. . . .

ولننظر الآن فى رأى احد الباحثين من العرب .. يقول الدكتور كامل الشيبى فى التفرقة بين زهد الاسلام الأول والزهد المنظم الذى نادى به زهاد الكوفة والبصرة والشام وصار مقدمة للتصوف . .

سنرى ان الاسلام كان من أصول الزهد الأولى ، ذلك ان الاسلام قد جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية ، وقد كان صبغ الاسلام دعوته بالزهد والتقشف هو العلامة المميزة له عن النظام القرشى فى مكة والشعار الذى يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون والعبيد حول النبى ويدخلون فى دين الله أفواجا . ذلك ان الاسلام لم يكن منجما من الذهب ولم يكن شركة لها اموال وتجارة ، وانما كان دعوة تهدف الى اقرار مثل من العدالة والمساواة لم تكن موجودة ، ولو استندت الدعوة الى النظام السائد وأشبهته ما رأينا المستضعفين والفقراء والعبيد انصارا له ، ولكان حركة انقلاب يقصد بها الاستيلاء على السلطة ، ولهذا عجزت قريش عن تحطيم الاسلام المكى ، وكانت مقاومته محاطة بالاشواك . وقد كان الزهد الذى اصطبغ به الاسلام مانعا لارستقراطيي قريش من الدخول فيه وتقويضه ، فقد كانت ضريبة دخول الغنى فى الدعوة ان يخرج عن امواله وان يساوى زملاءه فى الفقر ، والأمثلة على نزول المسلمين الصادقى الايمان عن ثرواتهم مشهورة ، وهذا ابو بكر وعثمان من الأمثلة الناصعة على ذلك ، ولعله ليس من الغريب ان نجد حركة الزهد فيما بعد تعكس لنا هذه الصورة ذاتها بنزول محمد بن سوقه الزاهد مولى بجيلة ، عن مائة وعشرين الف درهم من أمواله ليدفع بها البلاء عن اهل الكوفة .. وبهذا يتبين لنا أن الزهد صورة أصيلة من صور الاسلام ، وفقرة هامة فى منهجه التطبيقى ، اريد به نزول القادة الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم ، فاصطبغ زهد الاسلام بصفات الداخلين فيه من الفقراء والعبيد ، فكان

المسلمون الأولون وحتى خلفاءهم يلبسون اللباس الخشن ويتناولون الطعام البسيط ولم يكن ذلك منهم نوعامن العبادة الزائدة او شيئا مضافا الى الايمان المتميز ، وانما كان من طبيعة الاسلام التى دخلت نفوسهم وتقمصتها .

ولعل ابدع مثال ضرب للتدليل على هذه الحقيقة ما أورده ابو طالب المكى من انه « لما جاء عبد الله بن عامر بن ربيعة فى بزته الى ابى ذر رضى الله عنه وسأله عن الزهد واخذ يتكلم فيه جعل ابو ذر يضرب به فى كفه ثم أعرض عنه ولم يكلمه ، فغضب ابن عامر وكان قرشيا شريفا وشكاه الى ابن عمر رضى الله عنه فقال له : هذا ما فعلته بنفسك ، تأتى الى ابى ذر فى هذه الثياب وتسأله عن الزهد .

وهكذا اوضحت صراحة ابى ذر معنى الزهد وحكت لنا قصته الحقيقية وأوضحت حقيقة الملبسين بالاسلام من الارستقراطيين القدامى الذين جاء الاسلام لمحقهم » .

انتهى كلام الدكتور الشيبى ، ورغم ان فيه جزءا كبيرا من الصحة ، الا اننا لا نستطيع موافقته على النتائج القاطعة التى ينتهى اليها دون معاودة الروية ..

ليس صحيحا ان الاسلام جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية.

الصحيح ان الاسلام كان دعوة حضارية لتصحيح صورة البشر عن الله عز وجل .. وكان رسالة الهية ترسم للبشر طريق الخلاص الروحى والاجتماعى ، واذا كانت الارستقراطية القرشية ستقف ضده ، فالذنب ذنبها أنها تقف ضد حضارة الانسان المؤيدة من الله ..

لكن الاسلام لم يات ليمحق أغنياء مكة أو الارستقراطية القرشية ، بهذا المفهوم الضيق يتحول الاسلام الى ثورة تشبه ثورات الاشتراكية التى يقوم بها الفقراء ضد الأغنياء مدفوعين — ومعهم كل الحق — بدوافع اقتصادية . نحن نرفض هذا التفسير الاقتصادى لنزول الاسلام ، كما نرفضه لتفسير زهد المسلمين ، كما نرفض تفسير المستشرق النفسى الخاطىء لزهد المسلمين ، ونرى ان الاسلام لم ينزل لضرب اغنياء مكة أو الارستقراطية التجارية فيها ، فهؤلاء كانت تكفيهم ثورة يقوم بها الفقراء والجياع ، ولا يستلزم القضاء عليهم ان ينزل الله تبارك وتعالى رسالة هى آخر رسالاته الى البشر ، هذا تضييق لنطاق الاسلام وحصر لميدانه.

ايضا لم تكن ضريبة الدخول فى الاسلام ان ينزل الغنى عن أمواله ويخرج من ثرائه ، لم يكن هذا النزول عن الثروة شرطا للدخول فى الاسلام ، انما كان نتيجة تترتب على فهم حقيقة الاسلام . وفرق بين

المعنيين بعيد ، لان القهر متصور فى الحالة الأولى ، بينما الحب هو الدافع فى الحالة الثانية . ايضا لم يكن نزول قادة الاسلام الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم كما يقول الدكتور الشيبى ، إنما كان نزول القادة لمستوى الفقراء حياء من الله تعالى ورغبة فى كسب رضائه سبحانه ..

لم يكن الزهد فى الاسلام تكتيكا يقصد به ضرب مجموعة من الأغنياء ، كما لم يكن تكتيكا الفرض منه اقناع الفقراء بأننا منكم ومعكم ، انما كان الزهد فى الاسلام جوهرا أساسه الحياء من الله تعالى .. فلا يأكل المسلم وجواره مسلم جائع ..

ولا يرتدى المسلم ثيابا ثمينة وجواره مسلم عار اما الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله من المسلمين .. أما هؤلاء فقد وردت فى حقهم آيات تسلكهم مع الكافرين وتجعل لهم امتيازا إرهب فى العذاب .. فان الذهب والفضة التى ادخرت ولم تنفق فى سبيل الله ، قد تحولت يوم القيامة الى هذا الفيب المروع الذى يطلعنا عليه الحق ..

قال تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

. . . .

نفهم من هذا ان اكتناز الذهب والفضة ليس من طبيعة المسلم .. لأنه وقف لنمو المجتمع الاسلامى وحبس للمال الذى هو ملك الله تعالى وعدم انفاقه فى خير المسلمين . وليس هذا من قيم المسلم ..

الزهد اذاً طبيعة وجوهر من جواهر الاسلام .. ولكنه ليس هو الاصل المنشىء لنزول الاسلام ، انما هو عنصر داخلى من عناصر القيم فى هذا الدين ، وهو عنصر ظهر فى بداية الاسلام ظهوره الطبيعى ، وكان جمالا يضاف الى جلال الاسلام ، فلما انحرف المسلمون كان طبيعيا ان ينحرف الزهد ويولد فى شكله الفنى الجديد الذى نعرفه باسم التصوف .

كان انحراف الزهد عن طريقه وسيره فى طريق التصوف مسألة طبيعية اقتضتها عشرات العوامل المختلفة ..

كما كان الطريق الجديد ممهدا لهذا التحول .. وبغض النظر عن الظروف الموضوعية التى ساهمت فى ميلاد التصوف ، فهناك ظروف شخصية كانت تكفى وحدها لميلاده .. هذه الظروف هى اختلاف مشاعر الخلق وطباعهم لقد خلق الله تعالى وجوه الخلق وليس فيها وجه يشبه

الآخر ، وصور النفوس أشد تنوعا من صور الوجوه . نحن نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق الناس سواء فى العقول او المشاعر أو القلوب أو الاحساس بالأشياء ..

نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق انسانا يشبه انسانا آخر فى تكوينه النفسى إو اسلوبه فى الاحساس ..

صحيح ان بين الناس إشياء عديدة مشتركة ، لكن الحس الداخلى يختلف من انسان الى آخر ..

فى الناس المعتدل .. وفيهم المتطرف ..

وفى الناس من ينمو عقله الفلسفى ، وفيهم من ينمو وجدانه الروحى ، وفى الناس ذو الطبيعة السوية ، وفيهم ذو الطبيعة الفنية ، وتطلعنا الدراسات الحديثة فى تكوين الفنانين على أنهم من طينة تختلف كل الاختلاف عن طينة البشر العاديين ، ان الاعتدال الذى يميز الانسان السوى أو العادى يخنق الفنان ، وعلى حين يؤمن الانسان العادى بالحياة الوسطية المعتدلة ويعتقد ان خير الأمور الوسط ، يرى الفنان أن التطرف مبدؤه ، وهو لا يفتعل ذلك افتعالا والا كان كاذبا ، والأصح أنه يولد بهذه الطبيعة التى تظهر نتيجة الثقافة وقوى البيئة ..

والى جوار الانفعالات العنيفة التى تشتعل فى روح الفنان ، يملك الفنان رؤية تختلف عادة عن رؤية الانسان العادى ، ويملك الفنان هذه القدرة على الانتقال من أقصى اليمين الى أقصى اليسار دون جهد ، ويختار الفنان دائما أن يحيا فى قلب الغلو ، والمبالغة ، والاخطار ، والقلق .. وهو مسير فى اختياره لأن قوى داخلية تختار له وتفرض عليه .. ولو ركدت حياة الفنان واستقر وعثر على الجنة فانه ينتهى كفنان .. ولعل الفرق بين الفنان ورجل الشريعة هو الفرق بين رابعة العدوية مثلا وفقيه مثل إحمد بن حنبل ..

كان أحمد بن حنبل فى محنته خلال السجن يبتسم برضا ويحس بالرضا .. وحين اشفق عليه بعض تلاميذه وحدثوه ان يصبر على عذاب السجن قال « **انا جنتى فى صدرى** » .

وحدد بكلمته الوجيزة الفرق بينه وبين غيره ..

ان احمد بن حنبل يحمل جنته فى صدره .. انه رجل يعيش فى جنة الرضا عن الله ، وليس يعنيه أن يوضع فى السجن أو فى قصر .. فهو فى الجنة سواء وضعوه فى قلب النعيم أو قلب العذاب .

هذه الطبيعة المستقرة الراسخة العارفة ، ليست طبيعة فنية .. لقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن الشعراء ، وهم رمز للفنانين ، والاشارة

اليهم لم ترد فى القرآن الكريم صدفة أو اتفاقا . انما وردت لحكمة .. كان الله تبارك وتعالى ينفى عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم صـفة الشعر ((**وما علمناه الشعر وما ينبغى له**)) يريد الحق تبارك وتعالى أن يقول ان الشعر موهبة يعلمها الله لبعض عباده ، ولم يكن الرسول ـ بما وهب من نبوة ـ فى حاجة لهذه الموهبة الاقل .. ايضا لم يكن من المصلحة ان يكون فى النبوة اى اثر لموهبـة الفن . لان الفن أو الشـعر هيام بين الأودية ((**ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون**)) والأودية كمـا اتفقنـا ليست أودية مادية ، انما تنطبق على القلق المتصل بالمكان ، كما تنطبق على القلق المتصل بالزمان والأفكار ..

ولقد حدد الله تبارك وتعـالى فى القـرآن الـكريم طبيعة الشـعراء والفنانين عموما ، وبين خصائصها الجوهرية التى لا تتفق مع النبوة ، وانكر ان يكون النبى شاعرا او يعلم الشعر او علمه الله الشعر .

النبوة افق اعلى من كل الآفاق ..

النبوة فوق كل تصور بشرى . فهى اصطفاء من الله تعالى ، وحفظ من الله تعالى ، وعصمة من الله تعالى ، واختيار من الله تعالى ..

والنبى بشر .. ولكنه المثل الأعلى للبشر ..

وليس كل البشر أنبياء ..

وفهم النبى للعقيدة الاسلامية هو الفهم اللائق بجلال النبوة ..

وليس كل البشر انبياء كما تقول ..

واذاً .. فمن الطبيعى ان يختلف فهـم البشر العاديين للعقيـدة عن فهم النبى ..

ومن الطبيعى حين يلتقى الاسـلام بانسان يملك طبيعة فنية ، من الطبيعى لهذا الفنان ان يفهم الاسلام فهما يختلف فيه عن فهم النبى ، وربما غلا بعض الشىء ، وربما بالغ بعض الشىء ، وربما كانت له رؤياه الخاصة التى تختلف عن رؤية غيره ..

لهذا كله نحسب أن التصوف كان سينشأ لأسباب شخصية وبشرية حتى ولو لم تساعده الأسباب الموضوعية فى المجال الاجتماعى ..

وليست مصادفة بحتة ان معظم الصوفية شعراء وكتاب ، ليست هذه مصادفة ..

انما تشير هذه الحقيقة الى حقيقة اخطر .. وهى ان معظم الصوفية فنانون . .او اصحاب طبيعة فنية ، وفيهم من كان يستسلم لفنه ، وفيهم

من كان يلزم فنه بأصول الكتاب والسنة ..

ومن هنا جاء اختلافهم ..

اذا سلمنا بذلك ، فسوف نفهم كثيرا جدا من تناقضات الصوفية ومبالغاتهم ، فان التناقض جزء من طبيعة الفن .. وجزء من تكوين الفنان تأمل قوله تعالى عن الشعراء « **وانهم يقولون مالا يفعلون** » ..

ان هذه الآية الكريمة ليست انتقاصا من الشعراء أو سبا لهم ، انما هى كشف لهذا التناقض الذى هو جزء من الطبيعة الفنية ..

والشعر اداة من أدوات التعبير ، والاداة لا توصف بالخير أو الشر ، انما يتعلق الخير والشر بما يفصح به الروح الانسانى خلال استخدامه للأداة .. وهناك شعراء قالوا الحكمة كلها فى بيت واحد من الشعر كما صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اصدق بيت قالته العرب قول لبيد .

« **ألا كل شىء ما خلا الله باطل** » ..

وهناك بالمثل شعراء حاربوا الاسلام ووقفوا ضده ، والعبرة بما يقوله الشاعر وما يفعله ..

نريد ان نخلص الى الحقيقة التالية ..

ان معظم الصوفية فنانون ..

نقول معظم الصوفية ، ولا نطلق الكلام ليستوعب الجميع ..

ومعظم الصوفية ذوو طبيعة فنية ..

ومعظم التراث الصوفى أدب من أرقى انواع الآدب وارفعه .. بكافة المقاييس النقدية القديمة والحديثة ، وسواء عرضنا هذا الأدب على نقاد العصور القديمة او نقاد القرن العشرين ..

ونحسب ان هذا الرأى الجديد فى مجال الدراسات الصوفية يمكن ان يصطدم بعقبات شتى .

وربما كانت هذه العقبات صادرة من هذه الهالات المقدسة التى أضفاها الزمن على مشايخ الصوفية وكراماتهم ..

ولكننا لا نعرف هالات مقدسة حول احد من رجال الاسلام .. واشرف خلق الله واكرمهم عليه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتراب الذى يسير عليه النبى صلى الله عليه وسلم على رأسى ، ودمى كله فداء قطرة من عرقه .. ولكنه ليس مقدسا ..

كانت عظمة النبى صلى الله عليه وسلم انه افهمنا ان القداسة الوحيدة لا تنصرف الا لله عز وجل .. ولا تقال الا عن الله عز وجل ، فهو القدوس سبحانه ، وهو المقدس المتعالى وحده ..

وثمة فرق هائل بين الخالق والانسان ..

ولا قداسة لأحد من رجال الاسلام ..

فكلهم بشر يصيب ويخطىء .. وفيهم من يملك طبيعة متزنة عاقلة وفيهم من يملك طبيعة فنية متوهجة ..

وفى الصوفية من كان يملك هذه الطبيعة الفنية .

وسوف نحاول خلال تعرضنا للصوفية وآثارهم ، ان نبين هذه الطبيعة الفنية ، سواء فى إسلوب حياتهم او ابداع عقولهم من الأدب والشعر ..

كما سنحاول ايضا ان نقول .. متى يبدأ الفن ومتى ينتهى فى كلام الصوفية ؟ ومتى يبدأ الدين ومتى ينتهى فى كلام الصوفية ؟

ونسأل الله تبارك وتعالى ان يوفقنا الى النجاة فى هذا البحر الذى ننوى خوضه ..

. . . .

لنبدأ برابعة العدوية

بحر رابعة العدوية ..

امرأة .. صوفية ..

اليست مفاجأة أن نعثر على امرأة صوفية ؟

ليست مفاجأة اذا كنا نعرف طبيعة الاسلام ، فان الاسلام دين النوع البشرى كله ، وليس النوع البشرى قاصرا على الرجال دون النساء ، كما أن المواهب التى وزعها الله تبارك وتعالى لم توزع على الرجال دون النساء ..

كانت رابعة العدوية امرأة تملك طبيعة فنية مرهفة ..

وكانت لها رؤية خاصة فى جوهر العبادة .. وكانت الى جوار ذلك من الفنانين المثاليين رغم حياتها التى كانت فى جزء منها لاتنتمى للمثالية.

وسنرى هذا كله فى تاريخ حياتها الملىء ..

واول ما نحب ان نلفت اليه النظر .. رؤاها الخاصة للشخصية الالهية ..

الشخصية الالهية مسـالة اهتم بها المسـيحيون اهتماما اكبر من اهتمام المسلمين .. هذا راى نيكولسون .. وهو راى صحيح اذا نظرنا للقرنين الأولين بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن هـذا الرأى لا يثبت للصحة فيما تلا ذلك من قرون ، فقد كان موضوع التصوف هو البحث فى الشخصية الالهية ، بل ان علم الكلام قبل التصوف انصرف الى هذا البحث ، ونقصد بمعنى الشخصية هنا القدرة على الاتصال ..

يقول وب فى كتابه الشهير « الله والشخصية » : « أننا لا نصف الله بالشخصية الا اذا تصورنا امكان وجود صلات شخصية بينة ، من حيث هو معبـود ، وبين الانســان من حيث هو عابد ، وان هـذه الصـلات الشخصية يمتنع وجودها اذا بولغ فى جانب تنزيه المعبود او بولغ فى جانب تشبيهه وتجسيده » ..

ولقد اعتنق نيكولسون هذا الرأى ، وان تحفظ عليه بقوله انه لايظن ان هذا يقنع علماء الكلام من المسلمين ، لان العقيدة الاسلامية تنص صراحة على ان الله تعالى مخالف للحوادث ..

ولست ارى فى راى نيكولسون أو راى وب ما يصعب الاقتناع به ، ان الرأى يسلم كل السلامة .. اذ تؤيده آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن تنزيه الله ((**ليس كمثله شيء ..**)) وتتحدث فى نفس الوقت عن سمعه سبحانه وبصره تعالى .. ((**وهو السميع البصير**)) ..

الصورة التى يقدمها القرآن لله عز وجل صورة ولا صورة ..

نعـرف من القـرآن أن الله تعـالى يسـمع ويرى ((**اسـمع وارى**)) ونعرف ان ((**يد الله فوق ايديهم**)) .. ونعرف انه ((**وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى**)) ونعرف ان الله يخالف الحوادث ((**ليس كمثله شيء**)) ..

ويحدثنا كبار العارفين بالله عن الله فيقولون :

((**كل ما دار فى وهمك ، وتصوره عقلك ، واستشرف اليه خيالك .. فالله غير ذلك**)) ..

سبحانه وتعالى ..

كلمتان من كلمات التنزيه والتقديس يسوقهما المسـلم اذا اراد ان يتصور الله تعالى او يتحدث عنه . .

ولقد أصاب المستشرق « وب » حين كتب ان الاسـلام يميل الى تصوير العلاقة الشخصية بين الله والانسان بصورة العلاقة بين السيد الذى لا مرد لامره وبين عبده ..

أصاب تماما فى هـذه وان اخطأه التوفيق فيما بنـاه على ذلك من نتائج ، يستوى فى ذلك حسن نيته ..

نريد أن نقول أن صورة التعالى والسيادة وصورة العبودية والخضوع .. هما حقيقة الصلة بين الرب الخالق الأحد ، والعبد المخلوق الخاضع .. هذه هى حقيقة العلاقة بين الله والانسان فى عمق الاسلام والقرآن .. ورغم عظمة الله وحقارة الانسان ــ بالقياس الى هذه العظمة الالهية ..

رغم تعالى الله وتقدسه وتدنى الانسان وبؤسه وضعفه واخطائه رغم هذا كله ، لم يشأ الله سبحانه وتعالى ان يترك الانسان قائما فى موضع الرهبة والضآلة والخوف ..

انما سمى الله تعالى نفسه « الودود » ..

وهى كلمة نحب ان يتأملها القارىء ويقف عندها طويلا طويلا ..

ان الود هو أصفى ما فى الحب ..

وتسمية الله تعالى نفسه بالودود اشارة رحيمة لخلقه . وهو سماح لهذا الخلق ان يحبوه ..

ولقد كان الصوفية أول من فتحوا هذا الباب ..

كانت رابعة العدوية أول من استعمل ــ بغير تهيب ــ كلمة الحب فى العشق الالهى ..

واليها تنسب الأبيات الشعرية التى تقول :

احبك حبين حب الهــــوى   وحب لأنك اهــــل لذاكا

ان الشطر الاول من البيت يقول انها تحب الله حب الهوى .. نحن امام حب انسانى يتجه الى الله ..

صاحبته امرأة تعذبت كثيرا واحبت كثيرا واشتعلت بنار الفن كثيرا وحين فاض بها الشوق صرحت بمشاعرها ، ووضعت هــذا التصريح فى قالب من الفن يستطيع الصمود للزمن .. ولقد قالت هذه المرأة كلماتها منذ أكثر من الف سنة ، ورغم بعد المسافة وجدت كلماتها من يغنيها من مغنيات هذا القرن الشهيرات ، ووجدت كلماتها من يهتز لها من جمهور هذه الأيام ، يطيب للانسان ان يحس أنه يحب خالقه ..

وليس فى هذا الاحساس ما يصطدم بالشريعة الاسلامية أو العقيدة الاسلامية ..

ولا بأس ان يقف المسلم فى مقام الرهبة أو مقام الحب ..

المهم ان يكون فى طريقه الى الله ..

تتعدد الطرق فى الأرض وتتعدد الطرق فى القلوب ، واشرفها الطرق التى توصل الى الله ..

كانت رابعة العدوية هى أول من اخترق مجـال الخوف الى مجـال الحب ، وهى امراة من البصرة .

اسمها رابعة واسم ابيها اسماعيل ، والعدوية اسم قبيلتها ، ويقول عنها المستشرق ماسينيون انها كانت فى أول أمرها تعزف بالمعازف ، ثم تابت ، وقد خلفت مقطوعات شعرية تعبر عن حدة عشق مؤثرة ، وقضت حياتهـا بالبصرة وكأنهـا مسـجونة ، وفى البصرة ماتت بعـد ان وصلت الثمانين ، وتركت فى الاسلام شذا من ولايتها لا يزال أريجا ..

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه عن رابعة العدوية اننا لا نعلم عن حياتها الاولى شـيئا الا عن طريق العطار فى تذكرة الأوليـاء .. ويذكر الدكتور بدوى ان رواية العطار عن طفولتها ونشأتها وخطيئتها قبل التوبة مستفيضة ، ولكنها لا تقبل فى عين المؤرخ الا اذا طرحنا منها جانب الخوارق والكرامات ..

ويذكر العطار ان رابعة ولدت فى بيت فقير كل الفقر .. فلم يكن لدى ابويها قطرة سمن حتى يدهنوا موضع خلاصـها .. واصـل اسرتها غير معروف ، كل ما نعرفه ان الأسرة انتسبت الى آل عتيك ، اما ديانة آبائها قبل الاسلام فمجهولة ايضا .. ولا ندرى أكانوا من الفرس أم لا ..

ويفترض الدكتور عبد الرحمن بدوى المصدر المسيحى اصلا لكلامها فى الحب الالهى ..

وقصة حياتها انها هامت على وجهها بعد قحط حدث بالبصرة .. هى وأخواتها الثلاث ، فأخذها ظالم وأسرها وباعها لرجل بستة دراهم ، واثقل عليها الرجل العمل فعاشت حياة بالغة العذاب .. واتخذت رابعة مهنة العزف على الناى (لاحظوا الجانب الفنى فى شخصيتها) ، وكانت هذه المهنة فى راى الدكتور بدوى « من المستحيل ان تستقل بنفسـها ، ولا أن تكون بمنجاة من الوان الاغراء » ..

ويخيل الى الدكتور بدوى أنها قطعت شوطا طويلا فى طريق الاثم ، لأنها تابت بعد ذلك ، وهذه التوبة اصدق دليل على اندفاعها الى ابعد حد فى طريق الشهوة .

ويؤكد الدكتور بدوى انها لم تكن معتدلة ، لأن الاعتدال من شـأن الضعفاء والتافهين ، اما التطـرف فمن شـيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلقون فى التاريخ ، لهذا ادعو الى التطرف المطلق كل من يريد ان يكون خالقا للقيم ..

وقد اعترض الدكتور عبد القادر محمود على هذا الحماس غير العلمى .. ورأى أن هذا الكلام يجوز ان ينطبق على البعض ، ولا يجوز تطبيقه

على الكل ، ومهما يكن من أمر فقد كانت رابعة العدوية فنانة فى الأصل ..

كانت امراة متأججة المشاعر ، عنيفة فى الاتجاه والاختيار ، متقلبة فى حياتها المادية والنفسية على السواء ، اخطأت وانقادت ثم صحت ذات يوم على التوبة ..

ولكنها توبة غريبة ..

أنها لا تبكى خطيئتها فى تواضع ، انما تفخر بحبها لله وهواها له .. وهى تقسم حبها حبين ، وتتطلع بهذين الحبين الى الله ..

احبــك حبين حب الهــوى وحــب لأنك أهــــل لذاكا

فاما الذى هو حب الهــوى فشغلى بذكرك عمن ســواكا

واما الذى أنت أهـــل له فكشفك لى الحجب حتى اراكا

فلا الحمــد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمــد فى ذا وذاكا

اختلف القدماء حول الأبيات الشهيرة التى نسبت لرابعة العدوية .

كما اختلف المحدثون حول مضمون الأبيات ، وهـل هو مذهب فى الحب الالهى أم مجرد امتداد لنظرية سابقة .

وجرى نفس الاختلاف على شخصية رابعة العدوية ، فنسب اليها العطار كرامات كثيرة ، وحدثت كثير من الكتب عن الخوارق التى جرت على يديها ..

وفى البداية ..

نحب أن نستبعد موضوع الكرامات والخوارق من مجال البحث لسبب بديهى اننا ندرس فكرها كفكر ، ونحلل إشعارها كأدب صوفى ، ولن يزيد هذا الفكر او ينقص منه أن تكون لها كرامات أو لا تكون ..

موضوع الكرامات قد يلقى ضوءا على شخصيتها ، ويبين الى اى حد لم تسلم شخصيتها من اضفاء مسحة إسطورية عليها ، ولكن هـذا الموضوع لا يضيف الى ادبها وفكرها ولا ينقص منه ..

تقول رابعة العدوية :

احبــك حبين حب الهــوى وحب لأنــك أهــــل لذاكا

تصرح فى البداية أنها تحب الله تعالى نوعين من الحب : حب تسميه الهوى .. وحب لأنه سبحانه وتعالى أهل لذلك .

والهوى كلمة مشتقة من اندفاع لا يقاوم نحو شىء .. وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم فى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :

« فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم » ..

والأصل فى استخدام الكلمة هو المجال البشرى ، واستخدامها فى المجال الالهى هو الجديد الذى يلفت الانتباه ..

تريد رابعة العدوية أن تقول ان حبها البشرى أو قدرتها على الحب البشرى قد تحولت الى الله عز وجل ، واضيفت هذه الطاقة الى الطاقة القادرة على الحب الالهى ..

الحب مزدوج ..

ثنائى ..

حب بشرى كان المفروض أن تصرفه للناس .. ولكنها قدمته لله ..
وحب الهى الله سبحانه وتعالى أهل له ..

وفى البيت الثانى تشرح رابعة العدوية سر حبها البشرى الذى تحول الى الله .

وأما الذى أنت أهـــل له فكشفك لى الحجب حتى اراكا

تريد أن تقول ان انشغالها بالذكر .. قد صرفها عن الناس .. ولانها انصرفت عن الناس ، فقد انكشفت لها الحجب .

واما الذى أنت اهـــل له فكشفك لى الحجب حتى اراكا
فلا الحمـــد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمــد فى ذا وذاكا

انها ترجع الأمر كله والحمد كله لله تعالى ..

هذه الأبيات الأربعة أثارت جدلا لم يزل ماضيا الى اليوم ، واثارت عديدا من المناقشات لم تغلق الى اليوم ..

. . . .

فى البداية ، اختلف القدماء حول نسبة الأبيات اليها ..

قال الكلاباذى « توفى سنة ٣٨٠ هجرية » ان هذه الأبيات لمجهول ، أما الزبيدى فقد نسب الأبيات السابقة لسفيان الثورى ، وعبد الواحد ابن يزيد .. ولم يلتفت الطوسى الا لكرامات رابعة العدوية ، واهمل الأبيات ..

ومعنى ذلك ان الابيات الأربعة التى قيل ان نظريتها فى الحب الالهى تعتمد عليها .. مشكوك فى صدورها منها ..

اذا افترضنا ان رابعة هى صاحبة هذه الأبيات .. فهل ينطوى هذا الشعر على نظرية فى الحب الالهى .. أم ان الأمر مجـرد كلام فى الحب الالهى ..

اختلف الدارسون والباحثون على هذا الموضوع .. اعتبر الاستاذ « ماسينيون » — وهو واحد من اكبر المستشرقين الذين كتبوا فى التصوف — أن رابعة العدوية صاحبة نظرية فى الحب الالهى ..

انه يقول « وكان تحمسها لحياة الزهد مؤديا الى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، والى البحث فى فروض دقيقة فى العلميات والعقائد »

واختلف معه الاستاذ مصطفى عبد الرازق .. فهو يرى « ان من التعسف أن ننسب الى رابعة العدوية التصدى لدقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية » .

وقد وقع نفس الاختلاف بين الدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور عبد القادر محمود حول رابعة العدوية ، كتب عنها الدكتور بدوى فى كتابه « شهيدة العشق الالهى » ونقد الكتاب د. عبد القادر محمود ونفى عنها المسحة الاسطورية التى التصقت بها ..

والمشهور عند كثير من القدماء والمحدثين ان رابعة العدوية هى واضعة مذهب الحب الالهى فى التصوف الاسلامى ، وقد بين د. عبد القادر محمود تهافت هذا الرأى ، وذهب الى انها مجرد امتداد لنظرية الحب الخالص التى تطورت من مدرسة جعفر الصادق ، وبهدى من النص المسيحى .

ولو نظرنا فى نقد د. عبد القادر محمود لكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى « شهيدة العشق » ، فسوف تكتمل امامنا الصورة الحقيقية لرابعة العدوية .

ربط الدكتور بدوى تجربة رابعة الروحية نحو الله بثلاثة عناصر .

اولها الندم من حياة الشهوات ، وثانيها حضورها مجالس الوعاظ وخاصة الزاهد العالم الحسن البصرى ، والواقع أنها لم تلتق به ، وقد عاد الدكتور بدوى فذكر هذا صحيحا ، وثالث العناصر اليأس من الدنيا، ولا شك أنها عاشت مع قول ابراهيم بن ادهم المعاصر لها « الحر من خرج من الدنيا قبل أن يخرج منها » .. ويؤكد الدكتور بدوى انه لا مقياس لمعرفة تطور توبتها سوى درجة حرارة التضرع من حين الى حين فيما حكاه العطار .

ويعتبر الدكتور بدوى نبرة الضراعة العنيفة دليلا يؤكد ان فترة ضلالها أيام كانت تعزف على الناى لشهوات الجسد هى العامل الأوحد فى تكيف النظرية الصوفية عند رابعة ، وهى النظرة التى تحولت الى حب لذات الله لا طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب ..

ونحن مع الدكتور عبد القادر محمود فى ان توكيد نبرة الضراعة

كمقياس لدى الدكتور بدوى يؤكد لنا عدم كفايته كدليل وحيد فى تكييف النظرة الصوفية لدى رابعة .

هذا دليل يحتاج الى حجج قوية من آراء رابعة التى كان أدق ما فى تراثها موضع شك فى صحة نسبته اليها ، وكان غيره جملا رائعة عن النجوم المنيرة والعيون النائمة ، سوى عين يقظى وقلب ساهر قلق جزوع.

فاذا عدنا الى العطار على رغمنا مرة أخرى ، فاننا نجده يثير مشكلة لدى « ماسينيون » ، مشكلة يربط فيها بين الحلاج ورابعة .

يقول العطار فى تذكرة الأولياء ان رابعة العدوية كانت بسبيل الحج ، فرات الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء فقالت : لا أريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، إما الكعبة فماذا افعل بها .

قام الدكتور بدوى بالتعليق على هذه الحادثة التى يرويها العطار فقال « ليس بمستبعد أن تكون صحيحة » ومن المعروف ان هذا هو راى الحلاج ، وقد كان سببا فى تكفيره ثم صلبه قال الحلاج « ان شوقنا الى الله يجب أن يمحو عقليا فى نفوسنا صورة الكعبة ، كيما نجد من اقامها ، وأن نحطم معبد بدننا كيما نبلغ من جاء اليه ليتحدث الى بنى الانسان »

ويمضى الدكتور بدوى فيقول (ولعل هذا قد بلغ اوجه فيما رواه ابن تيمية حين قال « قال على الحريرى ، قيل عن رابعة انها حجت فقالت هذا « اى البيت الحرام » الصنم المعبود فى الأرض ، وانه ما ولجه الله ولا خلا منه » ، يقول الدكتور بدوى « وهذا يؤيد الرواية التى ذكرها العطار ، وفيه من الجراة فى التعبير قدر هائل يدل على اى مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لا نجد لها نظيرا فى هذا القرن ولا القرن الذى يليه عند الصوفية ، فهى ترى أن فى الكعبة صنما ، وفى التبرك بها وثنية ، وليس بين هذا وبين أن تعلن سقوط التكاليف الظاهرية فى الحياة الدنيا الا خطوة واحدة » .

يرى الدكتور عبد القادر محمود أن الدكتور بدوى قد أسرف فى حكمه ، واعطى لرابعة بمقارنتها بالحلاج مكانا ليس لها ، فبعد ان قال عن حكاية الكعبة التى رأتها رابعة العدوية وهى قادمة نحوها ، انه ليس بمستبعد أن تكون هذه الحادثة صحيحة ، بعد هذا الفخ الذى وقع فيه الدكتور بدوى ، اجرى المقارنة بين رابعة والحلاج ، ورآها استاذة للحلاج فى اخطر آرائه ، ووقف مع راى العطار ، وهو ليس مؤرخا ولا عالما ، وكتابه يمتلىء بالاساطير والخرافات . .

ويفسر الدكتور عبد القادر محمود هذا كله بذكر الحقائق التالية ،

توفى العطار سنة ٥٨٦ هجرية ، وهو تلميذ لمدرسة الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية ، وكل ماكتبه العطار مصدره عصره والعصر الذى قبله ، ولما كانت روايات العطار عن رابعة ، وخاصة فى نظرية تحطيم الوثنية فى صنم الكعبة لعبادة رب الكعبة ، لما كانت هذه الرواية لم ترد الا مع العطار ، والعطار تلميذ فى مدرسة الحلاج ، فمن المؤكد إنه خلع عليها شيئا من هذه الرواية أو أعطاها نسبا منها ، لأن رابعة من الناحية الموضوعية لا تصل فى ثقافتها الى هذه النظرة ، خاصة وأن ادق مانسب اليها فى نظرية الحب الخالص مشكوك فى صحة نسبته اليها ، وما اورده العطار وغيره من أحاديث وقصص عباداتها يؤكد انها كانت لا تنقطع عن الصلاة ، فكيف نقيم لها نظرية او مطلع نظرية فى اسقاط التكاليف الشرعية ..

من الصعب أن يكون هذا رأيها .. اما عند الحلاج فهو تخريج لرأى القرامطة الذين اعادوا قصة الفيل فى محاولتهم هدم الكعبة فى صورة متطورة ..

يقول د. عبد القادر محمود « لو سرنا وراء امثال هذه الروايات التى أوردها العطار وتبعه المستشرقون وغير المستشرقين ، لوجدنا أنفسنا ونحن فى القرن العشرين وقد عدنا الى عقلية ما قبل القرن العاشر والحادى عشر الميلادى فى نظرتنا النقدية غير السليمة .. ولو سايرنا هذا المنطق لجاز لنا أن نقول ان رابعة فى نظريتها فى الحب الخالص الذى لا يطمع فى ثواب أو يرهب عقابا تصل بنا لا محالة الى القول بعدم اهمية التكاليف الشرعية التى هى فى نظر الوصوليين او العوام سلم الوصول الى الجنة والبعد عن النار ، ولكان من الجائز أن نكفر ونقول انه ليس من الضرورى الاعتماد عليها فى طريق الوصول ، ولكننا لن نساير هذا المنطق ، ولن نجدف وراءه فى اعطاء رابعة ما ليس لها وما لا يجوز أن ينسب اليها ، لان بيئتها الثقافية والاجتماعية والنفسية وحياتها الماضية لا يمكن بحال من الأحوال ان تعطينا أمثال هذه الاتجاهات التى اكدها الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه الممتاز عن رابعة العدوية ، ونسب اليها ما اعطاه للحلاج فى تعليقاته على ما كتبه « ماسينيون » عنه .

. . . .

القضية اذاً أن الدكتور بدوى يحمل فكر رابعة العدوية ما لا يحتمله .. ويرى أنها كانت صاحبة نظرية فى الحب الالهى ، وصاحبة راى فى التكاليف الشرعية ، واستاذة للحلاج فى اخطر آرائه التى كانت سببا فى اتهامه بالكفر وقتله .. ويعتقد الدكتور عبد القادر محمود أن هذا كله غير صحيح ، لان الدليل على ان رابعة كانت تعتبر الكعبة وثنا ، هو مجرد كلام قيل عنها أو حكى عنها ، وهو كلام لا يصدقه عقل ، مثل أن ترى رابعة الكعبة وهى قادمة نحوها ، فتقول انها لا تريدها وتريد رب الكعبة ..

ونحن مع رأى الدكتور محمود رغم احترامنا للدكتور بدوى .. فمن الصعب علينا ان نقيم بناء كاملا لنظرية فلسفية على حكاية خرافية حكاها واحد على لسان رابعة العدوية .. حكاية من الصعب أن تقنع طفلا ..

ان الكعبة بناء مثبت فى الأرض ، فهل يمكن بناء نظرية على أساس أن هذا البناء الثابت قد ذهب يهرول سعيا نحو امراة صوفية ؟ ان محاولات هدم الكعبة قديمة ، وهى جزء من محاولات هدم الاسلام ، واذا كان ابرهة قد ابيد حين حاول هدم الكعبة بجيشه الجبار ، فقد ظلت المحاولات مستمرة من أعداء الاسلام ، وليس بمستبعد أن يكون هذا القول مدسوسا على رابعة العدوية ..

القول بأن الكعبة جاءتها تمشى ..

والدليل على براءة رابعة من هذا القول ما رواه ابن تيمية عنها .. فالمعروف عن ابن تيمية أنه من أعداء الصوفية ، وقد كان موقفه حاسما فيما رواه العطار عن رابعة العدوية .

قال ابن تيمية « ان رابعة كانت من التقوى بحيث لا يصدر عنها هذا ، ولو قال هذا أحد لكان كافرا يستتاب ، فان تاب ، والا قتل ، وهو كذب ، فان البيت لا يعبده المسلمون ، ولكن يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة فيه ، أما ماتقل من قولها (والله ما ولجه الله ولا خلا منه) فكلام باطل عليها » ..

والحقيقة أن الصورة التى يرسمها الدكتور بدوى لرابعة العدوية ، ليست هى حجمها الحقيقى ، فهو يعتبرها أول من تعرض بالنقد للمفاهيم الحسية التى فهمها العامة لبعض آيات القرآن .. فقد سمعت قارئا يقرأ قوله تعالى ((**ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون**)) فقالت مساكين أهل الجنة .. فى شغل هم وأزواجهم ، ويرى الدكتور بدوى أن ضمير رابعة قد امتعض من هذا المعنى الحسى ، وهى التى ارتفع عندها معنى الجنة الى اعلى درجات الروحية ، ويعتقد انها رمت من وراء هذا النقد ، الى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعانى القرآن والاسلام الى اعلى درجة من الروحية » ..

وفى رأينا أن الدكتور بدوى لم يفهم كلمة رابعة العدوية ، فليس فى الكلمة نقد للمعنى الحسى « استخدم الدكتور بدوى كلمة « المعنى الشهوانى » .. لأن الجنة ليست هى الأرض ، والناس حين يبعثون يوم القيامة ويدخلون الجنة لا يدخلونها بنفس حواسهم وشهواتهم الارضية ، وكل ما ورد عن الجنة فى القرآن غيب ، يتحدث الله تبارك وتعالى عن لحم

الطير والازواج والاعناب والنخيل ، ولكن حقيقة هذا كله غيب ، وصلته بما على الأرض من متع هو الآخر غيب ..

ولو صدقنا ان رابعة العدوية يمكن أن تقول عبارتها التى اوردها الدكتور بدوى ، فلا ريب إنها تعنى شيئا يختلف كل الاختلاف عن نقد الحياة الحسية فى الجنة ، لأن الحياة فى الجنة غيب مجهول ، وأى مسلم يعرف عقيدته يعرف أن فى الجنة نعيما لا يقاس به نعيم الأرض ، اما حقيقة هذا النعيم فمجهولة تماما ، والمجهول لا يمكن ان يخضع للنقد .. ولا يمكن بالتالى أن تعتبر رابعة العدوية أول ناقدة لنعيم الجنة الحسى .. ويبدو راى الدكتور بدوى متضاربا حين ينفى عن رابعة محاولات الطعن أو الانحراف بالاسلام ، فى نفس الوقت الذى يجعلها فى كتابه جريئة جراة لا نظير لها فى هذا القرن ولا الذى يليه ، فليس بينها وبين أن تعلن سقوط التكاليف الشرعية الا خطوة واحدة .

يرفض الدكتور عبد القادر محمود ، كما يرفض الاستاذ مصطفى عبد الرازق هذه الاسطورة التى يتم بناؤها حول رابعة العدوية .. ويرى كلاهما أن من التعسف أن ينسب اليها التصدى لمعالجة دقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية والنظريات الفلسفية كأستاذة لمدرسة الحلاج ..

وهذا هو الرأى الذى تهدى اليه الأدلة ويستريح اليه العقل ..

ولو افترضنا جدلا انها قالت ما رواه العطار عن حكاية الكعبة التى شاهدتها تمشى نحوها ..

لو افترضنا جدلا أنها قالت انها لا تريد الكعبة ولكنها تريد رب الكعبة ، فهل يمكن تحميل هذا المعنى على أساس انه بناء لنظرية جديدة هدفها اسقاط التكاليف ، ام ان الأولى أن يحمل على انه تعبير فنى لشاعرة تحمل طبيعة فنية ، ان اقوال الشعراء ليست هى الحقيقة المادية ..انما هى تصور الشاعر ورؤياه الخاصة .. وقد اشار القرآن الكريم الى أن الشعراء يقولون مالا يفعلون ، بمعنى انهم لا يصورون الواقع ، ولا يصفونه ، ويبالغون مبالغات فنية لا يمكن قياسها على الحقيقة ، وهناك شاعر يقول :

اذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

فهل يصدق احد ان طفلا فطمته امه ، يمكن أن تخر له الجبابرة ساجدة ؟!

ان الرؤى الشعرية للشعراء لا يمكن قبولها بمنطق الحياة الواقعة ،

انما هى تعبير عن رؤيا فنية أو رموز لصور أو مشاعر يريد الشاعر التعبير عنها ..

بهذا المنطق يستقيم الأمر ، وتبدو رابعة العدوية بصورتها الحقيقية ، شاعرة صوفية وتائبة محبة لله عز وجل .. كانت لها آراؤها التى لاتصلح ان تكون أساسا لمذهب متكامل فى التصوف الاسلامى ..

عاشت رابعة العدوية فى القرن الثانى من الهجرة ، وماتت فى أخريات هذا القرن ، كما يرجحه أكثر من كتبوا سيرتها ..

وقد كانت فى راى كثير من الدارسين القدامى والمحدثين علامة هامة من علامات الطريق الصوفى .

كتب عنها صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » .. السيدة الولية ذات المقامات العلية والأحوال السنية ..

ويقول عنها ابن خلكان « كانت من أعيان عصرها وأخبارها فى الصلاح مشهورة » ومن المدهش ، أو فلنقل ان من الطبيعى أننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن حياة رابعة العدوية ، قبل أن تكون صوفية ، فلم يعن المؤرخون الا بهذا الجانب من حياتها ، وهو الجانب الصوفى ..

ومن المؤكد انها لم تولد صوفية ، لأن المرء لا يولد صوفيا ، انما اكتسبت التصوف عن طريق تجاربها الروحية ..

وهكذا سلط القدماء الاضواء على حياتها الصوفية ، وبقى الجزء الأعظم من حياتها غارقا فى الظلام ..

وفى الظلام عادة تسعى الخرافة .. والاسطورة .. والعجائب ..

وهذا ما وقع لرابعة ..

ان ما ينسب اليها من عجائب أشبه بالخرافات منه بالحقيقة ، وقد تداخلت الروايات عن حياتها وتضاربت الأقوال عنها حتى اختلفوا فى ابسط تفاصيل الحياة والموت المتعلقة بها ..

ذكر ابن خلكان ان قبرها يزار ، فهو بظاهر القدس من شرقيه على راس جبل يقال له الطور ، وأنكر ياقوت الحموى أن يكون هذا قبر رابعة العدوية ، وقال ان قبرها بالبصرة ، اما هذا القبر الذى يشير اليه ابن خلكان فهو قبر امراة اخرى تسمى رابعة ، كانت زوجة أحمد بن أبى الحوارى الكاتب ، وقد اشتبه الأمر على الناس .

امتد الاختلاف الى حياتها أيضا كما امتد لمكان قبرها ..

قيل إنها تابت على يد ذى النون المصرى .. فقد كانت تركب سفينة مع جماعة يشربون الخمر فاتفق ركوب ذى النون المصرى) المتوفى ٢٤٥

هجرية (هذه السفينة ، وطلبت رابعة من ذى النون على سبيل التهكم ان يسمعهم شيئا من غنائه كما إسمعوه فأنشد أبياتا ركيكة تابت بعدها رابعة العدوية على يديه ، وقد أنكر المؤرخون هذه القصة لبعد العصرين رابعة وذى النون .. ورجحوا أن تكون القصة موضوعة ومختلقة .. فنحن لا نعرف أن رابعة العدوية زارت مصر ، وان كانت الاساطير قد ابتدعت لها قبرا بقرافة الامام يزار ويتبرك به ..

الشيء المتواتر عنها انها كادت تغنى فى سفن البصرة وتشرب الخمر ، وقد وقع هذا قبل توبتها ، ويذكر ماسينيون عن رابعة العدوية ان والى البصرة خطبها ، فلما دخل عليها قالت له « يا شهوانى اطلب شهوانية مثلك » ..

يريد أن يقول أن رابعة العدوية انكرت على والى البصرة رغبته فى زواجها لأنها اشتمت منها أثرا من آثار الاشتهاء ..

والقصة موضوعة ومختلقة ، فلم يكن والى البصرة بالذى يرضى ان يخطب امراة تغنى فى مراكب الخليج وتشرب الخمر ، ولم يكن منطقيا من هذه المراة ان تنكر الشهوات وهى غارقة فيها لأذنيها ..

نريد أن نقول ان الاساطير والروايات لم تترك رابعة العدوية فى حالها، انما نسجت حولها ركاماً من الأحداث ، حتى اختلط الصدق بالكذب ، والحقيقة بالخرافة ، وصار من المتعذر ان تكتشف الحقيقة الموضوعية او شيئا يقترب من الحقيقة الموضوعية ..

كل ما نعرفه ان حياتها قسمان ..

قسم قبل التوبة .. كانت فيه ما كانته ..

وقسم بعد التوبة .. صارت فيه عاشقة لله عز وجل ..

وقد إخطأ كثير من الباحثين فى رابعة العدوية ، رغم ان هؤلاء الباحثين كانوا أصحاب عقول محترمة ..

مثلا .. ذكر الاستاذ ماسينيون عنها ان تحمسها لحياة الزهد أدى بها الى معالجة احوال صوفية مختلفة ، والى البحث فى فروض دقيقة فى العمليات والعقائد ، وبهذا تعتبر رابعة عند الباحثين فى أمور الولاية والأولياء أعظم ولية .

وهذا الرأى الذى يراه ماسينيون لا يمكن قبوله على علاته ..

وهناك أكثر من سبب لذلك ..

ان التصوف كان فى بداية نموه ، ولم يكن معقولا ان تقفز رابعة العدوية فجأة الى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، أو البحث فى فروض دقيقة فى العبادات والعقائد ..

هذا سبب مانع فى حد ذاته ..

وثمة سبب ابلغ فى الدلالة على المنع ، وهو ان الآثار التى تركتها رابعة العدوية لا تدل مطلقا على انها عالجت أحوالا صوفية أو بحثت فى فروض العقائد والعبادات ..

هذا اعتساف واضح وتحميل كلامها معان ينوء تحت ثقلها ..

ولننظر فى أبيات رابعة العدوية التى اشتهرت بها .. « أحبك حبين » لنرى هل يمكن ان تحمل هذه الأبيات الشعرية الأربعة مذهبا من مذاهب التصوف ، أو نظرية من نظريات العبادات مثلا ..

تقول هذه الأبيات إن رابعة تحب الله تعالى حبين ..

حب الهوى ، أو الحب البشرى ..

وحب آخر لأنه سبحانه اهل لهذا الحب ، يستحقه ابتداء سبحانه .

وتشرح حبها البشرى فتقول لنا أن حبها البشرى هو انشغالها بالله عمن سواه ..

أما حبها الالهى لله فتفهمنا ان هذا هو كشف الحجب لها حتى تراه سبحانه ..

ثم تستطرد فى تواضع فتقول انها لا تحمد على حبها هذا أو ذاك ، فان الله تعالى هو وحده المستحق للحمد فى ذا وذاكا ..

وتأمل الأبيات يطلعنا على حقيقة جوهرية ..

لسنا أمام نوعين من الحب ..

نحن إمام نوع واحد من الحب ، وان كان يأخذ صورتين هما فى حقيقتهما صورة واحدة ..

فهى مشغولة بالله عمن سواه ..

وهى تقف امام الحجب المكشوفة لتراه ..

ليس هناك حب بشرى وحب الهى ..

هناك حبها وحده لله ..

الصورة واحدة ، ولكنها على عادة الشعراء تبالغ فى تجسيم حبها ، وتراه فى مرآة العبقرية ، فاذا نحن أمام أكثر من صورة لها ..

وليس هناك فى الحقيقة غير صورة واحدة ..

ايضا لا تكشف الأبيات عن مذهب فلسفى كامل فى التصوف ، ولا تكشف عن معالجة فروض دقيقة فى أمور العبادات والعقائد ..

انما تكشف الأبيات عن وهج عاشقة وشاعرة فى ذات الوقت ..

وقد أنكر معظم الباحثين المعاصرين راى ماسينيون كالدكتور مصطفى عبد الرازق والدكتور عبد القادر محمود والدكتور مصطفى الشيبى ..

بل اننا لو تعمقنا البحث فسوف نكتشف أن هـذه الأبيات ذاتها ، والتى يدور حولها الحديث فى محاولة لتحديد حقيقة تصوفها ، منسوبة اليها ، يقول الكلاباذى ان هذه الأبيات لمجهول ، وليست لرابعة العدوية ، ويذكر الزبيدى أن هذه الأبيات الشعرية تنسب لسفيان الثورى كما نسب لعبد الواحد بن زيد . ومعنى هذا فى رأى الدكتور عبد القادر محمود ان الأبيات التى تتضمن رأيها فى الحب مشكوك فى صحة نسبتها اليها ؛ بدليل شك الكلاباذى ، وعدم التفات الطوسى الى ذلك ..

كل ما يمكن قوله عنها انها كانت أول من استعمل كلمة الحب فى العشق الالهى دون تهيب .. معتمدة على ورود كلمة الحب فى القرآن .. وكان من قبلها يتحرجون من كلمة الحب فى هذا المقام ..

وهذا راى ماسينيون .. وهو راى نعتقد فى وجاهته ، فقد تميزت رابعة بكلامها فى المحبة ..

وكانت من طائفة المسافرين الى ربهم .. كانت من الذين قعدوا على الحقائق وقعد من سواهم على الرسوم ، وكان عنوان طريقها هو الحب . والمحبة دليل على صدق دعواها ..

ولفظة الحب فى اللغة العربية تدور حول خمسة معان ..

١ ـ الصفاء والبياض .. يقول العرب حبب الأسنان اذا ارادوا وصفها بالبياض والصفاء ..

٢ ـ العلو والظهور .. ومنه حبب الماء وحبابه وهو ما يعلوه عند المطر الشديد ..

٣ ـ اللزوم والثبات ، وفيـه يقول العـرب حب البعير واحب اذا برك فلم يقم ..

٤ ـ اللب .. ومنه حبة القلب اى عمقه الداخل ولبه .. ومنه الحبة الواحدة ومجموعها الحب ، والحبة هى أصل الشىء ومادته وقوامه.

٥ ـ الحفظ والامساك ، يقول العرب أحب الوعاء الماء أى أمسكه وحفظه ..

وتعريف الحب عند العرب ينطوى على هذه المعانى الخمسة ..

فالحب عندهم هو صفاء المودة ، وعلو ارادة القلب لتعلقها بالمحبوب ، وثبات ارادة القلب على المحبوب ، واعطاء المحب محبوبه اشرف ما عنده وهو الحب أو اللب ، وحفظ هذا التوهج على المحبوب ..

هذا راى ابن قيم الجوزية فى معنى المحبة ومنزلتها من التصوف ..

وعلى أيام رابعة العدوية .. لم يكن التصوف قد خرج من سذاجته الى التعقيد الفلسفى وصار مذاهب أو نظريات .. كان التصوف لم يزل فى بدايته ، وجاءت كلمات رابعة العدوية نقطا مضيئة من النور لا يجمعها خيط واحد سوى هذا الاستيلاء الكامل لفكرة الحب الالهى عليها ..

كانت شأن اى فنانة تشق طريقها فى الصخر ..

وكانت كلماتها تحمل عبق الفن والتوهج .. وتنوء باحزان غامضة كانت هى المناخ العام السائد أيامها فى المجتمع ..

لقد راينا كيف تحول المسلمون الى الفتنة ، وكيف سار الى الشهادة ازكى الرجال وارقهم نفسا .. ورأينا كيف ارتفعت السيوف وهوت فى العالم العربى وهى تشق قلب البراءة ..

وصنعت الاحزان خيمة على الشيعة وشواهم من المسلمين ، وكانت رابعة تبكى فى جوف الليل تحت خيمة الأحزان ..

سئلت عن حقيقة إيمانها فقالت :

ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته بل عبدته حبا له وشوقا اليه..

قال الشعرانى : كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ..

وقد راينا بدايات الشيعة والزاهدين وكيف شربت من أمطار الحزن ودموع الاشفاق ..

وفى عصر رابعة العدوية .. وهو نهاية القرن الثانى للهجرة ، كان الاسلام قد انتشر وخفقت رايته فوق ثلث العالم ..

ولكن الاسلام نفسه كان ينسحب من نفوس الرجال والنساء فى نفس الوقت الذى كان ينتشر فيه فى الأرض ..

وكان هناك نموذجان اسلاميان يومئذ ..

نموذج يعبد الله خوفا من النار ..

سبب العبادة هو الخوف من دخول النار ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها المتوهجة .. لأن الخوف لا يثير فى الفنان أكثر من الرفض والتحدى ..

وكان هناك نموذج آخر يعبد الله طمعا فى الجنة ..

وكان المجتمع الاسلامى يومئذ قد رفع قيمة الطمع سواء فى ذلك الطمع فى الرئاسات أو الحكم ، أو الطمع فيما عند الله ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها كفنانة .. فالطمع لا يثير فى الفنان أكثر من الرفض والاستعلاء ..

واذاً لا يبقى امامها الا ان تشق مجراها الجديد ..

لن تعبد الله خوفا .. ولن تعبده طمعا ..

هذه تصرفات الأجير الخائف أو الأجير الطامع ..

تريد أن تعلو على النموذجين التقليديين الذائعين فى المجتمع ..

واختارت ما يختاره اى انسان يملك طبيعة فنية ..

انها تحب الله لأنها تحب الله ..

لا تخاف النار ولا تطمع فى الجنة ..

ثمة درجة اعلى فوق هاتين الدرجتين ..

الحب الخالص الذى يصعب على المحب فيه ان يتنفس ..

. . . .

كان عندها أحد الصوفية يوما فقال : واحزناه .

وردت عليه رابعة العدوية مؤنبة : لا تكذب وقل واقلة حزناه ، لو كنت محزونا لم يتهيأ لك ان تتنفس ..

. . . .

لو توقفنا قليلا عند تصور رابعة العدوية للحزن .. فسوف نفهم انها كانت امرأة من طبيعة خاصة ..

طبيعة فنية خاصة .. انها تفهم الحزن فلا تراه هذه الكآبة التى تنتشر على سطح النفس وتجعل الانسان هادئا صامتا منزويا ..

انما تنظر الى الحزن فتراه فى ابعد اعماقه .. شيئا هائلا يمنع الانسان من التنفس ..

هذا الغلو فى الحزن يتفق مع غلوها فى الحب .

ويفترض كثير من الدارسين أن كلاهما فى الحب الالهى يستمد اصوله من المسيحية ، وهناك نص خطير للسيد المسيح تداولته امهات كتب الصوفية يدور معناه حول المعنى الذى اوردته الأبيات المنسوبة اليها فى الحب الالهى ..

ولست ميالا لهذا الرأى ، لأن تشابه نظرة واحدة من الصوفية مع كلام السيد المسيح (لو افترضنا صحة نسبته اليه) تشابه النظرتين لا يعنى ان احدهما اخذ من الآخر ..

والأصح هنا ان يقال أن الاثنين يستمدان من مصدر اصيل ..

والمسيحية التى انزلت على عيسى عليه الصلاة والسلام هى الاسلام الذى انزل على محمد عليه الصلاة والسلام هى اليهودية التى انزلت على موسى عليه الصلاة والسلام .. **(ان الدين عند الله الاسلام)** بمعنى ان جوهر الأديان جميعا هو التوحيد ..

وفى هذا ليس هناك اى خلاف بين دين الهى وآخر ..

وفهم الانسان لدوره فى الحياة وضآلته امام الكون والله يقودانه الى ادراك عظمة الخالق وضعف المخلوق ..

ولا يملك الضعف أمام العظمة سوى الحب .. اذا أراد أن يتخلى عن الخوف والطمع ..

كان الحب هو الطريق الوحيد امام رابعة العدوية .. بسبب طبيعتها الخاصة المتأججة ، وظروف حياتها القاسية ..

ولا اتصور انها تأثرت بالمسيحية لأن الاسلام والمسيحية يتشابهان فى اصل العقائد كما انزلت من الله لا كما صارت اليه عند البشر ..

كل ما فى الأمر أن رابعة العدوية ـ بفطرة الفنان ـ ادركت ان الخوف من النار فقط اهانة لعظمة الانسان .. والطمع فى الجنة فقط سوء تقدير لعظمة الخالق ..

هذه أشياء .. الجنة والنار شيئان ..

وهى لا تريد ان تتطلع الى الاشياء ..

انما هى تريد .. من « ليس كمثله شىء » ..

وهى لا تخاف ولا تطمع انما تحب ..

والحب هو المجال الوحيد الذى يدع لعظمة الانسان قدرها من التواضع ويدع لعظمة الله قدرها من السمو والتعالى ..

أثارت اربعة أبيات . منسوبة لرابعة العدوية ، كثيرا من الجدل والخلاف ، ورأى فيها بعض المستشرقين نظرية جديدة فى التصوف الاسلامى ..

وسوف نلتقى فى بحار الصوفية بأبيات شعر عديدة ، وشعراء كثيرين ، وادباء وكتاب ، ومن المدهش ، انه رغم مرور عشرة قرون او أكثر على بدء الصوفية وتطورها ، لم ينظر احد من الباحثين الى الصوفى باعتباره فنانا .

انما كانت النظرة الى الصوفى دائما تعتبره رجل دين فحسب ..

وفى تصورى ان هذا ظلم للصوفية ورجالها ..

وسوف اشرح تصورى هذا واقدم إدلتى عليه ..

ان الصوفى انسان .. والانسان هو المخلوق الوحيد الذى يروعه الفرق بين الاشياء كما هى ، والاشياء كما ينبغى ان تكون .. ومن هذا الحنين للكمال يولد الفن .. والصوفى فنان بمعنى البحث عن الكمال ..

وليس فنانا بالمعنى المعتاد للفن ، أو المعنى المبتذل للكلمة ، وبهذا المنطق يخرج الفن الذى يرتبط بالغرائز أو يثيرها من اجل الكسب ، ويخرج اداء الأعمال الفنية ، ويخرج الامتاع والتسرية ، تخرج كل هذه الأنواع وامثالها من نطاق المعنى الذى اقصده ..

انما اقصد بالفن ابداع العقل الانسانى فى مجال الكتابة والشعر .. ونحن نعرف ان الكتابة والشعر تعبيران .. وكون الفن تعبيرا لا يعنى انه تعبير مبسط عن المشاعر والأحاسيس فقط ..

انما نقصد هنا كل أدب أو شعر رفيع يثرى قارئه ويزيد من تجربته ويسمو بمشاعره ويطهره كما يقول ارسطو .

والفن امر بالغ التعقيد كالانسان .. والانسان هو اكثر مخلوقات الله تركيبا وتعقيدا ، وليس خلقه بهذا الشكل الا دليلا على عظمة خالقه وقدرته سبحانه ، والفن موهبة يمنحها الله تعالى للانسان .. لحكمة يدريها هو سبحانه ، ويشبه الفنان رجلا دخل حجرة مظلمة .. حجرة لا يبدو فيها شىء ولا يظهر منها شىء .. ثم استطاع هذا الرجل ان يدير مفتاح النور ..

حين تسبح الحجرة فى الضوء يتغير منظرها على الفور .. تظهر فيها اشياء لم تكن ظاهرة ، ويتضح فيها ما كان خافيا ..

يشبه الفن هذه القدرة على اضاءة النور .. سواء كان النور داخلنا أو داخل الآخرين أو فى الحياة أو فى الكون ..

ان اضاءة النور تعنى اسدال الستار على الظلام ، تعنى اطلاق طاقة الكهرباء ، والكهرباء طاقة ، ولكنها مجهـولة تماما ، يدرس العلماء آلاف الحقائق عن الضوء ، ولكن أحدا من البشر لا يعرف سر الضوء .. ذلك العلم من شئون الخالق القوى العزيز الممتنع .

والفن سر يتوصل به الانســان الى الكشف عن مصــدر الطاقة .. واضاءة الحياة .. وحين نقرأ ونعرف يتســع وعينا للتجــربة ، ونرى افضل مما كنا نرى ..

وهناك فرق بين الرؤية الفنية والرؤية العادية ..

هو نفس الفرق بين العصفور والدودة .. والعصفور والدودة كلاهما خلق من خلق الله تعالى .. ولكن الدودة تسير على الأرض ، أو تسـير تحت سطح الأرض ، تصنع لنفسها أنفاقا فى طين الأرض وتسير .. أما العصفور فيملك القدرة على الطيران والتحليق .. ويملك القدرة على ان يرى مساحة أكبر مما تراه الدودة .. ولا فضل للعصفور على الدودة ..

فلا الدودة هى التى خلقت نفسها ملتصقة بالأرض ، ولا العصــفور خالق نفسه قادراً على الطيران ..

الفضل هنا أو هناك منسوب للحق .. عز وجل ..

والسر فى خلق الدودة دودة ، وفى خلق العصفور عصفورا .. هذا السر من أسرار الحق عز وجل ..

والفرق بين الرؤية العادية والرؤية الفنية هو الفرق بين رؤية الدودة ورؤية العصفور ..

يعيش معظم النوع الانســانى وذهنــه مغموس فى مشــاكل اللحظة الحاضرة ، ومتاعب الحياة اليومية .. لا يرى الا حاجات جسده ومشاكل نفسه .. وتجىء لحظة حاسمة ..

فينسحب هذا الانسان من كهفه الطينى ويطير وينظر ..

ان الرؤية الصوفية تتم حين يزاول الانسان نظرة عصفورية على الحيــاة ، اى حين ينسحب منها ولو للحظة واحــدة ، فيرى منها قدرا اكبر ، بدلا من بقائه محصورا ضمن البؤرة الضيقة ، بؤرة نظرته الدودية للاشياء ..

وهذه الرؤية هى نفسها الرؤية الشعرية أو الادبية ..

وليس الفرق بين تراث الانسانية الادبى والفنى وتراثها المعتاد غير الفرق بين النظرة العصفورية والنظرة الدودية ..

والصوفية هم الذين يملكون القدرة على الطيران والتحليق ورؤية الحقيقة ..

والشاعر أو الكاتب العظيم يملك نفس القدرة على التحليق ، ورؤية مساحة اكبر من الحقيقة ..

وليست مصادفة ان معظم الصوفية شعراء وكتاب ..

وميزة الكاتب العظيم حقا هى قدرة عقله على الوثوب من مستويات الانسان العادى ، وادراك القيم الشاملة ..

وحين يختزن الكاتب تجربة ما .. ويثبتها فى ذهنه أو روحه ، ويعيد خلقها من جديد بأسلوب وشكل وتعبير يختلف عن التجربة ، حين يقع هذا للكاتب يقع مثله للصوفى ..

ان تجارب القرب من الله عز وجل تختزن .. ويجىء التعبير عنها فى الشعر الصوفى .. يجىء التعبير عنها ، او عن المعادل الموضوعى لها ، فاذا نحن أمام تجربة جديدة ، ليست هى الصورة الفوتوغرافيــة للتجــربة الاصلية ، انما أمام اضافة جديدة كل الجدة ..

ولو سالنا عن هدف الادب والفن .. فسوف نتلقى عشرات الاجوبة ، ربما كان افضلها هو تاكيد الوعى الانسانى ، واثراء تجاربه ، واضــافة الجمال الى الحياة ، والبحث عن الحقيقة ..

وتختلف الحقيقة عند الكتاب والشعراء ، تبعا لاختلاف حظوظهم من العظمة ، وكلما ارتقى الانسان ادرك ان الحقيقة هى الله .

وكلما زادت عظمة الانسان ادرك ان الله هو الخير المطلق والحق المطلق والجمال اللانهائى وذلك هدف الآداب الرفيعة والشعر العظيم . .

ومن الصعب ان تجد مفكرا رفيعا او كاتبا انسانيا أو شاعرا كبيرا قد انصرف عن البحث عن الحقيقة ..

الادب العظيم يبحث عن الحقيقة ..

وكلما ارتقى الفنان الكاتب اقترب من الله عز وجل .. وكلما اقترب تحير وزادت دهشته وسجدت روحه ..

فى الصوفية شعراء وفنانون يكابدون تجاربهم الروحية وهم يسعون سعيا الى الله ..

كيف ننظر الى تراثهم فى الشعر ..

هل نعتبره فنا .. ام نعتبره دينا ..

لكى نجيب على هذا السؤال سوف نضرب المثال التالى :

لنفترض ان شاعرا قرأ القرآن ، واعجبه احد المعانى فى احدى الآيات ، وصاغ هذا المعنى شعرا .. كيف ننظر الى هذا الشعر .. هل نعتبره قرآنا لأن فيه جزءا من معانى القرآن ، أم نعتبره فنا ونلحقه بالشعر ونناقشه على هذا الاساس ..

ان الاجابة على هذا السؤال هى التى ستحدد نظرتنا الى شعر الصوفية وآدابهم والجواب بسيط رغم خطورة الآثار المترتبة عليه .

من الصعب أن نعتبر أى شعر عن القرآن قرآنا .. لأن القرآن قرآن والشعر شعر ، وليس القرآن شعرا كما قال مشركو مكة أو منافقو المدينة ، ويجب ان نناقش هذا الشاعر الذى صاغ معنى من معانى آية قرآنية ، يجب أن يناقش باعتباره شاعرا لا باعتباره رجل دين ، ولا يجوز أن نستنبط من هذا الشعر حكما شرعيا ، انما يستنبط الحكم الشرعى من النص القرآنى الأصيل ، كما اننا لا يمكن أن نتعبد بقراءة هذا الشعر ، وانما يجوز التعبد بقراءة الآيات القرآنية ذاتها ..

نمضى فى مثالنا الى مرحلة أبعد ..

لنفترض أن هذا الشاعر الذى قرأ القرآن ، وأعجبه معنى من معانى آياته ، وقرر أن يصوغها شعرا ، لنفترض انه لم يكتب المعنى القرآنى تماما ، وانما زاد فيه قليلا ، وأضاف عليه من خياله ، وتحدث عن تجربة سابقة له تؤكد ما يقوله ..

هل يناقش شعره على انه شعر رجل دين ، أو يناقش على اساس انه شعر متصل بمعنى دينى .. ولكنه فى نهاية الامر شعر ..

. . . .

نريد أن ننظر فى شعر الصوفية ونناقشه بهذا المنطق ..

انه شعر متصل بالدين .. وليس شعرا لرجال الدين ..

والفرق بين المعنيين خطير ..

والسر فى كل المنازعات التى وقعت بين الصوفية انفسهم او بينهم وبين غيرهم .. هو ان الناس اعتبروا شعراء الصوفية رجال دين يقولون الشعر ، ولم يعتبروهم شعراء يتحدثون فى الدين .. وبسبب هذه النظرة الخاطئة قتل الناس شعراء صوفيين بتهمة الزندقة والالحاد ..

وكانت تهمتهم الحقيقية هي اتساع الخيال وغرابته وعمق التجربة وتوهجها .

كما انه بسبب هذه النظرة اتهم رجال بما يخالف حقيقتهم ، لأن الناس نظرت فى شعرهم وادبهم واعتبرته دينا وحاكمتهم على انه دين ، امام قضاة من رجال الدين ، وكان المفروض ان يحاكموا على انه شعر ، أمام قضاة من النقاد والشعراء .

ان الدين معروف عند الله .. وهو الاسلام .. اسلام الانسان ذاته لله . ويدرك المسلمون ان دينهم يضمه كتاب هو القرآن .. والقرآن هو الكتاب الوحيد الذى يتعالى على التغيير والتبديل والمحو والاضافة والنقد والمناقشة .. اما غيره من الكتب فتخضع لما تخضع له الكتب من نقد وتحليل واضافة وتبديل ومناقشة ..

وبهذا المنطق سننظر فى الشعر الصوفى ..

ان الشعر الصوفى رؤية شعرية اولا .. وصوفية ثانيا ..

فن شكله الخارجى هو الشعر ..

ومضمونه الداخلى هو الحب الالهى .

وهذا الفن ينبع من فنان هو الصوفى ، وتجربة الصوفى رؤية ، وهى حال تعتريه ، ويصل اليها بالرياضات الروحية والاعتزال والتجارب والتحليق ، وثمة تجربة غنية تجرى فى دماء روحه ..

والتعبير عن هذه التجربة تم بالشعر ..

جوهر المعنى رؤية ، بينما الشكل الخارجى فنى ..

ثمة مسحة من الفن فى الرؤية وفى الشكل الخارجى ..

والصوفى فنان له رؤياه الدينية ..

وليس كل فنان صوفيا .. الا اذا بلغ درجة من الجدارة والتعمق الدينى .. واى رؤية صوفية ليست دينا ملزما ، ولا يجوز ان تكون ، ولا يصح ان تعامل معاملة الدين .

وسننظر فى الشعر الصوفى بهذا المنطق .

ما هو راى نيكولسون فى الشعر الصوفى ؟

ان رايه كان فخا عقليا منصوبا دخله كثير من الدارسين فى التصوف .. وسنرى ان راى نيكولسون هو راى تقليدى اعتبر الصوفية رجال دين اولا ، وناقش شعرهم بعد فصله عن الشعر ، والحاقه بالدين ، ولست

اتهم أحدا بسوء الطوية ، ولكن الاسلام قد أنكهه هذا الخلط الذى يضيف اليه ما ليس منه ، كما انهكته الحرب بين الصوفية والفقهاء ، كما أنهكته الخلافات بين الصوفية ذاتهم .. والحرب والخلافات أصلا مفتعلة ، لأن الصوفية أنفسهم يقولون أنهم أصحاب أحوال لا أصحاب أقوال .. وهذا يعنى أنهم أصحاب تجارب روحية ، ورؤى خاصة ، ولهم فنهم الخاص ، ومن الخطأ اضافة هذه الرؤى الخاصة للاسلام أو مناقشتها كجزء من الاسلام ، الاسلام واضح بين له كتابه ، وفى المسلمين فنانون كبار ، عبروا عن أنفسهم شعرا ونثرا .. ومنهم من تاه وشطح ، واضافة كل متاهات الصوفية وشطحاتهم الى الاسلام ، لا يمكن أن تكون صداقة للاسلام .

هذا عداء مستتر يختبىء فى ظل بحث علمى رصين ..

يعترف نيكولسون فى مقاله عن الشعر الصوفى « انه ليس بين الأشياء التى ابتدعها الصوفية لتحريك وجدانهم الدينى ما هو أقوى من « السماع» اى الاستماع الى الموسيقى والغناء ، وفى أخبار الصوفية حكايات تربو على الحصر ، وتقص علينا كيف كانت تعترى الواحد منهم حالة الجذب عند سماع بضعة أبيات من الشعر تتغنى بها احدى الجوارى ، وقد كان ذلك الشعر عادة من شعر الغزل غير الصوفى ، وكثيرا مايتشابه النوعان فى الظاهر ، الى حد أننا اذا لم نقف بطريقة ما على غرض الشاعر ، لا نستطيع التمييز بين قصيدتين احداهما يتغنى صاحبها بالحب الانسانى والأخرى بالحب الالهى » .

يريد نيكولسون أن يقول هاتين الحقيقتين :

١ ـ ان الصوفية متصلون بأهل الفناء لأنهم أهل سماع .. أى أنهم متصلون بأهل فن الشعر والغناء والموسيقى .

٢ ـ ان الشعر الصوفى يتشابه مع الشعر غير الصوفى ، الى الحد الذى يصعب فيه على عقل ناضج مثل نيكولسون أن يفرق بينهما ..

بعد هاتين الحقيقتين ينكر نيكولسون ان يكون الشعر الصوفى وليدا لوعى فنى أدبى .. رغم ما فى قصائده من جمال النظم ورقة الأسلوب وأناقته ..

ونحسب ان هذا الحكم غير صحيح ..

ولو مضينا مع منطق الباحث نفسه فسوف ننتهى الى عكس النتيجة التى انتهى اليها ..

ان الصوفية يحبون السماع ، وهم متصلون بأهل الغناء والشعر ،

وشعر الصوفيين الذى يمتلىء بالغزل يشبه شعر غير الصوفيين فى مجال الغزل .. ومن الصعب التفرقة بينهما ..

كيف لا يكون الشعر الصوفى وليدا لوعى فنى وادبى هو بالقطع وليد وعى فنى يقع فى مجال الرؤية الدينية ..

هو فن دينى .. فن نبع من تاثر المسلم الشـــاعر بالدين ، ولكنه ليس دينا وليس فيه وحى كما يقول نيكولسون .

يميل نيكولسون الى القول بأن قصائد الصوفية « وضرب مثلا بجلال الدين الرومى وابن الفارض وابن عربى » كانت نتيجـــة لوحى احـوال الوجد الصوفى .. وانها تشابه فى عرف علم النفس الحديث ما يسمونه « الكتابة الآلية ، ومن خصائص هذه القصائد الغريبة ان أوزانها وأنغامها واساليبها الرمزية ، كل هذه عوامل تساعد على انتقال أحوال الوجد التى يشعر بها الشاعر الصوفى الى سامعيه ، ويزداد أثرها فى الســـامع اذا انشدت ، كما تنشد عادة ، فى حفلات الذكر مصحوبا بالموسيقى .. »

هذا رأى نيكولسون ، وهو رأى نعارضه لسببين :

١ ـ ان مسالة وحى احوال الوجد الصوفى هى نفسها حالات الالهام والاشتعال التى تعترى الكاتب أو الشاعر حين يريد ان يعبر بالشـــعر او الكتابة .

٢ ـ ان تحديد خصائص القصائد الصوفية بانها تنقل احوال الوجد الى السامعين ، هو وصف ينطبق على الشعر عموما ، والأصل فى الشعر ان ينقل حال الشاعر ووجده واحتراقه الى السامعين .

وذلك أسلوب الفن وبغير هذه القدرة لا يكون الفن فنا ، او يكون ادعاء لصفة الفن دون حقيقته ..

أعلى طراز من الفنانين اذاً هم الصوفية ..

وهم ارفع النماذج لان فنهم يتصل بالحقيقة المطلقة الخالدة .. فهم اهل بحث عن الله ..

اهل حب لله ..

وشانهم شأن اى فنان يعبر عن حبه ان شعرا او نثرا ..

. . . .

اذا اتفقنا ان الصوفى فنان يجهده البحث عن الكمال الأعلى ، اى الله عز وجل واذا اتفقنا ان الصوفى يعبر عن شوقه الى الحق تعبيرا تدخل فيه الصور الأدبية كالنثر والشعر ، اذا اتفقنا على ذلك ، فما هو حظ الصوفية من الفلسفة ..

سنعثر فى عالم التصوف على فلاسفة ، وسنعثر فى بحار الصـــوفية على اعداء ألداء للفلسفة ، رغم ان فيهم فلاسفة بمعنى البحث عن حقائق الأشياء وحكمتها .. وسنعثر فى الصوفية على عقليات ناقدة اسـتوفت حظها من معرفة أصول النقد ودقائقه . رغم هذا كله ..

فليس هنـــاك قانون عام أو قاعـــدة عامة يمكن تطبيقها على جميع الصوفية .. حتى كلمة الفن ــ بمعناها الرفيع الذى اخترناه ــ لا يمكن اطلاقها عليهم بشكل عام .. فكل واحد فيهم نسيج وحده ..

وكل واحد فيهم فنان بمعنى من المعانى غير المألوفة أو المتعارفة .. والفلاسفة فيهم ليسوا فلاسفة بالمعنى التقليدى للكلمة ، بالعكس .. ان فيهم من يرتدى ثياب الفلسفة ويمسك أسلحتها لضرب الفلسفة التقليدية وهزيمتها ..

ولو تأملنا ثلاثة نماذج للصوفية لادركنا المعنى الذى نقصده ..

ان الغزالى .. وجـــلال الدين الرومى .. والحلاج ثلاثة نماذج من الصوفية .. وهب الله تبارك وتعالى كل واحد من الثلاثة موهبة البحث عن الحقيقة الالهية .. ورغم أنهم جميعا صوفيون ، الا أن كل واحد فيهم يختلف عن الآخر بشكل محدود وواضح ..

عرف الغزالى باسم حجة الاسلام ، لأنه استخدم عقله الناقد الجبار فى ضرب الفلاسفة وعلماء الكلام والانتصار للتصوف السنى القائم على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أما جلال الدين الرومى فيسمونه شاعر الصوفية الأكبر لأن موهبته كشاعر قد استخدمت فى التغنى بالحب الالهى استخداما بالغ الروعة .

أما الحلاج فقد قادته موهبته الى شطحات انهت حياته بالقتل .. وأسدلت على اسمه اكثر من تهمة اقلها الزندقة ..

وللثلاثة انتاجهم من الكتابة والشعر ..

كان الغزالى عالما وكاتبا حمل لواء الدعوة لحقائق الاسلام ..

وكان الرومى والحلاج شاعرين تغنيا بالحب الالهى ، على اختلاف فى درجة الموهبة ومضمون الفن .

يقول الصوفية عن انفسهم انهم أرباب أحوال وليسوا اصـــحاب أقوال ..

ومعنى العبارة ــ طبقا لرؤيتهم ــ إنهم لا يريدون أن يحاسبوا على أقوالهم ، وانما على أحوالهم .. من معانى العبارة أيضا ــ طبقا لرؤيتنا ــ

آنهم يريدون نفى صفة الفن عنهم .. والايحاء بانهم لم يقصدوا بكلامهم ان يتكلموا فحسب كما يفعل الفنانون ، وانما كان كلامهم تعبيرا عن احوال وتجارب تذوقوها ..

وهذا كله مفهوم ومقبول ..

وربما كان الفرق الناعم الرفيع بين الصوفى والفنان ان الصوفى اذا تكلم فانه يتكلم غير قاصد انتاج الفن ..

أما الفنان فيقصد انتاج الفن .

عدم اتجاه القصد الى انتاج الفن يبدع فنا لا مثيل له .. تماما مثلما تفيض احدى ازهار الفل بعطرها دون ان تقصد او تريد ..

هذه العفوية هى التى جعلت من تراث الصوفية الأدبى والشعرى فنا لا يقارن به شعر أو أدب آخر ..

واذا كان الفنان يرفض ان يستسلم وينجرف لمتطلبات الحياة اليومية ، بغيـة اكتشـاف حقيقة اعلى ، فان الصـوفى يفعل اكثر من ذلك بهـدف اكتشاف نوع أكثف من التجربة الروحية ..

والانسان يعيش عادة فى الحياة مشـدودا لاهداف معينة ، واحيانا تسجن الاهداف المادية الانسان داخلها ، وهذا هو السير فى الحياة على غير هدى ، حتى لو كان الانسان يحقق اهدافه فى الثراء او السلطان او السيطرة .. هذا كله ــ رغم النجاح المادى ــ سير فى الحياة على غير هدى ..

وفى اللحظة التى يقنع الانسـان وعيه بالتوقف عن السير على غير هدى .. فى اللحظة التى يدرك فيها الانسان أن الحياة ليست هى الانحصار فى الوجود المادى .. وليست هى ذاته ومتطلبات هذه الذات .. فى اللحظة التى يتخلى فيها الانسان عن نفسه ، ويوجه عقله نحو اوسع معنى ممكن لتجربة الحياة ..

فى هذه اللحظة يولد الفنان .. ويبدأ انتاج الفن ..

اذا ادرك الفنان أنه ينتج الفن بهدف انتاج الفن .. فنحن لم نزل فى منطقة الفن ..

اما اذا تجاوز الوعى الفنى ذاته متجها الى الله تعالى .. فنحن ندخل بحار التصوف ..

وهى بحار تتجاوز فيها التجربة الفنية حدود الحياة المادية كما تتجاوز حدود التجربة الانسانية ، فى محاولة للاتصـال بخالق الحياة والتجربة سبحانه وتعالى .

ولهذا السر .. سوف نجد فى الشعر الصوفى مذاقا ليس له وجود فى شعر الغزل ..

وليس صحيحا ما يقوله نيكولسون ان الشعر الصوفى والشعر الغزلى يتشابهان الى الحد الذى يجعل التمييز بينهما صعبا ، الا اذا وقفنا على غرض الشاعر .. ليس هذا صحيحا ..

الصـــحيح أن بينهما فروقا جوهرية .. وهى فروق يخفيها شكل القصيدة ولكن مضمونها يكشف عنها من القراءة الأولى ..

ان الشاعر الذى يتغزل فى امراة او يصف صورة حلوة من صـــور الوجود الانسانى ، ينفصل عن المراة او الصورة ليعبر عنهما ، وانفصاله لازم لانتاج الفن ، أما الصوفى الذى يعبر بالشعر عن تجربة ما .. فانه يتصل بالأشياء اتصالا غامضا ، ويتخلص من أواصر نفسه بهذا الاتصال .

وعلى حين ينفصل الفنان عن ذاته ليؤكد ذاته .. ينفصل الصوفى عن ذاته لتأكيد حقيقة أكبر من ذاته ..

وهذا التجريد يجعل الشعر الصوفى صعبا وغامضا ورمزيا ..

وصـــحيح ان الشاعر والصوفى الشاعر يســتخدمان أحيانا نفس المصطلحات .. كالخمر .. والشـــعلة .. والجمال .. والحسن .. والكأس .. والحبيب .. هذا صحيح ..

ولكن .. نحن نعرف أن اللغة الانسانية اشارة الى شىء ..

وعلى حين يشير الشاعر لشىء .. يشير الصوفى لمن ليس كمثله شىء .. هذا الفرق يجعل شعر الصوفية فنا ليس له مثيل ..

يقول محمود شبستري ..

الخمر والشعلة والجمال كلها للحق مجال ..

هو الظاهر فى جميع الصــور ..

الخمر والشعلة للعارف جذبة ونور ..

فاشهد الجمال غير الخفى على احد ..

يريد الشاعر الصوفى أن يقول ان كل ما فى الوجود من جمال .. هو مجال لتجلى الحق بالجمال .. هو الظاهر فى جميع الصور .. كل ألوان الحسن تستمد الجمال منه .. هو سبحانه وتعالى الذى يوصف بالكمال

الأعلى ، وهو سبحانه الذى يضفى على الجمال حظه من الجمال :

الخمر والشعلة والجمال كلها حضور ..

فاحذر الاهمال فى معانقة هذا الجمال ..

واشرب خمر الفناء لعلها فى لحظة ..

تخلصك من أواصر النفس ..

اشرب الخمر فكاسها وجه الحبيب ..

يتحدث الشاعر الصوفى فى هذه الأبيات عن حضور الخالق سبحانه وتعالى فى كل مجالات الجمال ..

ويتجاوز الشاعر الصور الى المصور المبارىء ..

ويحاول أن يتصل بمالا يمكن الاتصال به ونحن احياء .. ولهذا يشرب الشاعر خمر الفناء والمحو .. اذا تخلص من اواصر نفسه فهذا معناه أنه فى الطريق الصحيح الى الله ..

وهذا الفناء عن الذات وتأكيد الحق .. هو جوهر التجربة الصوفية . وليس للشاعر الصوفى صلة مباشرة بالفلسفة وان بدا أحيانا وهو يتدثر بثياب الفلسفة ، انما يدع الشاعر الصوفى قلبه يفيض بالمعانى المتعلقة بذلك الحب القاهر ، لأن الحب هو الأساس الحقيقى الذى قامت عليه الحياة وانسجم به ميزان الكون ..

. . . .

يقوم الفكر الصوفى على أساس فكرة الحب ..

حب الله تعالى للانسان .. وحب الانسان لله عز وجل .. وقديما طرح السؤال الأزلى ..

لماذا خلق الله العالم ، وهو سبحانه ليس محتاجا الى العالم ؟

اختلفت اجابات السؤال عند افراد النوع البشرى ، ولم يناقش السؤال كثير من الناس ، وان خطر على قلوبهم ، وظل السؤال يتنقل من عقل الى عقل .. حتى وصل الى الصوفية .

وأحال الصوفية السؤال الى القلوب قالوا ان ادراك سر خلق العالم ، وهو شىء كلى ، ادراك ذلك بعقل الانسان الجزئى أمر مستحيل ..

هذا السؤال ليس فى قدرة العقل أو تخصصه أن يجيب عليه ، هذا اختصاص القلوب ..

ان الله تبارك وتعالى ليس محتاجا الى العالم ، ورغم ذلك خلق العالم لماذا خلقه ان لم يكن هذا الخلق فيضا من فيوض الحب الالهى والرحمة ..

يورد القرآن الكريم نصاً فيه اجابة على سؤال خلق العالم ..

يقول تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبـــدون ، ما اريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

تحدد الآية الكريمة هدف الخليقة بالعبادة ..

عبادة الله تعالى ..

اليس شرفا أن يأذن الله لمخلوقات من تراب أو نار بأن تعبده سبحانه ، اليس تشريفا لتراب أن يرتفع لمقام الحب ..

ان عبادة الله تعالى تعنى الحب والطاعة ، اذا نظرنا اليها من جانب الانسان ، فاذا نظرنا اليها من جانب آخر ، كانت مجدا حقيقيا للانسان .

أو بعبارة اصح .. هى المجـــد الحقيقى الوحيد .. وما عداه وهم وصور .. مثلما ان الله هو الموجود الحق ، وما عـداه صـور تظهر ثم تموت ..

يدرك الصوفى أن الله تعالى خلق الانسان لأنه يحب الانسان ولهذا يبدأ سياحته فى بحار الحب الالهى على الفور ..

يقول جلال الدين الرومى ..

ها هو .. قد طلع بدرا لم تر السماء له نظيراً فى حلم أو يقظة وحوله هالة من النار الأبدية لا يقوى أى طوفان على اخمـادها يا رب .. لقـد اسكرتنى خمر حبك وتهدم كل شىء فى بيت جسمى الطينى لقد عمل الحب بيده القوية فى هدم بيوت الظلام من سقفها الى ارضها .. فلا يتسرب اليها الا بصيص من الأشعة الذهبية خلال الشقوق ..

وحين لاحت لقلبى لجة الحب .. القى قلبى بنفسه فيها .. وسمعت « لن ترانى » .

لا أريد ان اعقب بشىء على ابيات شاعر الصوفية الأكبر .. اى تعليق عليها يفسدها .. نحن أمام عطر يتصاعد أريجه من زهور الحب .. وهو عطر لا يمكن تفسيره الا اذا اعترفنا أن الحب هو سر الوجود وعلته الأولى عند الصوفية ..

يقول عبد الرحمن جامى ..

« فى الوحدة ، حيث الوجـود الموحش ، وحيث العالم سر فى باطن الحق محتجب باستار العدم ، كان « الوجود المطلق » المنزه عن « أنا » و « أنت » وعن كل اثنينية ، لم يكن ذلك الجمال معروفا الا لذاته ، تجلى لنفسه فى نفسه بنوره الأزلى ، وفيه من القوى ما يبهر العقول جميعا .

ولكن الجمال يأبى البقاء مختفيا ، لا تراه عين ولا يسعد به قلب .

لذلك فك عقاله وانطلق يفيض على الكون .. بصورة كل جميل . تلك طبيعة الجمال ، وذلك اصله ..

فاض على الوجود من عالم الطهر والصفاء ..

سطعت شمسه على الأكوان وملأت ما فيها من النفوس ..
كل ذرة فى الوجود مرآة تعكس صورته ..

تتفتح عنه الأزهار .. وتشدو به الطيور ، ويستمد النور من ناره الضوء الذى يجذب الفراش الى اقداره ..

حذار أن نقول هو الجميل ونحن عشاقه .. فلست الا المرآة التى تنعكس عليها صورته ويرى فيها وجهه .

هو وحده الظاهر وانت الباطن ..

والحب المحض ـ كالجمال المحض ـ ليس الا منه ، وهو يتجلى لك فيك ، فإذا لم تستطع ان تنظر الى المرآة ، فاعلم انه هو المرآة ايضا ، هو الكنز وهو الخزانة .

اما « أنا » و « وانت » فليس لهما محل هنالك ..

تلك أوهام خادعة لا حظ لها من الوجود .. »

يريد الشاعر الصوفى أن يقول ان كلمة « أنا » و « انت » ليس لهما محل هناك أو يريد ان يقول ان كلمة « أنا » و « أنت » أوهام خادعة ولا حظ لها من الوجود .. أو يريد ان يقول ان الوجود الحقيقى هو الله ..

ويشير معظم شعر الصوفية فى مضمونه لهذه الحقيقة الكبرى .. ورغم اتحاد الشعراء فى المضمون الا ان اختلافات الأحوال التى تتعاقب عليهم ، واختلاف حظهم من الحب والشوق والفناء والصحو وموهبة التعبير ذاتها يجعل شعرهم يختلف من حيث الشكل .

ومهما يكن من امر فان شعر الصوفية هو سر عظمة الآداب التى ينتمى اليها الصوفيون ..

يرى الباحثون أن الشعر الصوفى الفارسي هو سر عظمة الأدب الفارسى .. ويرون أن أجمل ما فى الشعر العربى هو الشعر الصوفى ، أو يرون أن أرفع ما فيه هو الشعر الصوفى ..

ويدرس النقاد إشعار الصوفيين الفارسيين مثل أبى سعيد بن أبى الخير ، واشعار فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومى ، وعبد الرحمن جامى ، وفى اللغة العربية يرون أن قصـــائد ابن الفارض ترد فى الطبقة الأولى منه ، وهناك قصـــائد ابن عربى التى يرى نيكولسون أنها تمتلىء بالجمال رغم امتلائها بالغموض .. أما الشعر التركى فأجمل ما فيه شعر النسيمى الذى كان من المعجبين بالحلاج ..

وأهم خصائص الشعر الصوفى هى أهم الفروق بين شعر الصوفية والشعر البحت ، ان مشكلة القضاء والقدر ، ومشكلة معنى الوجود ، ومشكلة الشر ، من المشاكل العويصة التى حار فيها الشعراء ، وهى فى ذات الوقت من الأمور المحلولة عند الصوفية ..

يرى الخيام بعد سياحته فى الكون أنه قد عاد بجراب يمتلىء بالسخط. من الذى يخبره لماذا جاء الى الحياة ، ومن أجل ماذا يفارقها ، من الذى يخبره من أين جاء والى اين سيذهب ، وما هى حال الذاهبين يا ترى ، وأنت أيها الروح .. من أجل أى شىء سكنت فى هذا البدن ، ما دمت تنوى الرحيل على أية حال .. وماذا كان قصد من خلقنى وأحسن صورتى ثم القانى على المسرح الترابى ، لماذا يهلكنى بعد ذلك ويفنينى ، كأنه الخزاف يتأنق فى صنع القوارير ثم يضرب بها الأرض ..

وهذا الكون الشاســـع ما بدؤه وما نهايته ، كيف شرع الفلك يدور كأنه الطاس الذهبى ، وكيف سيندثر وينهار كأنه البناء الشامخ .. ألغاز وراء ألغاز تحير فيها الخيام وطفت حيرته فى رباعياته ..

جاء بى فى البدء مضطرا الى دنيا التراب

حائرا ما ازددت فيها غير جهل واضطراب

ثم وليت برغمى .. غــير دار فى ايابى

لم قد كان مجيئى .. ومقامى .. وذهابى

نحن أمام شاعر يسأل عن حكمة الوجود وسبب الخليقة .. ويتجاوز السؤال الى الشك فى فائدة كل شىء ..

ما أفاد الفلك الدوار ربحا من حيـــاتى

لا ولا زاد جمـــالا أو جـــلالا بوفاتى

انا لم اسمع مدى عمرى فى دار الشتات

ما هو المقصود فيها من حياتى ومماتى

لا يدرك عمر الخيام سر حياته ولا يعرف سرا لمماته .. وهذه الحيرة تسلمه الى الخمر والشراب .. ويحتسى الخمر فيرى الدنيا من خلال كأسه .. فاذا بلغته إنباء الدين الذى يأمر بالعـــدل وينهى عن غياب العقل ، صاح الخيام ..

ليست الدنيا مقـــاما لك او دار مثاب

فلبيب من غـــدا فيها ولوعا بالشراب

صب من ماء ابنة الكرم على نار الأسى

قبل ان تلقى وفى كفك ريح فى التراب

هذه المشكلة التى يحلها شاعر كعمر الخيام بالشراب والشك والاحساس بأنه مجبور جاء رغم انفه ، مجبور سيمضى رغم انفه ، هذه المشكلة تأخذ شكلا آخر فى إشعار الصوفية ..

ان الحيرة عند الشعراء .. تتحول الى سلام عند الشعراء الصوفيين .. ليست هناك حيرة وتنافر ، ثمة انسجام ويقين ، فالصوفى يعلم انه لم يأت مضطرا الى دنيا التراب ، انما جاء لحكمة عليا هى العبادة ، والعبادة حب لا يرى فيه المحبوب غير وجه الحبيب ..

والعبادة مجد لا يناله الا كبار العاشقين للحق ..

ومشكلة القضاء والقدر التى فتت فيها الخيام ذهنه محلولة تماما عند شاعر كجلال الدين الرومى .. وأسرار القدر المجهولة عند الشعراء معروفة عند الشعراء الصـــوفيين .. فبمقدار حب المرء لربه يكون علمه بأسرار القدر ، لأن الحب اسطرلاب يكشف أسرار السماء ، وهو الكحل الذى تكتحل به عين القلب فينجلى بصرها كما يقول جلال الدين الرومى .

والحب عند الشعراء الصوفيين هو الذى يرينا الشر خيرا ، او على الأقل يرينا الشر شرطا إساسيا لظهور الخير ، كما يبين لنا أن الشر لا وجود له على الاطلاق فى نظر الله .. أو بتحـــديد أدق .. ليس الشر أمرا بغير حكمة ، وليس ظلما يعيب الكون ، انما وجوده سر لاظهار الخير ، فمن طريق هزيمة الشر نصل الى الخير ..

الشر عند الصوفية طريق تسير فوقه نعالهم احتقارا له .. من اجل الوصول الى الخير ومن كمال الحب أن تتحـــد ارادة المحب والمحبوب ، وبهذا يذوب الفرق بين الجبر والاختيار ، وهذا هو معنى القدر عندهم ..

يقول جلال الدين الرومى ..

« من اجل الحب كرهت كلمة الجبر .. فان المجبور لا حب له ..

والحب الذى هو غاية القرب من الحق لا جبر فيه ..

هو ضوء شمس ساطع لا ظل سحابة قاتم » ..

ليس معنى هذا أن قلق الشعراء وحيرتهم أمر يفتقر اليه الشعراء الصوفيون .. وليس معنى هذا أن نظرتهم الى الحياة وغرضها ليست معقدة ولا مركبة وليس فيها هذا التركيب الفنى ..

هناك بناء بالغ التعقيد فى شعر الصوفية ، وهناك قلق وحيرة ، ولكن هذا كله يقود الى سلام نفسى عظيم .. يقود الى خمر الحقيقة المعنوية ..

يقول جلال الدين الرومى ..

مجهول انا عند نفسى .. بربك خبرنى ما العمل

لا الهلال ولا الصليب معبودى .. ولا انا كافر ولا يهودى

ولا فى الشرق ولا فى الغرب موطنى .. ولا لى قريب من ملاك ولا جن

ولا طينتى من تراب ولا طل .. ولا صورتى من ماء ولا زبد

ولا بالصين ولا بسقسين ولا ببلغار مولدى

ولا بالعراق ولا خراسان ولا الهند ذات الأنهار الخمسة منبتى

ولا طردت من عدن ولا يزدان .. ولا من آدم اخذت نسبتى

بل من مقام رفيع المقام .. وطريق خفى المعالم

تجردت عن بدنى وروحى .. فمن جديد احيا فى روح محبوبى

ينكر الشاعر الصوفى أن ينسب نفسه الى الأماكن أو الأشخاص أو الصور أو الأديان أو العقائد أو البلدان أو الأنهار ويثبت نسبه متصلا بشىء واحد .. انه يحيا فى روح محبوبه ..

انه يحب الله تبارك وتعالى .. هذا نسبه الوحيد .. ولأن الصوفى ينتسب الى الحب الالهى ، نرى مشكلة الموت تأخذ حجمين مختلفين عند الشعراء والشعراء الصوفيين ..

كان احساس الخيام بالموت يختلف كل الاختلاف عن احساس جلال الدين الرومى بالموت ..

وقف الخيام وسط حيرة قائطة وقلق قاتل ، واذا الظلمة الموحشة تتكشف عن شبح هائل مروع ، ينعقد لرؤيته لسان الخيام ، ويسد عليه مسالك الحيلة ويتعطل التفكير .. شيء لا كالأشياء ، جبار مخوف يلتهم كل شيء .. هو الموت ..

يقول الأستاذ عبد الحق فاضل فى دراسته الممتعة عن الخيام أن شبح الموت كان يتمثل لعينى الخيام حيثما التفت .. فهذا جسدك كان طينا لأجساد الغابرين ، وسيصير طينا لأجساد الآتين ، وهذه حياتك ليست الا موتا ، ففى كل ليلة يموت منها يوم .. وسوف تأكلك الأرض فيما بعد كما تأكلها اليوم ، فان كان غرك انها لم تأكلك بعد فاصطبر ، فما فات الأوان ..

صار عبق الموت يفوح أمام الخيام فى كل مكان وكل زمان وكل شيء ..

أصبح الخيام يرى الأجساد فى كل جماد ، يمشى على الأرض فيشفق ان يطأ العيون الناعسة والثغور اللعساء ، ويضع شفته على كأس الخمر الخزفية فيتوهم انه يقبل ترابا كان فى الأصل شفة كاعب حسناء ، تكلمه وتذكره انها كانت مثله ، ويرفع الخيام راسه الى شرفات القصور فيرى فى لبناتها كف مليك أو رأس وزير ..

اذا وقعت عيناه على كوز خزفى قال انه انسان باعتباره ما كان ، واذا ابصر انسانا قال انه كوز باعتبار ما سيكون ، واذا شاهد الوجه الجميل تذكر انه سيدفن فى التراب فتنمو منه الزهور ، واذا نظر الى الزهور قال انها نبتت من الوجه الجميل . ورب طين يركله الانسان بقدمه فيسمعه الخيام يقول مستعطفا « لقد كنت مثلك فارعنى وارفق بى » ، أو يسمع الطين يهدد الانسان قائلا « لا تركلنى فغدا تذوق الركل مثلى » ..

فيا ويح الخزافين يصفعون الطين ويلكمونه غافلين ، وما يدرون انه تراب الآدميين انظر الى هذه الوردة الرائعة ، تستيقظ مع الفجر وتقص حكاية لنسيم الصبا ، فما تكاد تتم حكايتها حتى تنتفض انتفاضة الموت وتهوى ، افهكذا فى عشرة أيام فحسب ، تنبثق برعما صغيرا حيبا كالطفل الوليد ، ثم تنمو كما تنمو الصبية الكاعب ، ثم تكتمل كما تكتمل الغادة الناهد ، ثم تموت .. يا لغدر الدهر ..

هذا موقف الشاعر من الموت ..

ما كره الخيام شيئا كما كره الموت ، ولا هاب شيئا كما هاب الموت ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت ..

يقول الخيام ..

حللت مشكلات الكون كلها

ووثبت من كل احبولة نصبها الخداع لاقتناصى
وفضحت كل الأسرار ..
الا سر الموت ..

وبسبب هـــذا الموقف من الموت ، وربما بسبب الموقف من الحياة ، تساءل الخيام عن جدوى الوجود بعد أن ذهب الشباب ، وحلت الأحزان .

ويرى انه لم يبق الا الأسف على العمر الذى مضى عبثا كما تمضى ليلة السكر ، ويصل الخيام الى إننا لعبة بيد الفلك ، لعب بنا برهة على مسرح الدهر ، فى حياة كلها خيبة آمال وقنوط ، ثم جمعتنا يده الجبارة واحدا واحدا وألقتنا فى صندوق العدم ..

ليت الانسان يعود بعد دهور الى الحياة ، ولكن هيهات ..

. . . .

اذا كان الشعر البحت يقول عن الموت انه غدر الدهر .. فان الشعر الصوفى يرى فى الموت رأيا آخر .. ربما لأنه يرى فى الحياة رأيا آخر ..

لا ينظر الشعر الصوفى الىالموت هذه النظرة المتشائمة التى ينظر بها عامة الناس أو عامة الشعراء ..

ليس الموت عند الشعراء الصوفيين نهاية حياة سعيدة ، وانما هو مقدمة حياة خالدة .. وبداية انطلاق اكبر فى سلم الخليقة .. والعمران لا يكون الا بعد خراب .. والكنز الثمين لا يستخرج الا بعد حفر الأرض واثارتها ، فاذا رأيت بيتا يهدم ويخرب ، فاعلم أن هناك بناء جديدا ، واذا رأيت ارضا تحفر فاعلم أن هناك كنزا وراء هذا النقص ، والشجرة لا تعطى الثمار الا حين تتفتح وتسقط الأزهار .. وحين تسقط الأزهار وتموت تبدأ حياة الثمار الجديدة ، وكذلك الروح لا تقوى ولا تلبس كسوة جديدة حتى يتهدم الجسد الفانى ، ويخلع العمر البالى .. والله تعالى هو الجواد المطلق ، وهو لا يسلب نعمة الا ويعطى نعمة اكبر منها فاذا سلب الحق تعالى الحياة الضعيفة السقيمة ، أعطى بدلا منها حياة أوسع وابقى واجمل وأرقى ..

يقول جلال الدين الرومى ..

« لماذا هذا الاشفاق من الموت ، ولماذا هذا الفرار من الأجل ، انك لم تزل فى انتقال من مرحلة الى مرحلة ، ومن عـــدم الى وجود ، ثم من وجود الى عدم ، ولم تزل تخلع لباسا وتلبس لباسا حتى وصلت منالعناصر الأربعة الى القالب الانسانى ، فاذا تشبثت بحالة وتمسكت بها ورفضت الانتقال منها الى حالة اخرى ، بقيت على بدايتك ، ولم تصل الى قمة الانسانية وذروة الكمالات الروحية والعلمية ..

ان الانسان لم ينل البقاء الا عن طريق الفناء ، فلماذا تفر يا هــذا من الفناء الجديد الذى هو مقدمة للبقاء الخالد .. ولماذا تتمسك بهذه الحياة وتلتصق بهــا مع انهــا تخلف حياة لا زوال لها ولا خوف فيهــا ولا احزان بها ولا متاعب ..

ان هناك فرقا بين موت وموت .. فالعارفون لا يقــاس موتهم على موت الجهــلاء والعامة .. ان العارف لا يتوجع لمفارقة هــذه الحياة ولا يحزن ..

ان الموت عند العارفين نفحة حياة » ..

. . . .

اذا كان الموت يخيف الانســان لأنه محــو لذاته او فناء لها .. فان الصوفى يسعى خلال حياته لمحو ذاته وفنائه ..

وهكذا يهرب الانسان من الموت ، ويهرع الصوفى الى الموت .. وهــكذا يقول الصوفيون فى كلماتهم الغامضبة الموحية ..

« موتوا قبل أن تموتوا » ..

فمن هذا الموت تولد الحياة الحقيقية

ويقصــد الصوفيون بالموت هنا .. موت الرغبة فى الدنيــا .. وفى الخلائق والعلائق .. وفى كل السوى .. اى كل ما سوى الله عز وجل ..

وفى هذه المرحلة ترد على الصوفى الكرامة ..

. . . .

والكرامة من المسائل التى تثير الخلاف عند خصوم الصوفيين وعنــد بعض أنصارهم ، يجحدها الخصوم وينكرها بعض الصوفيين أنفســهم والأفضل ان ننظر فى موضوع الكرامات قبل أن نخوض فى بحار القوم ..

ها هو ابراهيم بن إدهم ..

صوفى كان يعيش كالملوك قبل ان ينطلق فى الصحراء بحثا عن الحقيقة .

تقدم الفقر واستولى على ملابسه وسيفه الذهب وعباءته المرصعة بالجواهر .. ولم يترك له الفقر غير رداء واحد من الصوف الخشن الممزق .. ابراهيم بن ادهم جالس على شاطىء النهر وقد اخرج الابرة والخيط ليخيط ثوبه الممزق ..

ها هى الابرة تنزلق من يده الى النهر ..

ضاعت وضاعت معها فرصته فى رتق ثوبه .. اى فقر بعد هذا ..

فى المشهد رجل يتأمل ما يجرى أمامه .. كان هذا الرجــل يعرف ابراهيم حين كان بالغ الثراء .. ويقول الرجل فى نفسه .

ــ سبحان مغير الأحوال .. كان ابراهيم غنيا وصار فقيرا يثير الشفقة .. حين انتهى الرجل من الاعتراض فى قلبه على حال ابراهيم بن أدهم .. نظر ابراهيم بن أدهم الى مياه النهر وقال ..

ــ أين الابرة .

وعلى الفور خرجت من النهر الف سمكة ، كل سمكة فى فمها ابرة من الذهب ..

قال ابراهيم : أريد ابرتى ..

وخرجت من النهر سمكة تمسك الابرة ..

وأدرك الرجل الذى اعترض على فقر ابراهيم بن ادهم ، أنه لم يكن يدرك الى اى حد بلغه ثراء ابراهيم بن أدهم .

هذه كرامة من كرامات ابراهيم بن أدهم ، وربما عثرت عليها منسوبة لصوفى غيره ..

وهذا الأمر كثير الحدوث فى الحياة الصوفية ، اعنى نسبة الكرامة الواحدة لأكثر من صوفى ، أو ادعاء صدور الكلمة الواحدة من اكثر من صوفى ، ونحن نحسن الظن بأهل التصوف ، ونعتقد أن تلاميذهم هم المسئولون عن اضافة هذه الهالة عليهم .. سواء كانت الاضافة بحق أو غير حق ..

وموضوع الكرامات هو الخطوة الثانية بعد موضوع المعجزات ..

والمعجزات تصدر من الأنبياء ، اما الكرامات فتصدر من الأولياء ..

وموضوع المعجزات واضح ، والأصل فى المعجزة انها امر خارق بأمر الله تعالى بوقوعه على يدى نبى من الأنبياء او رسول من الرسل ، لتصديقه واقامة الحجة على قومه .

وتختلف معجزات الأنبياء من حيث نسبة الخوارق فيها ، فى الأنبياء من كانت معجزته طوفانا اغرق الكافرين ، وفى الأنبياء من شق الله تعالى له البحر او احيا له الموتى ، وفى الأنبياء من كانت معجزته ناقة ، وتشترك جميع معجزات الأنبياء السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها مؤقتة بزمان معين ..

فشق البحر أو احياء الموتى امران خارقان لم يعاصرهما غير أهل هذا الزمان البعيد .. على حين تنفرد معجزة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدوام .. فقد شاء الله تعالى ان تكون هذه المعجزة كتابا حفظه الله عز وجل من التدخل البشرى سواء بالاضافة أو المحو أو التبديل أو التحريف ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء ..

وكان عصره ايذانا بانتهاء المعجزات المادية المبهرة الخارقة ، وبدء لون جديد من عصور الرشد العقلى ..

وليست مصادفة أن تكون معجزة خاتم الأنبياء كتابا يرفع قيم العقل والنظر العلمى ويسخر من المقلدين لما كان عليه آباؤهم ..

. . . .

موقف الاسلام من المعجزات واضح ..

اقر كتاب المسلمين الذى أنزله الله كل معجزات الأنبياء السابقين .. وصحح حقائقها واوردها كما وقعت بحق ..

بل ان هناك معجزات تسكت عنها الأناجيل والتوراة .. ولم يسكت عنها القرآن الكريم ..

ان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام تكلم فى المهد ..

تكلم بعد ولادته خرقا للقوانين الطبيعية التى تجعل الأطفال المولودين لا يستطيعون الكلام قبل سنتين تقريبا ..

لم تورد الأناجيل هذه المعجزة ..

سكتت تماما عنها وأوردها القرآن فى سورة مريم .. فى موقف يؤكد أن اتهاما سخيفا قد وجه الى مريم فرد عيسى على الفور ..

وكان الرد معجزة من عيسى .. بوصفه نبيا وكرامة لمريم بوصفها من أولياء الله ..

يقول تعالى فى سورة مريم ..

« فاتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا اخت هرون ما كان ابوك امرا سوء وما كانت امك بغيا . فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا .. »

قال عيسى ابن مريم ٣٢ كلمة وهو مولود ..

واثبت بكلماته اكثر من حقيقة ..

نسف اتهام مريم الظالم بأنها بغى ..

واكد انه عبد الله الذى آتاه الكتاب وجعله نبيا مباركا وأوصاه باقامة الشعائر ..

واشار الى أن الله تبارك وتعالى قد جعل ميلاده وموته وبعثه سلاما عليه ..

هذه المعجزة تؤيد عيسى فى دعوته الى الله ..

وهى معجزة علنية شهدها الذين اتهموا مريم وشهدها الذين تجمعوا فى هذا الموقف من الفضوليين وما اكثرهم ، وحكاها هؤلاء بعد ذلك ، وربما يكون هؤلاء قد اسدلوا عليها ستارا متعمدا من الصمت ، فلم يذكروها تحقيقا لمصالحهم الخاصة فى انفرادهم بالشريعة وكجزء من خطتهم فى حرب هذا النبى الجديد ..

ولقد ذكر القرآن معجزات الأنبياء ، كما أشار الى معجزات الأولياء وذكرها ..

ومن الأولياء الذين تحدث القرآن الكريم عن كراماتهم مريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخ الله تبارك وتعالى فيها من روحه .. وكان من كراماتها ما يحكيه القرآن عنها ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » ..

قال العلماء كان يجد فاكهة الشتاء عندها فى الصيف ..

ومن الأولياء الذين يورد القرآن قصص ولايتهم هذا العبد الصالح الذى آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما .. وهو العبد الذى يعتقد بعض العلماء أنه الخضر ، ويختلف العلماء على درجته فمن قائل إنه نبى ومن قائل انه عبد صالح من الأولياء ..

وقد سار هذا العبد مع موسى وعلمه من علمه ولم يصبر عليه موسى . من الأولياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن بغير اشارة لأسمائهم .. هذا الذى عنده علم من الكتاب ..

قال تعالى فى سورة النمل ..

« قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى امين . قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم » ..

نحن فى مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام ..

يطلب سليمان احضار عرش ملكة سبأ .. عفريت من الجن يتقدم

لاحضاره ويحـــدد فترة من الوقت هى الفترة التى يستغرقها سليمان فى مجلسه ..

« قبل ان تقوم من مقامك » ..

الفترة ساعة أو شيء بين الساعات ..

لم يرض سليمان عن هذه الفترة .. ربما أشاح بيده أو بدا من ملامح وجهه أن فترة احضار العرش طويلة ..

عندئذ تقدم واحد كان يحضر المجلس ..

واحد لم يحدثنا القرآن الكريم عن اسمه ..

أشار اليه القرآن اشارة تزيده غموضا على غموض ..

« قال الذى عنده علم من الكتاب » ..

من الذى قال ؟

ما هو هذا العلم ؟

ما هو هذا الكتاب ؟

ثلاثة أسئلة لم يجب عليها القرآن .. تخطاها عمدا .. ولحكمة الهية .. فالأمر يتعلق بأمر خارق .. والجن قد عرض خدماته وسيحضر العرش فى ساعة من مسافة تبعد خمسة آلاف كيلو متر « من فلسطين الى مملكة اليمن » .. ورفض سليمان هذه الخدمة رغم أنها امر خارق ..

المطلوب شيء فوق طاقة الجن ..

من الذى يملك قدرات فوق قدرات الجن المسخر لسليمان .. لم يقل لنا الله تعالى ..

وسوف نلاحظ ان أولياء الله تعالى الذين اشار اليهم القرآن ، قد اشار اليهم دون ذكر أسمائهم ..

اخفى أسماءهم تماما ..

واخفى امكنة وجودهم ..

ودثرهم بسر خفى غامض ..

وليست هذه مصادفة ..

. . . .

أولياء الله الذين ورد ذكرهم فى القرآن قليلون .. منهم ولى ورد ذكره فى سورة الكهف ..

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هـــل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا » ..

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد هو الخضر ..

ولو التصـــقنا بالقرآن الكريم كمبدأ ومنهاج .. فسوف نلاحظ أن الآيات قد اغفلت ذكر الاسم ..

وما يورده القرآن يورده لحكمة .. وما يسكت عنه يسكت عنه أيضا لحكمة « وسبحان الله عز وجل » ، والقرآن كنز من كنوز الحكمة ، ومعنى سكوت القرآن الكريم عن ذكر الاسم ، أن الله تعالى لا يريد أن يحدثنا عن اسم هذا العبد . جعل الله تعالى اسم العبد سرا كعلم هذا العبد ..

وترك الفضول فى هذا المجال من آداب العارفين بالله ..

ومن كمال السر الا نسأل من هو هذا العبد الصالح ..

. . . .

أيضا يرد ذكر ولى آخر من أولياء الله فى سورة النمل ..

« قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليـــك طرفك » ..

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد هو آصف بن برخيا .. وقد استغلت الأساطير الدينية موضوع الخضر فجعلته يعيش الى يوم الساعة ، وجعلته يقابل كثيرا من الصوفية ويجرى معهم أحاديث ويحـــدثهم ويحدثونه ، ولم تهمل الأساطير الدينية موضوع آصف بن برخيا ، فجعلته طرفا فى مسائل عـــديدة ، رغم انه كان موجودا فى زمن سليمان .. ونحن نأبى الدخول فيما لم يرد فيه نص ، كما نأبى أن نقحم فضولنا على قرآن الله ..

لقد تعمد القرآن الكريم ان يورد اشارة لهذا العبد الصالح دون أن يذكر اسمه .. سكت القرآن عن ذكر الاسم لنفس السبب الذى سكت فيه عن ذكر اسم العبد الذى صاحبه موسى ..

اتصلت قدرة العبد الذى يحضر مجلس سليمان مع علم العبد الذى صاحبه موسى ..

أحدهما يملك قدرة تعجز عنها قدرة الجن ، والآخر يملك علما يعجز عنه صبر نبى من أولى العزم .

صاحب سليمان أوتى قدرة تتصل بأسرار الله عز وجل ..

وصاحب موسى يملك علما يتصل بأسرار الله عز وجل ..

نحن اذاً نبحر فى منطقة أسرار ..

ولهذا تختفى الوجوه وراء اقنعة وأستار ..

ولهذا لا يورد القرآن أسماء الأولياء ..

اذا كنا لا نصدق فلنمض معا فى رحلتنا مع الأولياء الدين يورد القرآن لمحات من قصصهم ، سنلاحظ أنهم يظهرون بغير اسماء . احيانا يصفهم المولى بصفات .. ولكن أسماءهم تظل سرا ..

أهل الكهف ..

اليسوا من أولياء الله الصالحين ..

انهم باتفاق العلماء ليسوا انبياء .. فهم فتية آمنوا بربهم .. وهم من آيات الله العجب ، وكرامتهم من الكرامات المدهشة فى التاريخ البشرى .

« أم حسبت أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . اذ اوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشدا » ..

لا يذكر القرآن اسماء هؤلاء الأولياء ..

وهو يتجاوز عمدا عن ذكر اسمائهم لاتصال امرهم بآية من آيات الله العجيبة .. وهو لا يحدثنا فى بداية القصة عن السبب الذى جعلهم يأوون الى الكهف ، انما يبدأ قصتهم بدعائهم عند دخول الكهف ..

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشدا » ..

واضح انهم يسألون الله ان يفيض عليهم من رحمته .. وان يهيىء لهم من امرهم رشدا .. نفهم انهم مقدمون على عمل خطير ويخشون مطاردة شىء بالغ القسوة ، وربما امتـــدت يد هذا الشىء اليهم وعثرت عليهم فى مكانهم .. لم يكد دعاؤهم ينتهى حتى ضرب الله على آذانهم فناموا ..

ضرب الله على آذانهم ..

تأمل هذا التعبير باعجازه واسراره .. نعلم الآن ان صلة النائم بالحياة واليقظة هى الأذن .. اى صوت يصل الى المخ من الأذن يوقظ النائم ..

واى ضوء يسقط على العين يترجم ويصل الى المخ فيوقظ النائم ..

فاذا كنا امام قوم ضرب الله على آذانهم فنحن أمام ناس لن تستيقظ الا اذا ارتفع الحجاب المضروب على الأذن ..

« فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم اى الحزبين أحصى لما لبثوا امدا » ..

استمر الحجاب على آذانهم سنين عددا ، سنعرف فيما بعد من السياق القرآنى انها كانت ٣٠٩ سنوات ..

هل ينام ناس أكثر من ثلاثمائة عام .. لو نام الانسان أياما متتالية هلك من الجوع ..

لكن هؤلاء ناموا أكثر من ثلاثمائة عام واستيقظوا جائعين ..

ما هذا السر ..

كيف وقع ما وقع ..

نحن أمام سر هائل .. حياة ولا حياة .. موت ولا موت .. ناس نائمون وليسوا نائمين ..

كيف دقت قلوبهم ٣٠٩ سنوات ، كيف تنفسوا طوال هذا الوقت .. كيف أطاعت أجهزة أجسامهم هذه الفترة الطويلة واستمرت فى العمل كأن الثلاثمائة سنة ليل عادى واحد ..

نحن أمام عمل الهى خارق .. أمام كرامة من كرامات الأولياء .. ولم يحدثنا الله تعالى كيف ناموا هذه الفترة ثم استيقظوا بشكل عادى .. يتصل هذا الأمر بمشيئة الله ..

لقد أمر الله تعالى .. وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ..

ما هى قصة أهل الكهف بالحق ؟

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا » ..

هذه قصتهم بالتفصيل ..

يحكيها القرآن بالتفصيل ..

انهم فتية يعيشون وسط مجتمع كافر يعبد من دون الله عز وجل آلهة متعددة ، ولا شك أن هذا المجتمع يريد أن يقهر هؤلاء الفتية على عبادة الأوثان والأصنام .. وربما اتهمهم المجتمع بالخروج على نظامه لأنهم يعبدون

الله ، لا حل أمامهم غير الخروج والهجرة .. ولكنهم لا يعرفون إين يذهبون .. واحساسهم بأنهم مطاردون أمر واضح .. ويلجأون الى الكهف للاستتار والاختباء ريثما يفكرون .. دخلوا الكهف فناموا ..

ضرب الله على آذانهم فناموا .. ولعبت الشمس دورا فى المعجزة ..

« وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله » ..

تحدثنا الآيات أن الضوء لم يكن يصل اليهم .. فقد كانت اشعة الشمس تتجنب الكهف وتميل عنهم فى الشروق والغروب .. ولكى يبدد النص القرآنى الغرابة التى يمكن ان تنشأ فى النفس من هذا الأمر الخارق .. يضيف قوله : **« ذلك من آيات الله .. »**

لا غرابة اذاً ما دام الأمر معلقا بآية من آيات الله ..

« من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » ..

يريد النص أن يقول أن هؤلاء الفتية من اوليائه المهتدين .. ولهذا وقعت لهم الكرامة .. بعد أن ازال النص كل سبب للدهشة ، ببيانه ان الأمر آية تقع لمن هداه الله وتولاه .. عاد النص يورد ما هو أدعى الى العجب ..

« وتحسبهم أيقاظا وهم رقود .. »

نظن إنهم أحياء والحقيقة انهم موتى ..

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ..

رغم انهم موتى الا أنهم يتقلبون .. وهم ليسوا موتى لانهم يتقلبون .. وليسوا أحياء لأنهم لا يقومون .. وليسوا وحدهم فى الكرامة الخارقة التى وقعت لهم فمعهم كلب ..

« وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » ..

ان الكرامة التى وقعت للبشر .. وقعت لكلبهم الذى أحبهم وتبعهم الى الكهف .. وبهذا الحب للأولياء دخل الكلب تاريخ الكرامات كما دخلت نملة سليمان وناقة صالح وحوت يونس تاريخ المعجزات ..

ورغم انهم رقود .. رغم انهم لا يقومون كالموتى ويتقلبون كالاحياء ، رغم ذلك تطول لحاهم واظافرهم بشكل مستمر .. ويتحول منظرهم الى شيء يخيف ..

« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » ..

ومر الوقت ..

مرت ٣٠٩ سنوات ..

ثم بعثهم الله من هذا الموت العجيب الذى تعمل فيه أجهزة الجسم ويطول الشعر واللحية والأظافر ..

بعثهم الله ليعلموا أن وعد الله حق .. يستخدم النص القرآنى لفظ « وكذلك بعثناهم » اشارة الى أنهم كانوا موتى ..

ولقد تساءلوا حين بعثوا كم من الوقت مر عليهم وهم نيام .. **« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم كم لبثتم . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم »** ..

اتفقت الآراء أنهم لبثوا يوما أو جزءا من يوم .. ثم اختلفوا فى تحديد الوقت فأرجعوا الأمر الى الله .. وقالوا ان الله أعلم بما لبثوه .. أحسوا بالجوع فقرروا ارسال أحدهم ليشترى لهم طعاما ، وأوصوه أن يتخفى حتى لا يقع فى قبضة السلطة الحاكمة الكافرة التى تهددهم بالقتل ..

« فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذاً أبدا ! » ..

حتى الآن يخفى الله تعالى عن الفتية المطاردين حقيقة الوقت الذى لبثوه نائمين ..

كانوا يتصورون حتى هذه اللحظة أنهم قضوا يوما أو بعض يوم .. وكانوا يتصورون أن نقودهم وأوراقهم المالية تصلح لشراء طعام ، كانوا يجهلون مرور أكثر من ثلاثمائة سنة على نومهم ، وكانوا يجهلون أن نقودهم قد تحولت الى عملة أثرية ..

هذه العملة الأثرية هى التى قادت الى اكتشافهم ..

عثر الناس عليهم وعرفوا أنهم ناموا هذه الفترة ..

« وكذلك أعثرنا عليهم » ..

المفاجأة هنا مزدوجة ..

فوجىء الناس أن هناك من يخرج عليهم من وراء ثلاثمائة سنة ليشترى طعاما بنقوده الأثرية ..

وفوجىء الفتية الأولياء أنهم ناموا أكثر من ثلاثة قرون ..

وكانت هذه المفاجأة المزدوجة سبيلا لاكتشاف حقيقة كونية يجهلها كثير من الخلق ..

هذه الحقيقة أن وعد الله حق ..

وعد الله أن ينصر أولياءه ..

وعد الله أن ينصر الخير على الشر .. مهما نفش الشر أسلحته واستعلى وظن أنه الأقوى والأغنى والأثبت ..

« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » ..

لم تكن كرامة هؤلاء الأولياء قد أثمرت ثمرة واحدة فقط .. كانت هناك ثمار كثيرة فى الشجرة ..

عرف الناس أن هناك من نام منذ ثلاثمائة عام وتسع سنوات ثم استيقظ ..

وعرف الأولياء أن تطورا خطيرا قد حدث فى مدينتهم الكافرة ، ان السلطة التى طاردتهم بتهمة الخروج على قوانين عبادة الأوثان ، وكانت تعد لهم القتل رجما بالحجارة ، هذه السلطة قد سقطت منهزمة أمام المؤمنين بالله .. أسفرت المعركة عن انتصار الخير فى النهاية .. لم يشهد أهل الكهف هذا الانتصار لعقيدتهم .. ولكن الأجيال التالية شهدته ..

كان هروبهم الى الكهف هو المقاومة الوحيدة الممكنة فى زمنهم لكثرة الكافرين وقلة عددهم .. كانت هذه السلبية هى الحل الوحيد المتاح لهم ، ثم مرت الأيام ، وزاد عدد المؤمنين وحاربوا الكافرين وانهزمت دولة الأوثان وجاءت سلطة تؤمن بالله .. واذاً فان المعارك بين الخير والشر محسومة مقدما ومعروفة النتائج مقدما ..

ينتصر الخير وان طال الوقت واستحكم اليأس وراود العقل التفكير فى الهرب ..

ويتحقق وعد الله بانتصار الخير كما وعد ..

ويعرف الناس ان الحياة والموت والبعث امور من امور الله عز وجل ، والموت ليس نهاية للحياة .. وليس عدما محضا كما يتوهم الواهمون ، انما هو نوم تليه يقظة .. ورقود يعقبه بعث .. وها هى كرامة أهل الكهف تثبت فيما تثبته حقيقة البعث والنشور ..

فما هو الفرق بين نوم يستمر ثلاثة قرون أو نوم يستمر عددا اكبر من القرون .. ان القدرة القادرة هنا أو هناك هى نفسها قدرة الله عز وجل .

. . . .

حين تتعلق قدرة الله تعالى بشيء ، تخرج قوانين هـــذا الشيء عن طبيعته المعتادة التى خلقها الله ، وتخضع بخروجها لمشيئة الله الطليقة .. هو اذاً خروج من الله الى الله ..

حين انشق البحر امام موسى ، وليس من طبيعة البحر إن ينشق ، كان هذا الأمر الخارق خروجا من قوانين البحار الى مشيئة الله .. وهذه المشيئة ذاتها هى التى قضت فى الأزل أن يكون البحر بحرا فلا ينشق موجه الا بمعجزة ..

وحين أحيا عيسى الموتى امام اعين النـــاس ، خرج هؤلاء الموتى من طبيعة الموت التى تقضى بعدم القيام الا يوم البعث ، وكان خروجهم خاضعا لمشيئة الله عز وجل ..

وحين نام أهل الكهف أكثر من ثلاثة قرون ، واستيقظوا من نومهم ، وليس فى الطبيعة البشرية نوم كهذا أو يقظة كهذه ، حين وقع هذا خضع أهل الكهف لقانون الخوارق .. وهو قانون غامض يتبع مشيئة الخالق تبارك وتعالى ..

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد بسط أمام أعين الناس قوانينه فى الكون المخلوق ، وامرهم بتتبع دقائقها واكتشاف حقائقها ودعا الى النظر والسياحة والتأمل والاكتشـــاف ، فانه سبحانه قد أخفى قوانينه التى تتصل بالخوارق وحجبها وراء ستائر السر وأقنعة الخفاء العظيم ..

وحكمة ذلك واضـــحة ، فالخوارق تتصل بمشـيئة الله ، وليست مشيئة الله تعالى شيئا مخلوقا كالكون وعلاقاته ، انما هى أمر يتصـــل بالذات الالهى ويصدر عنها .. والأسئلة هنا ليست جائزة ..

ولهذا السبب لا نعرف كيف وقعت المعجزات .. لا نعرف كيف انشق البحر لموسى ورفع الجبل له ، ولا ندرى كيف نهض الموتى حين امرهم عيسى ولا نفهم كيف أهلك الله الكافرين القدامى بالصيحة أو الصرخة ، ولا نستطيع أن نصل الى القوانين التى حكمت بتـــدمير أصحاب الفيل الذين هجموا بجيشهم على الكعبة ..

أيضا لن نفهم طبيعة القوانين التى جعلت قوما ينامون أكثر من ثلاثمائة عام ثم يستيقظون وهم يحسون بالجوع ..

هذه كلها أمور خارقة ..

هى أسرار من أسرار الله ..

شاء الله أن تقع لحكمة أرادها سبحانه فوقعت كما شاء .. وليس من حق أحد أن يسأل كيف وقعت .. لأن السؤال عن كيفية وقوع المعجزة ، يشبه سؤال الله أن نراه ..

ان ابراهيم هو خليل الله تعالى .. « **واتخذ الله ابراهيم خليـــلا** » وموسى هو كليم الله تعالى .. « **وكلم الله موسى تكليما** » رغم مقام النبيين سأل ابراهيم ربه أن يريه معجزة احياء الموتى فسأله الله : أولم تؤمن ؟

وسأل موسى ربه الرؤية فقال : لن تراني وامتناع رؤية معجزة احياء الموتى كامتناع رؤية الله عز وجل ، لأن المعجزة هنا هي مشيئة الله ..

ورؤية الله تعني رؤية الذات ..

وكل ما تعلق بالذات والمشـــيئة والأسرار امور لا يقوى عليها الوعاء البشرى ..

« **واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولـكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبـــل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم** » ..

أراد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، **وهو خليل الله** عز وجـل ، أن يثلج قلبـــه **برؤية** يد القــدرة الخالقة وهي **تبدع امرا** خارقا كاحيـــاء الموتى ..

وسأله الله : اولم تؤمن ..

كان الله تبارك وتعالى يعلم أن ابراهيم مؤمن محب ، ولكن الحق يريد اقرار حقيقة تتصل بذاته ومشيئته ومعجزاته سبحانه ...

هذه الحقيقة هي استحالة رؤية هذا أو شيء من هذا لأنه ليس شيئا وليس كمثله شيء ..

وقد انبعث طلب ابراهيم كما انبعث طلب موسى من حب كبير لله ، وعبودية كاملة ، واخلاص عظيم ..

ولكن الأمر كان يتصل بذات الله عز وجل أو اسراره ولهـــذا لم ير احدهما ما أراد رؤيته ..

أمر الله ابراهيم ان يقطع اربعة من الطير ويفرق أجزاءها على الجبال ثم يدعوها اليه .. فتأتيه مستيقظة من الموت والذبح .. لو افترضنا أن ابراهيم نفذ ما امره الله به .. فما الذى سيراه ..

هل يرى السر ؟

هل يرى سر بعث الموتى من الموت .. ويعرف القانون الخارق الذى يسيطر على هذه المنطقة الغامضة ؟

لم ير شيئا ، لأن اقبال الطيور نحوه مستيقظة من الموت لا يضع عقله على اسرار معجزة البعث ..

أيضا كان جواب الله عز وجل لموسى مماثلا .. طلب موسى الرؤية .. وطلبها فى موقف حب عظيم ..

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين » ..

أفهم الله تعالى موسى ان طلبه الرؤية مستحيل ، ولكى يرفق بحبه الذى دفعه للتجاوز وطلب الرؤية ، أمره أن ينظر الى الجبل ، ثم تجلى الله على الجبل .. واندك الجبل واستحال ترابا ، وخر موسى صعقا ومات .. مثلما خر سليمان ميتا ، استخدم النص القرآنى تعبير « خر » للدلالة على الموت ، وكانت أول كلمات رددتها شفتى موسى حين بعث من الموت قوله : **« سبحانك .. تبت اليك » ..**

أدرك موسى أن الانسان المخلوق من تراب لا يقوى على الصمود لنور الله ..

وتاب موسى من طلبه الرؤية ..

كان يتوب من تصوره أن انسانا ـ كائنا من كان ـ يستطيع وهو ابن الفناء المخلوق من تراب ، أن يعاين أنوار الجلال الأقدس ..

تتصل مشيئة الله تعالى بذاته ..

وتظل أسرار الله تعالى أسرارا ، سواء منها ما تعلق بمعجزة احياء الموتى او شق البحر أو نوم يمتد ثلاثة قرون ..

. . . .

كانت الخارقة التى وقعت لأهل الكهف كرامة للفتية الذين هجروا مجتمعهم ، وكانت فى نفس الوقت معجزة عاينها الناس بعد ثلاثة قرون وتسع سنوات ..

وادرك هؤلاء واولئك ان وعد الله حق ..

ادركوا ان نصر الله تعالى لعباده حق ..

وذهبت دهشة المفاجأة وغرابة الصدمة ..

وعاد اهل الكهف الى الكهف ..

تسللوا الى الموت بهدوء كما تسلل احدهم الى القرية ليشتروا طعاما بهدوء ..

لم يعد لحياة أهل الكهف معنى ..

كانت حياتهم حتى الآن معجزة شاهدها الناس ، انتهى الوقت المحدد لحياتهم فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض ..

ومات الفتية الذين آمنوا بربهم وزدناهم هدى ..

هجروا مجتمعهم بكل ما فيه من علاقات واصدقاء واقارب واعداء ، وعادوا الى مجتمع لا علاقة لهم به ولا قرابة لهم فيه ولا اصدقاء ولا أعداء .. عادوا كأبطال الأساطير ..

خرجوا فى السر خائفين على دينهم ، ودلفوا الى الكهف فى صمت خشية أن يراهم أحد ، كانوا يخبئون سرا دون ان يعرفوا ، او كانوا هم انفسهم السر المختبىء الذى سيظهر بعد ثلاثة قرون وتسع سنوات ..

بعد أن ظهر السر واكتشفه الناس عاد للاختفاء ..

يعبر السياق القرآنى على نهايتهم ، ويضع القارىء إمام موتهم ..

نعرف انهم ماتوا من أختلاف الناس فى أمرهم ..

« اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم اعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا » ..

انتهى الأمر الخارق وبدأت ثرثرة الناس فيما لا قيمة له ..

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا » ..

اختلف الناس فى عددهم ..

واختلف أهل الكتاب فى عددهم ..

وقيلت اشياء كثيرة .. كانت كلها رجما بالغيب ولا تستند على اساس صحيح .. وليس لعددهم اى قيمة .. الا قيمة الفضول البحت ، وذلك إمر لا يعبأ به عقل جاد ..

ما قيمة عددهم ..

ان المعجزة قد تحققت بوقوع ما وقع لهم ..

ولن يزيد العدد فى كمال المعجزة شيئا ولن ينقص العدد من كمالها شيئا ..

تجاوز القرآن الكريم عن عددهم وامر بعدم المراء والجدل والسؤال ..
سؤال اهل الكتاب ..

وفى هذا المجال .. حيث لا زال الجو نديا بأصداء الكرامة المعجزة .. أحال النص القرآنى كل تصرفات الانسان على مشيئة الله .. حتى ما يريد الانسان فعله غدا ، ذلك شيء لا يقع الا بعد مشيئة الله .. هذه الاحالة على طلاقة المشيئة الالهية هى العمق الذى يكشف عنه البعد النهائى للقصة .

ولا قيمة لشيء بعد ذلك كالعدد أو الأسماء أو التفاصيل ..

« ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا » ..

بعد بيان حقيقة التسليم والدعاء .. ذكر القرآن الكريم عدد السنوات التى قضاها أهل الكهف فى كهفهم ، لأن العدد هنا جزء له دلالته فى المعجزة التى وقعت .. بل هو لب المعجزة ذاتها ..

« ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه احدا » ..

انتهت قصة أهل الكهف ..

انتهت بالتوحيد ..

توحيد من له غيب السماوات والأرض من له أسرار السماوات والأرض ..

. . . .

ليست مصادفة ان القرآن لا يحدثنا عن أسمائهم وعددهم ..

كانوا جزءا من سر الله ، وعلى السر ان يدثر نفسه جيدا فلا يكشف الا عبرته ..

ليس اهل الكهف هم وحدهم اولياء الله الذين يذكرهم القرآن بغير اسماء ..

فى القرآن آيات تتحدث عن أحد أولياء الله ..

لا تذكر الآيات له اسما ، وانما تذكره بصفته ..

« ذو القرنين » ..

والصفة تزيده غموضا وسرا ..

وهو صورة مقابلة لصورة اهل الكهف .. كان أهل الكهف مغلوبين على امرهم فارين بدينهم .. أما ذو القرنين فهو حاكم يقضى بين الناس وحكمه بلا استئناف ..

ورد ذكر ذى القرنين فى سورة الكهف بعد قصة موسى والعبد الربانى الصالح الذى لم يستطع موسى أن يصبر عليه ..

« ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا . فاتبع سببا » ..

سئل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، ويبدو ان السؤال صدر ممن سمع عنه من أهل الكتاب . ويبدو ان قصته كانت معروفة لأصحاب الكتب القديمة ، ويبدو أن الاساطير كانت قد لعبت دورها فى القصة ، وأورد الله تبارك وتعالى قصة ذى القرنين فى ١٦ آية من سورة الكهف ، وبدأت الآيات ببيـان ان الله مكن له أسباب الحكم والولاية .. وسنرى أنه منح حرية مطلقة ليعذب أو يعفو ، ولكنه اختار العدل الذى قامت عليه السماوات والأرض ..

« حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا » ..

يمنحه الله تعالى الحكم المطلق .. ويكل الى مشيئة ذى القرنين ان يختار ما يريد .. ما الذى اختاره ذو القرنين ؟ ماهو القانون الذى اختاره ولى مطلق الحرية وحاكم لا رد لقوته أو حكمه ..

« قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا »

اختار ذو القرنين قانون الشريعة .. من ظلم فسوف يعذب .. ومن آمن وعمل صالحا فله الثواب والطمأنينة .

هذا حكم الشريعة .. واجمل ما فى الحكم انه يتفق مع حكم الحقيقة .. فحين يموت من يموت ويبعث الموتى ويردون الى الله . فسوف يعذب الله من ظلم ويثيب من آمن ..

حكم ذو القرنين بحكم الله عز وجل ..

رغم حريته فى أن يحكم فيهم بما يشاء ..

كان مطلق المشيئة ، ولكنه قيدها بمشيئة الله عز وجل وعدله .

وهذه هى الولاية ..

وتمضى قصة ذى القرنين ..

« ثم اتبع سببا . حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا . ثم اتبع سببا »

وصل ذو القرنين الى مكان مجهول يرجحه العلماء بأنه خط الاستواء حيث تشتد حرارة الشمس ويعيش الناس وسط غابات حارة فلا يطيقون ارتداء الملابس (لم نجعل لهم من دونها سترا .. اشارة الى عريهم) .

وحكم ذو القرنين هذا المكان كما حكم المكان الأول .. ويؤكد النص القرآنى ان الله قد احاط بما لديه خبرا ..

بمعنى أن الله تعالى كان محيطا بأخباره عالما بأسباب قوته ممدا له بهذه الأسباب ممكنا له من الملك على كل حال ..

لم تزل رحلة ذى القرنين مستمرة ..

وصل بين السدين ..

« حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » .

من اغرب العبارات التى ترد فى قصة ذى القرنين هذه العبارة ..

ما الذى تعنيه ؟

حدثهم ذو القرنين عن الحق والباطل ، فوجدهم لايستمعون اليه .. او يستمعون اليه ولا يفهمون حديثه .. أو يستمعون اليه وهم مسجونون وسط خوف يمنعهم من الاستماع اليه أو تأمل كلماته .. كانوا يتعرضون لغزو دائم من جيرانهم . وهم يأجوج ومأجوج .. لا احد يعرف أين وقعت احداث القصة ..

ولا احد يعرف من هم يأجوج ومأجوج ..

يتجاوز القرآن عن الأسماء والأماكن والمعلومات التى لا تقدم ولا تؤخر الى عمق القصة وغرضها الأصلى .

« قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » .

لجأوا الى ذى القرنين بموضوع واحد .

طلبهم للحماية من يأجوج ومأجوج .. واجابهم ذو القرنين الى ماسألوه ..

وافهمهم انه سيجعل بين الجبلين حاجزا يمنع يأجوج ومأجوج من الهجوم عليهم أو اختراقه . .

واستجابة ذى القرنين لهؤلاء الذين لا يكادون يفقهون قولا ، يعنى ان الرفق كان جزءا مرادفا من حملة ذى القرنين ، العدل والرفق ، كما اراد

الله ان يكشف على يدى ذى القرنين أن الحماية من الله وان الطمأنينة منه ، وان الاسباب كلها منه **« قال ما مكنى فيه ربى خير »** .

يرد ذو القرنين القوة الى الله . .

ويشير فى نفس الوقت الى قانون الأخذ بالأسباب ، وهو قانون لازم للحياة على الأرض ..

« فاعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » ..

وبدأ تنفيذ السد .. قال ذو القرنين : **« آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى افرغ عليه قطرا فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا »** .

استخدم فى صنع السد قطعا من الحديد الكبيرة . واشعلت النار تحتها حتى تحول الحديد الى نار واحمر مثلها ، وافرغوا عليه النحاس المصهور فصار قطعة واحدة يستحيل اختراقها .

واثبت ذو القرنين لهؤلاء القوم ان السد قد انتهى .. ولن ينقبه احد او يخترقه احد او ينفذ منه أحد ..

حين انتهى ذو القرنين من بناء السد .. قال كلمته فى الولاية .. واحال الأمر كله الى مشيئة الله الطليقة ووعده الحق .

« قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكا وكان وعد ربى حقا » هذا عمق القصة البعيد ..

ان وعد الله حق ..

ترد هذه العبارة الموحية فى قصة أهل الكهف .

« وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق » .

وترد العبارة فى قصة ذى القرنين **« وكان وعد ربى حقا »** ..

ووعد الله تعالى هو عمق الولاية البعيد .

شيء مؤكد ان الولى انسان موصــول القلب بوعد الله ..

انه يصدق هذا الوعد ابتداء .. ويسـعى فى تحقيقه انتهاء ، ومن تولاه الله جعله سببا من أسباب تحقيق وعده ، واجرى على يديه اسراره .. واذاً فان الانسان حين يختار لنفسه ما شـاءه الحق عز وجل .. يتحول الى الولاية ..

هذا قانون الولاية الحاكم . اما عمقها البعيد فيتمثل فى التوحيد .. وقد أورد القرآن الكريم اكثر من قصـة لأكثر من ولى من أوليـاء الله ،

ورأينا هؤلاء الأولياء يختلفون فى كثير من التفاصيل والسمات كما يختلفون فى حظهم من الغنى والفقر ، ولكنهم جميعا صدروا من نبع واحد .. هو توحيد الله جل شأنه ، والسعى فى تحقيق وعده .

كان أستاذ موسى عالما بأسرار الحق .. ولم نكن نعرف هل هو غنى ام فقير ، واغلب الظن أن مركزه المالى كان غامضا كتصرفاته وان بات مع موسى بغير عشاء حين أبت القرية ان تضيفهما .

وكان اهل الكهف فتية من الشباب المؤمن ، واغلب الظن انهم كانوا متوسطى الحال ، أو كان معهم ما يكفى لاطعامهم حين نهضوا من نومهم فى الكهف .. لانهم ارسلوا أحدهم بورقهم ليشترى طعاما .

وكان ذو القرنين ملكا حاكما فى الأرض ، واغلب الظن انه كان غنيا ، فسياحته فى الأرض وقدرته على الفتح والحرب تعنى قدرته على الانفاق .

ولقد مر السياق القرآنى فى القصص السابقة مرورا عابرا على حظ هؤلاء الأولياء من الغنى والفقر .. لأن هذا الموضوع لم يكن له دور بارز فى القصة أو اثرها الموحى .

ثم ها هو السياق القرآنى ينقلنا فى قلب قضية الفقراء والأغنياء بقصة رجلين ..

احدهما فقير فقير ..

وثانيهما عظيم الثراء ..

القصة فى سورة اهل الكهف .. ومعظم قصص الأولياء فى هذه السورة ..والقصة تصور لنا حوارا بين عقليتين ، عقلية رجل فقير ولكنه من أولياء الله ، وعقلية رجل نظر فى ثرائه فاستكبر وظن أن البعث وهم والحساب اسطورة . .

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا وفجرنا خلالهما نهرا » .

أحد الرجلين فقير ..

والثانى غنى يملك حديقتين بديعتين ، فيهما زرع وأعناب ونخيل ونهر .. يرسم الله تعالى صورة لثراء قد استغنى بنفسه عن غيره : ان الماء موجود : فالنهر يجرى خلال الجنتين ، والشمس كائنة ، والتربة خصبة .. وكل شىء يؤكد دوام هاتين الحديقتين الى الأبد .

« وكان له ثمر » ..

كان شديد الثراء .. يرمز الثمر هنا الى وفرة الثراء ، ويرمز الى أن الحديقتين كانتا من حدائق الفاكهة ، ولم تزل حدائق الفاكهة أغلى الحدائق فى العالم ، ولم يزل كسبها أعلى كسب فى الأرض الزراعية ..

كيف يفكر صاحب الجنتين ..

وكيف يفكر الرجل الذى لا يملك شيئا .

« وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعـز نفرا » .

المتكلم هو الغنى ، والعبارة التى يقـولها تكشـف عن شخصيته من اللحظات الأولى .. فهو رجل شديد الكبرياء ..

ـ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا .

يريد ان يقول لصاحبه المؤمن انه افضل منه ، أو يرى انه افضل منه .. لقد نظر فى ثرائه وحكم لنفسه بالافضلية .

الكبرياء هو الخطيئة الأولى لصاحب الجنتين ..

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن أن تبيد هذه أبدا »

دخل الحديقة ونظر فى خضرتها وثمارها وأحس بالزهو .. وادلى بأول تصريح من تصريحاته الحمقاء ..

قال : ما اظن ان تبيد هذه ابدا ..

ظن أن هذا الثراء لن يزول ابدا ، تصور انه سيبقى الى الابد ثريا ، نسى أن اسباب الثراء والفقر بيد الله عز وجل .. توهم أن اسباب الثراء بيده هو ..

حين وصل الى هذه النتيجة ، لم يعد مؤمنا ..

خرج من الايمان ودخل خيمة الكفر ، ومن المنطقى اذاً أن ينكر البعث والساعة والحساب وكل أصول الايمان ..

« وما أظن الساعة قائمة »

مسألة الساعة والبعث مسألة يظن أنها وهم ..

« ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا »

حتى لو افترضنا جدلا أن هناك بعثا ، فعندما يبعث صاحب الجنتين ، فسوف يراعى وضعه كرجل غنى ، وسوف يجد جنتين افضل من جنتيه هناك ..

نحس بأثر السـخرية فى كلمته .. ونحس بكبريائه العظيم أمام ثرائه الابدى .

استمع صاحبه الفقير الى كلماته واقشعر بدنه .. ان ما يقوله صاحب الجنتين كفر .. وبدأ صاحبه يحاوره .

« قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » .

أفهم الرجل الفقير صاحبه الغنى أن ما يقوله كفر .. ولفت نظـره برفق الى معجزة خلقه من تراب ثم من نطفة ، وقام بتأنيبه فى كلمته الاخيرة **« ثم سواك رجلا »** ، وكأنما أراد أن يقول له ان الرجل لا يقول ما تقول ..

ان الرجولة التى تنسى أصلها الترابى ، أو تنسى أنها نطفة ، أو تتعالى على خالقها .. ليست رجولة ..

« لكن هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا » ..

اعترف الفقير بعبوديته لله .. وتوحيده له . وفراره من الشرك .. اى شرك ..

هل كان الغنى مشركا .

توحى الآيات القرآنية أن الغنى كان مشركا ، فهل كان يعبد آلهة وثنية يعتقد انها هى التى حمت جنتيه ؟ أم كان مشركا حين نسب الغنى الى نفسه وتصور أنه باق الى الأبد ربما تحقق السببان فى حقه ، وربما اكتفى بأحدهما ، وكلاهما شرك عميق .

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لاقوة الا بالله » ..

يعلمه الفقير هنا أصول الايمان وآداب استقبال النعمة .. حين تدخل حديقتك أو منزلك أو عملك أو كل ما هو مصدر رزق لك .. فعليك أن تقول :

ما شاء الله لا قوة الا بالله ..

بمعنى ان هذه مشيئة الله ، ولا قوة الا بالله ..

تنبع القوة من الله .

هو سبحانه مصدرها ..

وهو سبحانه القادر على سلبها ..

هذه هى حقيقة القوة ..

بعد هذه الاشارة العميقة الى خالق القوة والغنى والضعف والفقر .. عاد الفقير يحاور صاحبه فأفهمه أن عليه ألا يغتر بدوام النعمة ، ولئن كان الفقير أقل منه فى المال والولد ، فعسى الله أن يغنيه ، ولا ينبغى أن يأمن الغنى من عاصفة تحيل جنتيه الى خرائب ..

« ان ترن انا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . او يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا » .

لا شىء فى الدنيا ابدى ..

لا شىء على الأرض يدوم ..

لا الغنى يدوم ولا الفقر يستمر .. يقلب الله الناس فى صور شتى من صور الابتلاء .. وليس الفقر والغنى غير صورتين من صور الابتلاء ..

فى نفس الوقت الذى كان العبد المؤمن يحدث الغنى الكافر .. اشار العبد المؤمن الى نبوءة قاسية تتصل بصاحبه ..

مثل ريح غامض تنبأ المؤمن للكافر بأن جنتيه ستصيران الى الخراب .. سوف ينزل عليهما من السماء ريح مشئوم يحيل ارض الجنتين الى صحراء قاسية ، وسيجف ماء النهر ويغيب فى شقوق الأرض وتموت حياة النبات ..

بعد هذه النبوءة ، ينقلنا السياق القرآنى نقلة مفاجئة الى صورة الجنتين بعد أن تحققت النبوءة ..

« وأحيط بثمره »

يستخدم التعبير القرآنى لفظا له جرسه العسكرى ، يقول العرب حين ينهزمون « أحيط بالجيش » اى حوصر الجيش وأحاطه العدو وتحققت الهزيمة ..

استخدم القرآن الكريم هذا اللفظ لبيان هزيمة الرجل الذى اشرك بربه ..

انتهى الثمر تماما وأبيد .. وتغير حال الكبرياء فصار ذهولا حائرا متخبطا يبعث على الضحك .

« فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها »

المشهد ارض خراب .. نبعت من نفس خراب .. ثمة رجل يمشى وسط الخراب وهو يخبط كفا على كف ، ويقلب يديه ذهولا وحيرة .. ويكلم نفسه مثل مجنون **« ويقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا »** ..

اكتشف ــ والندم يعتصره ويجففه ــ أنه كان مشركا ، وتمنى لو كان مؤمنا .. أدرك أن الثراء الفاحش مع الشرك ينتهى الى الهزيمة والفقر .. وعرف أن لا شيء فى الدنيا يعيش الى الأبد ، كل شيء تطحنه دورة الميلاد والموت حتى الأرض .. أحيانا تدب فيها الحياة وأحيانا تموت .. أدرك أنه فصل نفسه عن قوة الله ومشيئته ، واتصل بما يظن أنه قوته الذاتية ومشيئته ، وحين فعل ذلك كان قد انهزم .

هزيمة ساحقة كاملة ..

هزيمة لا ينفع فيها نصر أحد او رثاء أحد أو عون أحد ..

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا » ..

بهذه الحقيقة الحاسمة انتهت قصـــة الرجلين .. الغنى والفقير .. انهزم الغنى حين فصل بين غناه وقدرة الله الغنى .. وانتصر الفقير حين شاءت ارادته ما شاءه الله تعالى لعباده من توحيـــده والايمان به وعبادته سبحانه ..

« هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ..

نريد أن نتوقف بالتأمل والاستغراق فى هذه الآية ..

هنالك الولاية لله الحق ..

هذه هى الولاية ..

هى التوحيد ..

وما وقع من تحقق نبوءة العبد الموحد ، كان سرا من أسراره كشفه له فرآه بعين البصيرة ..

يرى بعض العلماء ان هــذا الفقير الذى وردت قصــته فى إصحاب الجنتين كان وليا من أولياء الله ، ويدللون على ولايته بأنه رأى أمرا لم يقع بعد من أمور المستقبل ، وهذا هو الدليل على ولايته ونحن نعتقد انه ولى ، ولكننا نســند رأينا فى ولايته الى أمر أخطر من نبــوءته بما لم يقع بعد فى المستقبل .

هذا الأمر هو التوحيد

وصول هذا العبد الى عمق التوحيد وادراكه الممثل فى قوله **« لــكن هو الله ربى ولا اشرك بربى أحدا »** .

هذا معنى الولاية الحق ..

والدليل على قولنا قول الله تبارك وتعالى فى نهاية القصة .. **« هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ..**

يشير النص القرآنى الى ان الولاية الحقيقية هى التوحيد .

ويسند استقراء القرآن هذا الفهم .. ايضا تؤكده السنة .. كما يهدى اليه فقه اللغة العربية ..

كل آيات القرآن تؤكد ان الولاية هى الوجه الآخر لتوحيد الاسلام وعبودية الله .

قال تعالى : **((الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون))** ..

ونفى الخوف والحزن عن أولياء الله يعنى انهم قد تحصنوا بقلعة التوحيد والعبودية الحقة ، وهى قلعة من دخلها امن كل شىء .. يؤكد هذا الرأى قوله تعالى : **((فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما))** .

هذا العبد ولى من أولياء الله – قيل انه الخضر – وهو ولى لم يذكر النص القرآنى له صفة تقدمه للقارىء أكثر من كونه **((عبدا من عبادنا))** ذكر هذه الصفة وحدها والاقتصار عليها ليس مصادفة ، انما هو أمر مقصود ، فأصل الولاية الحقيقى هو العبودية لله ..

يقول تعالى **((ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة))** .

ويقول تعالى : **((الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور))**

وحين يربط القرآن قول من قالوا ربنا الله ثم استقاموا .. بالولاية .
حين يربط القرآن الذين آمنوا بأن الله هو وليهم ..

حين يفعل القرآن الكريم هذا يضع قاعدة الولاية وقانونها .

الولاية هى الايمان .. والاستقامة ..

ليست الولاية اذاً هى الاتيان بالخوارق .. ليس هذا صفة الولاية وليس هذا من خصائصها ..

صفة الولاية هى الايمان بالله ..

أما الخوارق فأمور قد تقع وقد لا تقع .. وليس وقوعها لازما للدلالة على الولاية ، كما ان عدم وقوعها ليس دليلا على عدم الولاية ..

بهذا الفهم السليم للاسلام نستطيع أن ننفض عن ثياب الصوفية ما علق بها من مبالغات فى نسبة الخوارق اليهم ..

اذا كان الايمان والعبودية والعلم بالله من صفات الولاية ، فما هو معناها .

يدق كثيرا معنى الولاية ..

اذا ذكرت عن الله عز وجل انصرف معناها الى الربوبية والحراسة أن عبارة « **الله ولى الذين آمنوا ..** » تعنى الله رب الذين آمنوا وحارسهم واذا ذكرت الولاية عن الانسان انصرف معناها الى العبودية والتوكل فاذا التقت مشيئة العبد بمشيئة الله عز وجل صار العبد وليا من أولياء الله ..

والطريق الى معنى الولاية يمر بطاعة الله عز وجل .. أو بمعنى أصح يبدأ بطاعة الله تعالى .

ورد فى الحديث القدسى الكريم قوله « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها » الى آخر الحديث

من معانى الحديث أن أولياء الله محروسون برعايته ، فمن عادى وليا لله حاربه الله ، ومن معانى الحديث أيضا ان الولاية تعنى القرب من الله ، وقد حدد نص الحديث القدسى أسلوب القرب من الله بأنه اداء النوافل ، وفى الاسلام لا تؤدى النوافل الا بعد الفرائض ، فمن أدى الفرائض والنوافل فقد تقرب الى الله ، بعد هذا القرب تجىء درجة الحب .. يحب الله تبارك وتعالى هذا الولى ..

فاذا أحب الله عبداً صار يسمع بالله ويبصر بالله ويبطش بالله ويسير بالله ويعيش حياتها كلها لله وبالله .

وفى السنة النبوية قصة توضح معنى الولاية .

وردت القصة فى البخارى فى كتاب بدء الخلق فى فصل حديث الغار .

حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ثلاثة اشخاص ممن كان قبلنا كانوا يسيرون فسقطت الأمطار فهرعوا الى كهف فسقطت صخرة ضخمة من الجبل فسدت عليهم الكهف ..

وادركوا إنهم حوصروا فقال بعضهم لبعض :

« انه والله يا هؤلاء لا ينجيكم الا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم انه قد صدق فيه » .

نريد أن نلاحظ تصوير الصدق كمعيار للنجاة فى الحياة . بعد هـذه العبارة بدأ كل واحد من الثلاثة يحكى حادثا صدق فيه ايمانه بالله ، وحكم تصرفاته هذا الايمان بالله .

قال أحدهم أنه كان يستأجر رجلا للعمل عنده ، فذهب هذا الرجل بعد أن ترك عنده نصف كيلة من الأرز ، فزرع المالك الأرز وجمع المحصول وباعه واشترى بثمنه ابقارا ، وأتاه الرجل الأجير يطلب أجره فلم يعطه نصف كيلة من الأرز ، وانما اعطاه ابقاره ، وقد فعل ذلك حساسية وخشية من الله ان يظلم احدا من خلقه .

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساحت عنهم الصخرة » ..

وحكى الثانى أنه كان له أبوان شيخان كبيران فكان يأتيهما كل ليلة بلبن غنم له ، فأبطأ عليهما ذات ليلة فجاء فوجدهما قد ناما ، ووقف باناء اللبن حتى استيقظ أبواه فى الفجر وشربا ، وكان له عيال جوعى استغاثوا به فرفض أن يسقى ابناءه الا بعد أن يشرب والداه ..

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساحت عنهم الصخرة » ..

وحكى الثالث أنه كان يحب ابنة عمه ، وراودها عن نفسها ، فأبت الا ان يعطيها مائة دينار ، فاحضر اليها النقـود ودفعها اليها ، ثم هم بهـا فذكرته بتقوى الله فانصرف بغير أن يعتدى عليها ناسيا نقوده .

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنـا ففرج الله عنهم فخرجوا » ..

. . . .

يحكى هذا الحديث النبوى قصة الأمر الخارق الذى وقع لثلاثة لجأوا الى غار فسقطت صخرة سدت عليهم باب الغار ..

ومن المدهش أن بعض المسلمين قرأوا هذا الحديث من نهايته ، أو قراوه ولم يفهموا الا السطر الأخير فيه .

السطر الذى يتحدث عن انسياح الصخرة ودحرجتها ونجاتهم .

وهذه القراءة الناقصة للاحاديث النبوية هى السر المسئول عن عدم فهمنا لمعنى الولاية ، أو عن خلطنا بين الولاية والخوارق ..

نحن أمام عمل ادى الى نتيجة ..

كيف نلتمس النتيجة بغير اداء العمل .

ان القصة الأولى فى الحديث النبوى تعطى صورة للأمانة الانسانية المطلقة ، وهى أمانة تتصل بالشئون المالية ، حيث يميل الأنسان عادة مع هواه ويؤثر أن يظلم غيره ، ولو أن صاحب المال اعطى العامل ما كان له من الأرز لما كان ظالما ، ولكنه أراد ان يكون صادقا فاعطاه ما صار اليه الأرز الذى كان له ..

أما القصة الثانية فتقدم صورة للبر بالوالدين ، وهى صورة تبلغ الذروة فى احسان البر بالوالدين ، ولو أن هذا الرجل الذى وقف باللبن حتى جاء الصباح فى انتظار أن يشرب والداه ، لو انه سقى اولاده الجائعين قبل أبويه لما كان ظالما ، ولكنه أراد أن يكون صادقا فى البر بوالديه فسقاهما أولا .

أما القصة الثالثة فتقدم صورة للعفة الانسانية ، فى البدء نحن أمام خطيئة تتهيأ للوقوع ، ولكن كلمة واحدة عن تقوى الله توقظ المخطىء وترده الى الصواب وتذكره بالله فينصرف بغير أن يرتكب خطيئته .

لو تجاوزنا سطح المعنى فى القصة فسنرى إنها رمز للامانة والبر بالوالدين والعفة .. وهى ثلاثة اضلاع لمثلث لا يكون الايمان ايمانا بغيره ، ولا يكون الاحسان احسانا بغيره ..

ولقد وقعت الأمانة والبر والعفة .. خشية من الله تعالى ومراقبة له وحبا فيه سبحانه .. « **فان كنت تعلم اني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا** » ولم يكن انسياح الصخرة ونجاتهم الا لأنهم صدقوا فى خشية الله ..

هذا هو مضمون الولاية الحقيقى ..

خشية الله عز وجل ..

وهذه الخشية ثمرة العلم .. قال تعالى « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » .

هذا المستوى هو الجدير بأن نتوقف عنده ونتأمله ..

المستوى الذى يظهر فيه سلوك الانسان المؤمن ..

أما مستوى العجائب والخوارق فنتيجة تترتب على السبب ، ومن الظلم للعقل أن نسقط السبب ونتوقع النتيجة ، او ننظر فى النتيجة ولا ننظر فى السبب ..

ولقد رأينا كيف حرص القرآن الكريم وهو يقص أخبار الأولياء على اخفاء أسمائهم واخفاء أمكنة وجودهم وتدثيرهم بسر الخفاء ..

ونفهم من هذا ان العبرة بمضمون الولاية لا بأسماء الأولياء .. كما ان المهم هو خشية الأولياء لله لا الخوارق التى يجريها الله على ايديهم ..

والحق ان أهم معنى للولاية هو الصدق مع الله ..

ومن المدهش أن يمتد الضباب لهذا المعنى فلا يبقى من الولاية فى عصرنا ـ بين عامة المسلمين ـ الا معنى الكرامة المثل فى الخوارق والعجائب ..

. . . .

ما هى الكرامة التى تقع لأولياء الله ؟

وما الفرق بينها وبين المعجزة ؟

وكيف ينظر كثير من المسلمين اليوم لكرامات الأولياء ؟

مطابع المختار الاســلامى
دار السلام

رقم الايداع ٧٩/١٧٦٣
ISBN ٩٧٧ – ٧٠١١ – ٢٠ – ٢

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيرا عن الحب .. هل هو الولع بالأسرار الكامنة فى مياه البحر .. اليس الماء اصل كل شىء حى ..

. . . .

قبل ان يبدا البدء او يكون الكون ..

قبل ان تصفع الشمس ظلالها على الأرض ..

قبل ان تخلق الأرض من انفجار كونى او ابتسامة كونية نتيجة امر يتالف من حرفين ..

قبل اى قبل ..

كان الله ولا شىء مع الله ولا شىء قبله ..

كيف كان ..

اين كان ..

افضل ان نذيب الأسئلة فى خشوع ماء يترجرج موجه بالسجود ..

« وكان عرشه على الماء » .

سبحانه وتعالى ..

كيف كان عرشه ..

هذا سر سكت عنه الحق ..

اين كان عرشه ..

هذا سر اجاب عنه الحق فزاد السر ولم ينقص ولم ينكشف « وكان عرشه على الماء » ..

اى ماء .. اين كان هذا الماء ..

اسرار وراء اسرار ..



احمد بهجت

مطابع المختار الإسلامى

